التفسير الوعظي لسورة الأنعام

تأليف:

د. محمد محمود الطرايرة

التفسير الوعظي لسورة الأنعام

التَّفسير الوَعْظي لسورة الأنعام

الدكتور محمد محمود احمد الطرايرة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٤٨٦٤ / ٩ / ٢٠٢٢)

رقم التصنيف : ٢٢١،٥٦

الواصفات : / سور القرآن / / تفسير القرآن/ / الوعظ والإرشاد / / القرآن الكريم/

الطبعة الأولى ١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٣م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

للتواصل مع المؤلف

+962 79 617 69 69

m-Tarira@hotmail.com

د-محمد الطرايرة

عمان - الأردن

التفسير الوعظي لسورة الأنعام

تأليف:
د. محمد محمود الطرايرة

الطبعة الأولى
١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحَمْدُ لله الذي أكْرمَنا بالإسلام، وشَرحَ صدورَنا لتلاوة القرآنِ وفهمه، وأَعَدَّ لمنْ صَدَقه في ذلك الدرجاتِ العُلا في الجِنان.

أَحْمدُه على نِعَمِه التي لا تنْقطع، وآلائه التي لا تنقضي.

سُبْحانه؛ ما يفتح للناس من رحمةٍ فلا مُمْسك لَها.

وَأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على الرَّحْمَةِ المهداةِ، سيدِ الأوَّلينَ والآخرين، البشيرِ النذيرِ، الذي اصْطفاهُ رَبُّنا مِن بَيْن خَلْقه، وجَعلَه رسولًا للناس أجمعين، صَلواتُ رَبِّي علَيه وعلى آلهِ الطَّيبين الطاهرين، وعلى أصْحَابِه حمَلةِ الشرع ومصابيحِ الهُدى، وقُدواتِ المؤمنين الصالحين، وبعدُ:

فَهذا تفسيرٌ لسورة الأنعام، قَصَدْتُ مِنْهُ تقْريب عباراتِ أهل العلم في معاني الآيات وأحكامها مِنْ عُموم النَّاسِ، لا سِيّما أنَّ عددًا من كُتب التّفسير فيها لغةٌ عاليةٌ وصعبةٌ على أهل الزمان، فكانت طريقة التصنيف قائمةً على انتقاءِ العباراتِ القريبةِ من الأفهامِ، والاهتمامِ ببيانِ المَعنى بأكثرَ من مُفردةٍ وعبارةٍ.

وَهذا التفسيرُ ينْتفعُ به كذلك صِنفٌ من طلبةِ العِلمِ والدُّعاةِ إلى اللهِ تعالى، مِمَّن تصدّرَ لمجالسِ الوعْظِ والإرشادِ في مُختلفِ مُؤسَّساتِهِ.

وتقْتصرُ فكرتُه على تقديمِ آياتِ كتابِ اللهِ تعالى على هَيْئةِ مواعظَ، تَنْفعُ قارِئها وحافِظَها، عن طريق توضيحِ المقصودِ منها وبيانِ السياق الذي جاءت فيه، وذِكْرِ سببِ نُزولها إن وُجدَ، ثمَّ محاولةِ ربْطها بالواقعِ الذي نعيشهُ دونَ تكلُّفٍ أو إسْهابٍ.

وَهذا التَّفسيرُ أَسْمَيتهُ وَوَسَمْتُهُ بِ "التَّفسيرُ الوَعْظِيُّ"، مُسْتمِدًّا ذلكَ من عددٍ من آياتِ القرآن العظيمِ التِي بيَّنتْ أنَّ اللهَ تعالى أنزلَ كتابَه، وذَكَر فيه ما ذَكَرَ، ليكونَ موعظةً للنَّاسِ وتذكرةً لعلَّهُم يَهْتدون، وذلك كقولِ الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]، وقولِه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقولِه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقولِه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، وقولِه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه:١-٣]، وقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦]، وَغيْرِ ذلكَ من الآياتِ الدّالةِ على أنَّ القرآنَ موْعظةٌ لمَنْ كانَ له قلبٌ، أوْ ألْقى السمْعَ وهوَ شهيدٌ.

وَمنْ تأمَّلَ حالَ كثيرٍ منْ أهلِ الشَّهواتِ والذُّنوبِ، مِمَّنْ غَفلتْ قلوبُهم، ولم تستقِمْ جوارحُهم، وَجدَ أنَّ وصولَ مواعظِ القرآنِ لهُم مِفتاحٌ من مفاتيحِ هدايتِهم ورجوعِهم إلىٰ طريقِ الاستقامةِ والهُدىٰ، ذلك أنَّ كثيرًا منهُم يُحبُّ اللهَ تعالىٰ ويُحِبُّ سماعَ كلامِه، وعندَهُ شغَفٌ وشوقٌ عجيبٌ للعيشِ معَ معانِي الآياتِ وظلالِها، بأسلوبٍ يكونُ قريبًا منهُ ومنْ فُؤادِه، وقد كانَ هذا سببًا من أسبابِ الخوضِ في هذا العِلم، فإنِّي لا أعلمُ واعظًا للنَّفْس أجْودَ وأقربَ وأحْلىٰ منْ كلامِ اللهِ جلَّ في عُلاه.

بل نجد في بيان مواعظ القرآن وهداياته للعالمين مفتاحًا عظيمًا من مفاتيح الثبات حتىٰ الممات، فإن الدعاة إلىٰ الله والقابضين علىٰ دينهم يحتاجون إلىٰ ما يعينهم في زمنٍ قلَّ فيه الناصر والمعين، وكثر فيه السقوط وعزَّ الثبات، وكثرت فيه الشبهات والشهوات، وهو ما يجدونه في آيات القرآن العظيم الذي لا تكاد تمرُّ بآية منه إلا وتجد غذاء للروح، وبلسمًا للشفاء، وهداية ونورًا.

وقد حرَصْتُ علىٰ تَفْسيرِ القُرآن بالقرآن، وذِكْرِ الأحاديثِ الخادمةِ لفهْمِ الآيةِ، وأخْذِ المَوعظةِ منْها، والمرورِ علىٰ مُجملِ أقوالِ أهلِ التَّفسير والفقهِ إنْ لزمَ.

وكانَ منْ منْهجِي في ذِكْرِ الأحاديثِ ألّا أذْكرَ حديثًا إلَّا راجعتُ كلامَ أهلِ التَّخصُّصِ فيهِ تصحيحًا وتضْعيفًا، ثمَّ حَرَصْتُ علىٰ ذكرِ الصَّحيحِ منْها غالبًا، مُشيرًا إلىٰ الأحاديثِ الَّتي حصلَ فيها خلافٌ أو كانتْ ضعيفةً، حالَ ذِكْرِها.

وَجُلُّ هذا التَّفسيرِ قائمٌ علىٰ مراجعَ ثابتةٍ لا أخرجُ عنها إلَّا إذا احْتجْتُ، وهيَ: كتابُ "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام أبي جعفر الطبري، وكتابُ "تفسيرِ القرآنِ العظيمِ" للإمام ابنِ كثيرٍ، وتفسيرُ "المَنَارِ" للشيخ محمد رشيد رضا، وتفسير "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وتفسيرُ "التَّحريرِ والتَّنويرِ" للشيخ محمد الطاهر ابنِ عاشورٍ، وتفسيرُ "أضواءِ البيانِ" للشيخ محمد الأمين الشَّنقيطيِّ، رحمهمُ اللهُ جميعًا.

ولا يفوتني أن أشير إلىٰ أن فكرة التفسير الوَعْظي ليست بِدْعًا من القول، فإنَّ استنباطَ المواعظ وذِكرَها دأبُ غالب المفسرين في تفسيرهم، وهو جزءٌ من التفسير الموضوعي للمتخصصين في هذا الشأن.

فاللهم ربنا سدد وتقبل، ويسر الأمر، وارزقنا بركة القرآن، واجعله لنا نورًا وشفيعًا في الدّارَين.

سورة الأنعام

سورة الأنعام مكية، أي: نزلت قبل هجرة النبي ﷺ وأصحابِه إلى المدينة، وقد كان وقتها يعيش في مكة التي كان أهلها يعبدون الأصنام، وقد طاشت عقولهم وتعلقت بما صنعت أيديهم، وغفلوا عن دلائل التوحيد التي تحيط بهم من كل حَدَب وصَوْب، وغفلوا عن حقيقة التوحيد الذي ينبذ الوسائط بين العبد وبين خالقه، ويجعل الصلة مع الله وبالله بلا واسطة.

ولذلك يلحظ القارئ المتدبر في آيات سورة الأنعام قلة الأحكام الشرعية والأوامر والنواهي، ويجد أن آيات السورة تألقت في تخلية القلب من كل ما غطاه، وحلقت به في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما ليقودَه ذلك إلى نبذ الشرك وأهله والدعاة إليه والمدافعين عنه، والإقبال على التوحيد والعبودية وأهلهما، فيظفرَ بالسعادة والطمأنينة والارتقاء.

ومما يلحظه القارئ كذلك أن السورة تُظهر سفاهة أهل الشرك فيما يعتقدون ويُشرِّعون، وتبين جوانب من تخبطهم في الفهم والعلم والعمل. أخرج البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ العَرَبِ، فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلاَثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]".

إن نزول السورة في مكة جعل كثيرًا من آياتها تركز على بناء العقيدة في قلوب قارئيها وحافظيها ومستمعيها، وتنقلهم إلى التفكر في آيات الله، واستحضار عظمته وعلمه وحكمته، وتُرغِّبهم في جنته ورضوانه، وتُخوِّفهم من ناره وعقوبته، وترتقي بهم في مقامات الإجلال والتوحيد والهداية.

وقد جاء في آثار مرفوعة إلى النبي ﷺ، وكذلك موقوفة على الصحابة أن سورة الأنعام نزلت دفعة واحدة، وأنها لما نزلت كان معها سبعون ألف ملك يُشَيِّعونها، وكان لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتحميد، ولكن هذه الآثار ضعيفةٌ لا يصح منها شيء.

والأنعام لفظة تشير إلى نعمة عظيمة من نعم الله تعالى التي يعيش الخلق في ظلالها ليلهم ونهارهم، فالإبل والبقر والغنم مما لا يستغني عنه أحد، وتشير كذلك إلى آية من آيات الله في أرضه التي يدركها من تأمَّل تفاصيل خَلْقها ونفعها، ولا يسع من أطلق عقله فيها وتدبر إلا أن تزداد عظمة الرب جل وعلا في قلبه.

ما أجملها من سورة يزداد قلب المؤمن معها ثباتًا على الدين، وثباتًا في وجه المُعرضين والصَّادِّين والمُبْغضين، ويستشعر الواحد منا بآياتها جميل لطف الله به أن اصطفاه لحمل راية التوحيد في الأرض، وذلك بعد أن شرح صدره لما يحب ويرضى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾

ابتدأت خمس سور في كتاب الله العظيم بحمد الله تعالى، وهي سور الفاتحة والأنعام والكهف، وسورتَي سبأ وفاطر، وهذا ابتداء منسجم بالتمام مع الغاية العظمى من خلق الخلق، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهي الغاية التي من أجلها قامت السموات والأرض، وهي أن العبودية لا تكون إلا لله وحده، وأن تمام الحمد لا يكون إلا لله وحده.

وجميع السور التي ابتدأت بالحمد سور مكية، وتجدون بعدها على الدوام تذكيرًا بالنعم، وتعظيمًا لموجدها ومعطيها، ودعوةً للإيمان بما أُنْزل وبمن أُرْسل.

هنا ثناء جميل على الله تعالى بصفات الكمال والجلال، وذِكر حسَنٌ لمن ذِكْرُه نجاة، وتذكيرٌ للعالمين بنعمتين من النعم التي لا يستحق أحد أن يُحمد عليها إلا الله، فإنها تدل دلالة بينة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير.

ولقائل أن يقول: وهل يصح حمد غير الله من البشر والثناء عليه؟ والجواب أنه يصح فيما يستحقه من أسباب الحمد وبالألفاظ المعتبرة المعروفة بين الناس، ومعلوم لديكم أن الواحد منا قد يحمده الناس على عمل ما أو خَصْلة ما، وقد يحمد هو غيرَه على عمل ما أو خَصْلة ما، كأن يقول: "نحمد في فلان دينَه وعلمَه وحسنَ خلقه"، ولكن هذا الحمد يبقى حمدًا نسبيًّا منقوصًا غير تام، لأن المُعطي فيه لا يملك العطاء على الدوام، ولا تعدو حقيقة أمره أن يكون ممن أجرى الله نعمته على يديه وجعله سببًا لها، ونجده على الغالب لا يعطي إلا لمنفعة ترجع إليه، بخلاف الحمد الذي نطلقه في حق ملك الملوك بسبب واسع عطائه، وبخلاف الحمد على صفات رب العزة جل وعلا، فإن حمده على كل ذلك حمدٌ تامٌّ غيرُ منقوص، وهو حمد مطلق لمن بيده الأمر وله الملك، وهو حمد لمن لا تنفذ خزائنه، ولا تغيب عنه غائبة في السماوات والأرض، وحمد لمن يفتقر إليه كل الخلق ولا يحتاج إلى أحد، ولذلك كان الحمد كله لله وحده لا شريك له.

أما النعمة الأولى التي توجب حمد الله تعالى والثناء عليه كما جاءت بها الآية، فهي نعمة خلق السماوات والأرض، فإن الله تعالى أوجدهما من العدم، وجعل فيهما من أسباب القيام والنظام والحركة ما يحفظهما من الزوال أو الخلل، وما يسهل على أهلهما عَيشهم، وما يستدل به الخلق على محبوبهم وسيدهم ومولاهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ هذه هي النعمة الثانية التي جاءت بها الآية من بين نعم الله الكثيرة التي تستوجب الحمد، وهي نعمة عظيمة تستحق أن يتحرك القلب واللسان معها، وقلما تجد من ينتبه إليها، ألا وهي نعمة الظلمات والنور، وهي من النعم التي يستوي في إدراكها والشعور بها كل الناس، فلا يقدرون على إنكارها وإنكار عظمتها.

والمقصود بهذه النعمة هي أن الله تعالى جعل الظلمات والنور في السماوات والأرض على وفق علمه وحكمته، ومن ذلك أنه أظلم الليل ليسكن الخلقُ ويرتاح، وأنار النهار ليُعين على الإبصار وقضاء حاجات المعاش.

وظاهر الآية أنها جاءت بحمد الله تعالى على نعمة الظلمات والنور المحسوسة والمادية التي نبصرها بأعيننا، والتي يدرك منافعها الصغيرُ قبل الكبير، إلا أن أهل العلم في بيانهم وتفسيرهم للآية أعقبوا حديثهم عن المعنى الحقيقي للظلمات والنور بالمعنى المجازي، وقال بعضهم: لا مانع من تفسير الآية هنا بالمعنيين.

والمقصود بالمعنى المجازي أو المعنوي هو أن مفهوم الظلمات هنا يشير إلى ظلمات الجهل، والشك، والشرك، والمعصية، والغفلة، وأما النور فهو نور الإيمان والتقوى والعلم والطاعة، فهذه الظلمات وهذا النور مما لا يقدر عليه، ولا يملكه إلا الله وحده، ولا يكون إلا بمشيئته وإرادته.

ولكم أن تتأملوا في بلاغة جمع لفظة (الظلمات) وإفراد لفظة (النور)، فطرائق الضالين ومشاربهم كثيرة ومتعددة، بخلاف طريق الحق وأهله فهو واحد لا يتعدد. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وكأن الآية تنادي علينا وتطلب منا أن نحمد الله على هذه النعم، وأن تكون فاتحةً لاستحضار غيرها من النعم العظيمة وما أكثرها، وأن تتعلق قلوبنا بالمنعم المطلق الكامل سبحانه، وإن أثنينا ببعض عبارات المدح على البشر بسبب ما فعلوه وما حملوه من خصال.

ومطلوب منا كذلك أن نحمل رسالة الحمد هذه، ونوصلها إلى أهل الضلال من البشر ممن حولنا، ونطلب منهم أن يفردوا الخالق بالوحدانية والعبادة، فما أحوجهم وربي لهذا الدين الذي هو مَخْرجهم من سوء أحوال قلوبهم، ومن الظلمات التي يعيشون فيها.

ومطلوب منا أن نعيش مع هذه المعاني إذا ما تلونا سورة من القرآن أو آية منه، ومررنا بحمد الله والثناء عليه، سواء كنا في الصلاة أو خارجها.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ هذا من عجيب حال أهل الكفر الذين نظروا في خلق السماوات والأرض، والذين يعيشون نعمة الظلمات والنور صباحهم ومساءهم، ومع ذلك لم تتحرك فيهم فطرتهم لتقودهم إلى التوحيد الذي فيه خلاصهم ونجاتهم.

عَدَل أهل الكفر عن التوحيد إلى الشرك، بعد أن أغلقوا أعينهم وآذانهم وجميع حواسهم عن انتفاعها بآلاء الله تعالى التي أحاطت بهم من كل جانب، واتخذوا مع الله شركاء من أصنام الحجر والبشر، ومنهم من جعل لله ابنًا وصاحبة.

غريب حال أهل الأصنام كيف يمدحونها ويحمدونها على العطاء والصفات، وهي لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا تملك تصرُّفًا ولا علمًا، كما فعل أبو سفيان يوم كان على الشرك، ويوم انتصر المشركون في غزوة أحد، فقد أخرج البخاري أنه بعد انتهاء المعركة وجَّه كلامه للنبي ﷺ ولأبي بكر وعمر وغيرهم رضوان الله عليهم قائلًا: "أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ"، وقال: "إِنَّ لَنَا العُزَّىٰ وَلَا عُزَّىٰ لَكُمْ"، ولقد أمرهم ﷺ بأن يجيبوه بقولهم: "اللَّهُ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ"، وقولهم: "اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَىٰ لَكُمْ».

وقيسوا حال أهل الصابئة والمجوس والنصارى على حال أهل الأصنام، فالصابئة حمدوا آلهتهم من الكواكب السماوية، والمجوس عظَّموا النار وجعلوا النور والظلمة إلهين يُحمدا، والنصارى جعلوا الآلهة ثلاثًا، ولا يفوتكم حال بعض البشر الذين تعلقت قلوبهم بالبشر في مدحهم لهم وثنائهم عليهم، حتى جعلوهم أهلًا للحمد الكامل وهم ناقصون فقراء إلى الله.

وصف القرآن العظيم هؤلاء جميعًا بأنهم يعدلون، أي: يميلون وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال، ويُسَوُّونَ بين الخالق ومن خلق في التعظيم والرغبة والرهبة. قال الله تعالى: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ١٧].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾

تشير الآية إلى قصة بدء الخلق، يوم خلق الله تعالى أبانا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من طين، ثم أخرجنا من صلبه بالتناكح والتكاثر المعروف، فانتشرنا في مشارق الأرض ومغاربها نبتغي عمارتها بالعقل الذي ميزنا الله به، وجعله مناطًا للتكليف والمحاسبة.

واعلموا أن أبانا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي خُلِقَ من تراب ممزوج بالماء، وهو الطين، ثم خلقت من ضِلَعه أُمُّنا حواءُ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، ثم قدَّر الله في الخلق من بعد ذلك أن يكون خلقهم ووجودهم وتكاثرهم عن طريق النطفة التي تخرج من صلب الرجل، والتي تختلط بماء الزوجة وتكون في رحمها، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

والمقصود من التذكير بهذه الآية العظيمة هو الإنكار على أهل الكفر الذين لا زالوا يصرون على نصب رايات العداء للتوحيد وأهله، والذين لا زالوا يصدون عن سبيل الله من آمن يبغونها عوجًا، وكأن الآية تقول لهم: لماذا اخترتم طريق الشك والريبة وسوء الظن بالله سبحانه ؟ ولماذا أنتم تمترون وأنتم ترون معالم قدرة الله وتعلمونها حق العلم؟ ولماذا تصرون على كفركم وقد جعل الله لكم أجلين آمنتم بواحد منهما وكفرتم بالآخر؟ وإليكم البيان:

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي: قدَّر الله عَزَّوَجَلَّ لكل واحد منا بعد خلقنا ووجودنا في هذه الحياة أجلًا، وهذا الأجل يتعلق بعمره الذي سيعيشه ويتمتع به ويُبتلى، وهذا الأجل هو أجل الموت الذي هو حق على العالمين جميعًا، والذي يصلح التذكير به خطابًا ودعوة لهؤلاء الجاحدين المشركين بالله العظيم، فهو أمر مشاهد محسوس يعلمونه جيدًا، ولعلهم إن ذكروا الموت آمنوا بالأجل الثاني المذكور في الآية، كما قال الله تعالى:

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ وهذا هو أجل قيام الساعة، وهو الأجل الذي سيُبعث فيه الناس من قبورهم، ويقفون بين يدي العظيم للحساب حتى ينتهوا إلى دار خلودهم في الجنة أو النار، وهو الأجل الذي ينكره كفار قريش ومَنْ حولهم.

وقد جعل الله تعالى موعد قيام الساعة مسمًّى عنده، أي: لا يعلمه نبيٌّ ولا وليٌّ ولا مَلَك ولا إنس ولا جنٌّ، فهو مما استأثر الله بعلمه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

ومن رحمة الله بالعباد أنه جعل لقيام الساعة علامات وأمارات ليزداد استعدادهم لها، وليحذروا من إصرارهم على الكفر والمعاصي، وإن كان قيامها على الناس في آخر الزمان يأتي بغتة وفجأة، كما قال ربنا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ﴾ [محمد: ١٨].

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ يحمل الخطاب هنا توبيخًا لأهل الكفر الذين يعيشون مع آيات الله ودلائل عظمته صباح مساء ثم هم يمترون، أي: يشكون ويترددون في أمر الساعة، وفي قيام الناس بعد موتهم للحساب، وفي وقوع الجزاء يوم القيامة، وفي قدرة العظيم جل جلاله. قال الله تعالى عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ [النحل: ٣٨].

وهذا الشك الذي أحاط بقلوبهم سببه عدم تصديقهم بصاحب الرسالة وما أُنزل عليه من القرآن.

يا من تعبدون الأصنام وتنكرون البعث بعد الموت، ويا من استبعدتم إعادة خلق الإنسان بعد أن يموتَ ويصيرَ ترابًا، ويا من عدلتم مع الله غيره في العبادة والخوف والرجاء: الله الذي خلق السماوات والأرض، وأظلم ليلهما وأنار نهارهما، هو الذي خلقكم من طين وبث فيكم الروح لتعيشوا ما قدَّره لكم، ثم تموتون وترجعون ترابًا، ثم يحييكم مرة أخرى وترجع أرواحكم إلى أبدانكم ويكون الحساب، فمن صدق في إيمانه بالخلق الأول كان الإيمان بالنشأة الأخرى عليه سهلًا. قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الرّوم: ٢٧].

يا أهل الكفر والريبة والشك والتذبذب في الإيمان والاعتقاد: أجل الموت وأجل قيام الساعة من الآجال التي جعلها الله لكم تذكرة، فأقبلوا على الإيمان بمحمد ﷺ، وبجميع ما جاء به، وانتبهوا لأنفسكم قبل فوات الأوان.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

ومن دلائل عظمة الله ووحدانيته واستحقاقه للعبودية أنه المعبود والمدعو في السماوات وفي الأرض، وهو الذي يتوجه إليه الخلق جميعًا في ملكوته بالطاعة والانقياد، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخْرُف: ٨٤]، أي: هو إله من يسكنون السماء، وهو إله من يسكنون الأرض، لا إله لهم سواه ولا رب غيره، سبحانه، فلا عبرة بالمعبودات من غيره وإن رضيها أصناف من البشر. قال الله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾ [النجم: ٢٣].

وقد ظنت طائفة من طوائف أهل الضلال، وهي طائفة الجهمية التي أنشأها رجل اسمه الجهم بن صفوان في القرن الثاني الهجري، وقد جاء عن بعضهم أن معنى الآية هنا أن الله تعالى موجود بذاته في كل مكان، وهذا أمر يخالف ما في الكتاب وما في السنة، وما قاله السلف من علماء الأمة من أن الله تعالى موجود في السماء، وأنه مستو على عرشه فوق جميع خلقه، كما قال سبحانه عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال جل وعلا: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال عزَّ من قائل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ الله الذي خلقكم لم يهملكم، بل هو عالم بأسرار خلقه في السماوات والأرض، وبجميع أعمال قلوب أهل الأرض، وهو عالم بما يجهرون به من الأقوال، وما يظهر منهم من الأفعال، وهو عالم بجميع أحوالهم ولا يخفى عليه شيءٌ من ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

والمقصود: كيف تنسبون الألوهية لغير الله تعالى ؟ وكيف تحمدون غيره ؟ وكيف تتجرؤون على الذنوب والمعاصي، وتجاهرون بها، وتصرون عليها ولا تتوبون ؟

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ ويعلم جل وعلا جميع ما عملته جوارحنا وقلوبنا من خير أو شر، وسيحاسب الخلق على كل ذلك، ويجازيهم به في يوم يجعل الولدان شيبًا.

صحيح أن الخطاب هنا جاء في سياق تذكير أهل الكفر ودعوتهم وإقامة الحجة عليهم، ولكن لا يفوتكم أن أهل الإيمان ومن في قلبه صلاح يحتاجون لمثل هذا الخطاب الرباني العظيم، فالواحد منا لا يستغني عن استحضار علم الله وسمعه وبصره في جميع أحواله، ولا يطيب له عيش ولا يكون له ثبات على الطاعات وتركٌ للمحرمات إلا بأن يعيش في ظلال ما أرادته الآية هنا.

وكأنها تقول لنا: هو سبحانه يعلم ما نسر في أنفسنا، وما نعلن في أقوالنا، وهو سبحانه في كل مكان وزمان بسمعه وبصره، وهو الذي أحاط علمه بخلقه، ولم يحيطوا هم به علمًا.

وكأنها تقول لمن ابتعد عن الطريق، وراودته نفسه لفعل الحرام واقترب منه كثيرًا، وربما فعله ولا زال مصرًّا عليه، أقول: كأنها تنادي عليه وتطلب منه أن يستحضر عظمة من رضيه ربًّا، وعظمة من اصطفاه للدين وشرح صدره له، وعظمة من يراقبه في خلواته وجلواته، وأن يقوده ذلك إلى المسارعة في التوبة والاستقامة.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾

أغلق أهل الشرك والكفر جميع حواسهم عن التدبر والتفكر، ولم ينظروا أو ينتفعوا بالآيات والمعجزات التي لا تفسير لها إلا أن يكون محمدٌ ﷺ مرسلًا من عند الله تعالىٰ، والتي لا تفسير لها إلا أن هذا الكون له إله واحد خالق مدبر مالك، والتي لا يُقبل معها إلا أن يعبدوه وحده ولا يصرفوا طاعتهم وعبادتهم ورغبتهم ورهبتهم إلا إليه.

والعجيب أن صنفًا من أهل الكفر أيقنوا أن محمدًا ﷺ نبي مرسل، وأن ما جاء به إنما هو من عند الله، ولكنهم عاندوا واستمروا علىٰ الكفر حتىٰ ماتوا عليه، كما جاء في بيان حالهم قول الله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقول الله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، ومعلوم لديكم أن الجحود لا يكون إلا بعد معرفة الصواب والصدق.

وقد روىٰ أهل التفسير بأسانيدهم أن الْأَخْنَسَ بْنَ شَرِيق التَقىٰ بأبي جَهْلٍ وخلا به (أي: كانا وحدهما)، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَكَمِ، أَخْبِرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ: أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ؟ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا مِنْ قُرَيْشٍ غَيْرِي وَغَيْرُكَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَيْحَكَ! وَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ، وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ، وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَتْ بَنُو قُصَيّ بِاللِّوَاءِ وَالسِّقَايَةِ وَالْحِجَابِ وَالنُّبُوَّةِ، فَمَاذَا يَكُونُ لِسَائِرِ قُرَيْشٍ؟

فتأملوا كيف أقيمت عليهم الحجة، وجاءتهم الآيات بعد الآيات، من معجزة القرآن وانشقاق القمر وغيرهما مما لا يقدر عليه إلا الله، فضلًا عن آياته المبثوثة في السماوات وفي الأرض وفي أنفسهم، ولكنهم صدوا واختاروا طريق الكفر والشك والضلال، ولم يلقوا لهذه الآيات بالًا ولم يصغوا لها سمعًا، وهذا إن دلَّ علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ أنهم لم ينظروا، ولم يتدبروا، ولم يتفكروا فيما جاءهم من الآيات والمعجزات، ولكنهم أعرضوا ونصبوا رايات العداء من أول الأمر عنادًا واستكبارًا. قال الله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١-٣].

ونرىٰ في زماننا من يشبه حالُه حالَ هؤلاء، ممن يسمع آيات الله تُتلىٰ عليه، ويرىٰ دقائق عظمة الخالق في علوم الطب والهندسة والكيمياء وغيرها، وكذلك يرىٰ آيات الله في الأنفس وفي عالم الحيوانات والنباتات والبحار، وفي الآفاق كلها، ثم لا يتحرك له قلب، ولا تهتز له شعرة، ويأبىٰ أن ينقاد لذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾

كذَّبوا بالحق، واختاروا طريق أهل الضلال والغواية، واختاروا طريق الاستهزاء والسخرية من المؤمنين، ومن القرآن والبعث والجنة والنار، وهؤلاء لم يقتصروا على الإعراض، بل كذبوا وجهروا بذلك، ثم استهزؤوا على نحو يدل على عظم صدودهم.

والحق المذكور في الآية هنا هو الهدى الذي جاء به محمد ﷺ فيما أوحي إليه من الكتاب والسنة.

يتوعدهم ربنا في الآية الكريمة بالعقوبة بسبب هذا التكذيب، ويخبرهم أنهم سيشهدون بأم أعينهم كيف سيظهر أهل التوحيد عليهم وينتصرون، وكيف سيلحق الخزي والعذاب بهم في الدنيا كما حصل معهم في غزوة بدر والأحزاب وفتح مكة وغيرها، وسيأتيهم كذلك الخبر اليقين من أهوال يوم القيامة وما أعَدَّه الله لهم من سخطه وعقوبته، وسيرون بأعينهم النار وملائكة العذاب وجميع الأهوال التي كانوا يستهزؤون بها في الدنيا، ويسخرون منها وممن يخبرهم بها ويحذرهم منها. قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص: ٨٧-٨٨].

انظروا في حال أهل الكفر ورؤوس الفسق والضلال، انظروا كيف يستهزؤون بالدين وحملته، ويتخذون ذلك سلاحًا في إسقاط هيبة الوحي، وإسقاط الدعاة إلى الصراط المستقيم من قلوب من يستمع إليهم ويخالطهم، بل يتخذون ذلك طريقًا لإضعاف الدعاة أنفسهم، وإدخال الحزن إلى قلوبهم، وإحباطهم وإقعادهم عن العمل للدين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣]، فهذه عادة لهم وديدن وأسلوب قديم، منذ أن قامت الحرب بين الحق والباطل، وبين أولياء الله وأعدائه.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

مَكَّن الله لأقوام عاد وثمود وغيرهم من قبلُ، ورزقهم ملكًا قويا راسخًا ثابتًا، ورزقهم كذلك من الأموال والأولاد والأعمار والجاه والعلو في الأرض ما رزقهم، وأرسل الله عليهم السماء مدرارًا، أي: ماء متتابعًا غزيرًا نافعًا يأتيهم كما يحبون حتى جرت الأنهار من تحتهم، أي: تعددت الأنهار وكثرت، وانفجرت العيون التي سالت بسببها الأودية، وكانت تسير بين

قصورهم وحول بيوتهم، فلم يشكروا نعمة الله عليهم، وظنوا حينها أنهم قادرون على الأرض، وأن أمر النفع والضر بأيديهم، فاستدرجهم ربهم بهذه النعم، ثم قال سبحانه:

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: كانت ذنوب الكفر والجحود والاستهزاء سببًا في هلاكهم وفنائهم، فزال ملك قوم عاد، وانتهى وجودهم بالريح التي أرسلها الله عليهم، وكذا قوم ثمود بالصاعقة التي هي نار محرقة نزلت عليهم من السماء فأهلكتهم، وكذا غيرهم من الأقوام الذين كان هلاكهم مؤلمًا موجعًا، وكان بتدبير لا يكون إلا من عند ذي القوة المتين.

ثم إن الله تعالى أنشأ من بعدهم قرنًا آخرين، أي: أمة أخرى، وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب لعلهم يعتبرون ويتَّعظون، ومكن لهم وآتاهم من فضله ونعمه.

ولفظة القرن تشير في أصلها إلى الزمن الطويل، وتطلق على الأمة التي دامت ومكثت طويلًا واقترنت في زمن واحد، وتطلق كذلك على الجيل من الأمة، وقد اشتهر بين الناس اليوم أن القرن مائة سنة، ومنهم من جعله قديمًا سبعين أو ثمانين سنة، ومنهم من أوصله إلى أربعين.

تخاطب الآية أهل مكة، وتقول لهم: وأنتم يا أهل مكة، لا تغتروا بقوتكم ومكانتكم، هذه آثار الأمم التي خسف الله بها حاضرةٌ أمامكم، وتعلمونها وتمرون بها في رحلتكم إلى الشام وإلى اليمن، وهذه حكايات القرون المتعددة التي ذهبت بعد عزها تتوارثها الأجيال من زمانهم إلى زمانكم، ويتحدثون عنها، فلماذا لا تعتبرون بسنة الله تعالى فيمن كذَّب أنبياءه ؟ وما بالكم لا تتعظون ؟ ألا تعلمون أنهم كانوا أقوى منكم وأعظمَ تمكينًا ومع ذلك لم تمنعهم قوتهم عذابَ الله وبأسَه الشديد ؟ ألا تخافون أن يصيبكم ما أصابهم ؟

أقول: ولا زال أهل الكفر والجحود إلى أيامنا يرون عجائب قدرة الله فيمن تعدى وطغى وتجبر، ولكنهم لا يعتبرون.

وأستطرد في البيان لأنقل لكم ما قاله بعض أهل العلم حول الذنوب التي تكون سببًا في زوال القرون وإهلاكها، وإنشاء قرن آخر لعله يحمل الأمانة التي كلفه الله بها، فقد ذكروا أن سبب هلاك الأمم لا يخرج عن أمرين:

الأول: معاندة الرسل ونصب رايات العداء لهم، والكفر بهم وبما جاؤوا به، ومنه ما جاء معنا هنا في تفسير الآية.

الثاني: جحد نعم الله، والكفر بها، واستعمالها في عصيانه، والاستكبار على الناس واحتقارهم، وانتشار الظلم فيهم والإسراف في أكل حقوق الضعفاء والفقراء، وإلى هذا المعنى أشار قولُ الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٨-٥٩]، وقولُ الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقولُهُ جل وعلا: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

تستطرد آيات كتابِ الله في بيان مكابرة أهل الكفر ودناءة خصالهم، وفي بيان غُلوِّهم في كفرهم، وفي إصرارهم عليه مع كثرة أدلة الهدى وتتابعها وقوتها.

ومن بلاغة القرآن في وصف ذلك أنه أخبر عنهم أنهم لو عاينوا مزيدًا من الأدلة المحسوسة التي لا شكَّ فيها ولا ريب، كما لو أنزل الله عليهم كتابًا في قرطاس، أي: جاءهم كتاب من الله يخاطبهم بخصوصهم ويدعوهم إلى الإيمان، ويكون هذا الكتاب حاضرًا بين أيديهم في قرطاس، أي: في صحيفة من ورق أو غيره، يرونها بأعينهم ويقرؤون منها، ويلمسونها بأيديهم، أقول: تخاطب الآية نبينا ﷺ و تقول له: لو حصل كل هذا معهم لأعرضوا وجحدوا، ولأوهموا قومهم وأتباعهم، واعتذروا عن دخولهم في دين الله بأن الذي جاءهم إنما هو سحر، أي: هذه تخيلات وليست حقيقة.

والناظر في كتاب الله تعالى يجد أن هذا العناد لازم لهم، وأنهم يطلبون الشيء ليؤمنوا ثم يكفرون به، كما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقولِه سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الْإِسْرَاءِ: ٩٠-٩٣].

وهذا العناد ليس محصورًا في أهل الكفر من الأمم السابقة، بل هو موجود في الأمم التي نعيش معها وفيها على الغالب، والتي ترى عجائب قدرة الله ولا يتحرك فيها شيء، كما أشار إلى ذلك قول الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، وقول الله تعالى عن ملة الكفر على وجه العموم: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

جاء هذا الخطاب لنبينا ﷺ ولأصحابه ولجميع الدعاة من بعده، لئلا ييأسوا من دعوة أهل الكفر وجهادهم، ولئلا يدخل عليهم الحزن والضيق من شدة ما يجدون منهم من صدود وإعراض، وتأملوا في ذلك خطاب الله تعالى لنبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

وتأملوا كذلك أيها الدعاة إلى الله في هذا الخطاب الرباني: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾

بلغ الحال بهم أن يطلبوا من سيدنا محمد ﷺ أن يكون معه رسول من الملائكة يعاونه ويساعده ويشهد له بالصدق ليصدقوه ويؤمنوا به، وأن يرونه بأعينهم ويدعوهم ليهتدوا، فهم يعتقدون أن الرسل الذين هم من البشر لا يصلحون وحدهم لهداية الناس ولا يليقون بهذا المقام، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى قضى بأن مجيء الملائكة إليهم بعد كل هذا الجحود والعناد والاستكبار والاستهزاء لا يكون إلا بنزول العذاب عليهم وانقضاء الأمر، ولن يُنظروا أو يُمْهلوا بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨].

الملائكة عباد لله تعالى، وهم لا يحبون المجرمين ولا يتوافقون معهم بحال من الأحوال، ولا ينزلون في القوم المغضوب عليهم إلا بالهلاك، وهم يحبون المؤمنين ويستغفرون لهم، ويحفظونهم بأمر الله في الدنيا، ويعينونهم في جهادهم ودعوتهم، وينتظرونهم غدًا في إقبالهم على الله ليَزِفوهم إلى الجنات وليدخلوا السرور عليهم ما استطاعوا.

إذا نزلت الملائكة عليهم فإنما تنزل بالعذاب، فكان طلبهم نزول الملائكة دالًّا على أنهم لن يؤمنوا ولو جاءهم ما جاءهم، وأن المشكلة عندهم لم تكن في أدلة صحة هذا الدين وصحة الشريعة، ولم تكن في الآيات الكثيرة المتتابعة، وإنما كانت في أنهم أغلقوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم عن أن يفهموا ويفقهوا ويرشدوا ويهتدوا.

ولقائل أن يقول: ولماذا لا يجيبهم الله تعالى إلى ما طلبوا ليكونوا من أهل الدين والإيمان؟ والجواب أن الله تعالى يعلم أن ما صدر عنهم لم يكن طلبًا للآيات والدلائل ليقبلوا على الإسلام بفهم ورغبة وحب، وإنما كان من باب الاستكبار والاستهزاء والعناد، وأنهم لو جاءهم ما طلبوا لما آمنوا، بدليل كثرة الآيات التي لا شبهة فيها.

ثم إن هذا الدين لا يكون بحسب أهواء كل واحد من الناس، وبحسب مزاج السادة والملأ، ولكنه دين نزل من عند حكيم خبير عظيم قادر، ونزوله يكون بحسب علم الله تعالى بما ينفع الناس.

والمتأمل في عدم الاستجابة لهم بما يطلبون، يدرك لطف الله بهم ورأفته وحكمته، فالله تبارك وتعالى علم منهم ما سيكون بعد أن أصروا على طلب الأدلة المحسوسة الواقعة في نطاق المشاهدة المباشرة مع أنها وُجدت وَوُجد غيرها، وهذا يعني أن العقوبة ستحل بهم جميعًا بعد انقطاع العذر وانتهاء الإمهال، ولكنه سبحانه بلطفه وكرمه أمهلهم وابتلاهم بمجاهدة النفس وبأن يختاروا ما يريدون، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، ولا تدري لعل عددًا منهم يؤمن في قادم الأيام، ولعل أصلابهم تكون خيرًا منهم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾

هذا جواب ثان لأهل الكفر الذي طلبوا إرسال ملك من ملائكة السماء ليدعوَهم إلى الله ويؤمنوا، وليكونَ مع نبينا ﷺ في دعوته ناصرًا ومعينًا وعلامة على صدقه، وهذا الجواب يعلمنا كيف أن الله تعالى رد على أهل الكفر حيلهم التي يتذرعون بها، وأبطل أعذارهم التي يعلم القاصي والداني أنها لا تحمل إلا العناد والمكابرة، وفي ذلك توجيه لهم وإقامة للحجة عليهم.

يقول الله تعالى لهم: لن تنتفعوا من إرسال الملك إلا إذا جاءكم على هيئة رجل يعيش ما تعيشون، ويشعر بما تشعرون، ويتكلم بلسانكم ويخاطبكم بما تفهمون وتعقلون، ولو أنه كان من غير جنسكم لتعذَّر التأسِّي، وامتنع الاقتداء، ولما قامت الحجة عليكم خير قيام. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٦٤].

إن هداية البشر لا تصلح إلا إذا كان داعيتهم منهم ليحصل السكن والأنس وتآلف الطباع المرجو والمطلوب والنافع، ولذلك كان من تمام حكمة الله تعالىٰ أن يكون الرسول بشرًا، بخلاف ما لو كان أهل الأرض من الملائكة فإن رسولهم سيكون ملَكًا مثلهم. قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٥].

ثم إن قدرة البشر علىٰ رؤية الملائكة في الدنيا مما لا يكون إلا استثناء، فلقد خلق الله الملائكة من نور، ولم يعط أبصارنا القدرة علىٰ رؤيتها، وكذلك جعل الاتصال بهم فيه عناء شديد لا يطيقه البشر عمومًا لاختلاف الطبيعتين.

ولا تكون رؤيتهم علىٰ وجه اليقين إلا بإخبار من النبي ﷺ كما حصل معه ذلك برؤية جبريل علىٰ هيئته الحقيقية مرتين.

ومعلوم لديكم أن جبريل وغيره من الملائكة تمثلوا لسيدنا إبراهيم ولوط عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ علىٰ هيئة البشر، وكذلك لنبينا ﷺ وللصحابة رضوان الله عليهم في حديث بيان الإسلام والإيمان والإحسان.

﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ أي: فلو كان رجلًا مثلهم لالتبس عليهم الأمر مرة أخرىٰ ولم يؤمنوا، ولرددوا ذات كلامهم الذي لا فائدة منه، ولطلبوا مرة أخرىٰ أن يكون الرسول ملكًا، وقد تقدم أن الله تعالىٰ قدَّر أن لا يكون مجيء الملائكة إليهم إلا بالعذاب والنكال.

ومن أوجه الالتباس عليهم أن يستغنوا عن حاجتهم إلىٰ محمد ﷺ النبي الكريم الذي فضله الله علىٰ جميع خلقه واصطفاه الله لهم، وينصرفوا إلىٰ هذا الملك الذي جاءهم علىٰ هيئة بشر فلم يدروا أملك هو أم بشر؟ ولربما تنكروا له وقالوا: نحن نشك في بشريتك أو ملائكيتك، فلم يبق لطلبهم أي فائدة.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾

سياق قرآني ممتد تلحظونه في الآيات هنا، يهدف إلىٰ كمال تسلية النبي ﷺ وأصحابه والدعاة من بعده، وهذه التسلية لا يستغني عنها داعية إلىٰ الله في تقوية ثباته أمام مكر السادة وأتباعهم من أهل الكفر الذين يتربصون بالدعوة وأصحابها صباحهم ومساءهم.

يا محمد ﷺ، لقد نصر الله إخوانك من الأنبياء والرسل على من كذَّبهم وعاداهم بأنواع من النصر، ولا تظن أن هذا النصر جاء بدون صبر وتضحية واستعانة بالله العظيم، فلقد وَجدوا قبلك مثلما وجدت من السخرية والانتقاص والتكذيب والإيذاء والتحدي، ولكن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة لا تكون إلا لك ولأصحابك ولمن سار على نهجكم واهتدى بهديكم.

هَوِّن عليك ما أنت لاقيه منهم، وامض في طريق دعوتك وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر، وتذكَّر أن الله عاصمك منهم، وأن غضب الله وعذابه إذا نزل عليهم فإنه سيحيق بهم ويهلكهم ويستأصلهم كما حصل بأقوام سابقين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

واستعمال لفظة الاستهزاء هنا يدل على أن طلبهم في الآية السابقة بإرسال مَلَك لا يعدو أن يكون طمعًا في التعجيز، وزيادة في الكفر وإصرارًا عليه، وأن مقصدهم من هذه السخرية هو تنفيرُ الناس عن الدعوة، وضمانُ بقاء أتباعهم حولهم، هم لم يدركوا حتى اللحظة أن استهزاءهم هذا كان سببًا لهلاك عدد من الأمم قبلهم، أي تهديد ووعيد وتحذير هذا ؟

استهزأ قوم نوح بسيدنا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقال لهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، ثم إن الله تعالى عاقبهم على سخريتهم هذه ودوام انتقاصهم وازدرائهم بالطوفان الذي غرقهم.

وكذلك سخر قوم هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منه، وقالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]، فأرسل الله عليهم الريح العقيم عذابًا من عنده، وكذلك سخر قوم صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منه، كما في قوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]، فأخذتهم الصيحة بظلمهم، وسخر قوم لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منه، وكذلك قوم شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فخسف الله بقوم لوط الأرض، وأخذ قومَ شعيب عذابُ يوم الظُّلة.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقول لقومه الذين عادوه وصدوا عن دينه: تعلمون ديار المكذبين وآثارهم، تأملوها وتذكروها ولا تغفلوا عما حصل بأهلها من خزي ونكال وخراب، واحذروا أن تدركوهم فإن الأمر عظيم.

أخبرتهم الآية السابقة بما حل بالمكذبين من العذاب والصَّغَار، وهنا تدعوهم إلى مشاهدة علامات ذلك في الأرض من حولهم لعلهم يرشدون، وتدعوهم إلى ترك الشك الذي في قلوبهم والاعتبار بمصارع من مضى.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢ ﴾

خاطِبْهم يا رسول الله ﷺ طالبًا منهم أن يُنصفوا أنفسهم بالتوحيد والعبادة، وقل لهم: من مالك السماوات والأرض ومن فيهن ؟ ومن الذي خلقهما على حال ينبئك وينبئهم عن عظمةٍ وجبروتٍ وملكوتٍ وكبرياءٍ ؟ وقل لهم مذكرًا بما يعتقدونه في قلوبهم ويعلمونه حق العلم: إن الخالق والمدبر والمالك هو الله وليست أصنامكم التي لا تعدو أن تكون جمادات لا حول لها ولا قوة.

يعلم أهل الكفر أن الله تعالى خالقهم وخالق السماوات والأرض، وأن كل ما فيهما ملك له وعبيد، ولكنهم توقفوا عند هذا العلم ولم يوحدوه ويخلصوا له في الطاعة.

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾ ثم ادعهم إلى هذا الدين وتلطف بقلوبهم لعلهم يقلعون عن عنادهم، وناد عليهم بخطاب التودد والرأفة، وأخبرهم أن الله الذي أرسل إليهم رسوله وأنزل عليهم كتابه يتحبب إليهم بنعمه وما أعطاهم من المال والولد والصحة والأمن والعافية، ويدعوهم إلى الفوز برحمته وجنته.

قل لهم: إن الله فتح أبواب رحمته لجميع عباده، وإن رحمته سبقت غضبه، وإن العطاء أحب إليه من المنع، وإنه يفرح بإسلامهم وتوبتهم ويكرمهم بكرم لم ولن يخطر لهم على بال، وأمره الذي كتبه على نفسه لا يتخلف، سبحانه.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي».

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وأخبرهم أن من رحمته بكم في الدنيا أنه وهبكم كل هذه الحواس، ووهبكم العقل وأرشدكم إلى ما فيه نفعكم، ثم كفرتم.

ومن رحمته أنه لم يعجل لكم عقوبته وعذابه، مع أنكم مقيمون على عبادة غيره والإشراك معه، والإعراض عن أدلة الحق، وما ذلك إلا استدراجٌ لكم فاحذروا، وما ذلك إلا رحمة بذراريكم وعيالكم لعل الله تعالى يُخْرج منهم من يقوم بقائمة هذا الدين، ويتولى قيادته، وينشر كلمته في الأرض كل الأرض.

وهنا همسة أخص بها أهل الإيمان لئلا يظنوا أن مثل هذه الآيات لا ينتفع منها إلا أهل الكفر، ولئلا يغتروا بأنفسهم كثيرًا، فالرحمة التي كتبها الله على نفسه هنا ما أحوجنا إليها، وما أحوجنا إلى التعلق بها كلما غلبتنا أنفسنا وعصينا، وما أحوجنا إلى استحضار فضل الله علينا أن شرح صدورنا لكلمة التوحيد وجعلنا من أهلها وحملتها، من أهلها الذين لن يُخلدوا في النار، كما أنه من مات على الكفر لن يدخل الجنة.

وإتمامًا للفائدة في هذا التوجيه، أقول: نفزع إلى رحمة الله، ونفر إليها إذا أذنبنا، ولكنا لا نتجرأ على الذنوب ونتفنن فيها متكئين على سعة رحمة الله، وبطريقة أخرى: نحرص على أن نجعل بيننا وبين الشهوات والمعاصي سدًّا وحاجزًا، ولا نطمئن إلى ما يُسخط الرب علينا، فإذا ضعفنا أمام لذةٍ بالحرام أقبلنا على أرحم الراحمين لعله يتوب علينا ويسترنا. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ».

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بعد الوعد والترغيب يأتي الوعيد والترهيب، وذلك لئلا يتكلوا على سعة رحمة الله فيظنوا أنهم إن بقوا على كفرهم وماتوا عليه فإن رحمة الله ستسعهم ليكونوا من أهل الجنات. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ أَمَرَ بِلَالًا فَنَادَى فِي النَّاسِ: «أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَأَنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ».

يقول الله لهم: سيجمعكم إلى يوم القيامة ليحاسبكم على اعتقادكم وأعمالكم، وسيجزيكم على ما قلتم وفعلتم.

وانتبهوا يا أهل الكفر: أَقْسم الله تعالىٰ بذاته هنا باللام التي في كلمة "ليجمعنكم" علىٰ أن يوم القيامة آتيكم لا ريب فيه ولا شك ولا وهم، سيأتيكم لتُقام محكمةُ العدل بين الناس، فأهل الكفر وأهل الظلم ورؤوس الشر يتمتعون قليلًا ثم يكون الحساب، وما أصعبها من لحظات علىٰ من تأملها وتدبرها.

يا أهل الكفر: إن من آمن بأن الله تعالىٰ هو الخالق، وأن الله تعالىٰ هو المالك، وأن الله تعالىٰ هو الواحد، آمن بالبعث والحساب، وآمن بأن مالك الملك علىٰ كل شيء قدير، وأننا صائرون إليه لا محالة فلا تفسدوا فطرتكم، ولا تحرموا أنفسكم استعمال نعمة العقل والفهم، وتوبوا.

﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ هذه هي الخسارة الحقيقية التي ليس بعدها ربح ولا نجاة، إنها خسارة رحمة الله وجنته، والتي أرادها أهل الكفر بإصرارهم علىٰ إنكار رسالة محمد ﷺ، وإصرارهم علىٰ التكذيب بالقرآن، وعملهم بالليل والنهار علىٰ صد الناس عن دين الله، والكيد لأولياء الله والدعاة إلىٰ شريعته.

سبب خسارة أنفسهم أنهم لم يؤمنوا، وأنهم عدلوا مع الله أصنامهم وجعلوا له شركاء، فلم يبق لهم رأس مال يكون سببًا لانتفاعهم بأي عمل صالح يقدمونه. قال الله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾ [هود: ٢١- ٢٢].

أما من آمن وعمل صالحًا، وأخلص في عبوديته علىٰ الوجه المرضي الذي أمر به الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا من الفائزين فوزًا حقيقيًّا نافعًا ممتدًّا في الدنيا والآخرة. قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾

عظموا ربكم في قلوبكم وفي حياتكم، وانقادوا له كما أمركم ونهاكم، واستحضروا علىٰ الدوام معالم قيوميته علىٰ السموات والأرض، واستحضروا علىٰ الدوام أنه لا يكون في خلقه إلا ما يريد ويشاء، وأن كل ما سكن ووقف عن الحركة من الآدميين والجن والملائكة، وكذلك الحيوانات والجمادات وجميع الخلق، وكذلك ما تحرك إنما يكون بقَدَر الله وحكمته وعلمه، فالجميع عباده وخلقه، والجميع تحت تصرفه وقهره وتدبيره، ولا إله إلا هو.

كلُّ ما ثبت واستقر وسكن في الليل أو في النهار، على اختلاف أحواله وأوضاعه وشؤونه وظروفه، إنما هو لله تعالى وبتدبيره وعلمه، وقد احاط به سمعه وبصره، ولا يخرج شيء عن ملكه وقدرته، فلا إله إلا الله العظيم الحليم. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرَّعْد: ٨- ١٠].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ وهو سبحانه السميعُ لأقوال عباده وأصواتهم على اختلافها، السميعُ لما تجهرون به وما تتناجون وتسرون.

وهو سبحانه العليم بحركاتهم وسرائرهم وما توسوس به نفوسهم، وهو العليم بخلقه وبما يُصْلحهم ويَنْفعهم، وهو العليم بنياتهم وأفعالهم وأقوالهم، وهو العليم بالصادق منهم فيعينه ويكرمه وَيُلْهِمُهُ العمل الصالح ويشرح صدره، وهو العليم بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخِذْلَانَ وَالطَّرْدَ عَنْ باب رحمته.

وختام الآية هذا فيه تهديد لهم، وتذكير بعظم جزائهم على سوء صنيعهم إن لم يرجعوا عن غَيِّهم.

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾

تأملوا كم مرة تكررت لفظة (قل) في السياق القرآني في الآيات التي معنا، وتكرارها إنما هو لبيان شدة ضلال أهل الجحود، وكذلك للاستدلال عليهم بما يعلمون لتكون الحجة أقوى، وتأملوا كيف جمعت الآيات بين الدليل العقلي والنقلي.

ثم إن هذا التكرار يدل على حرص الشريعة على هداية الناس وحب الخير لهم، وحرصها على تثبيت قلب النبي ﷺ وأصحابه والدعاة من بعدهم، ويدل على أن التنويع في الاحتجاج والتفنن في أساليبه من ضروريات الدعوة التي يجدر بالدعاة إلى الله أن يتقنوها ويجتهدوا فيها، وذلك لتنوع طبائع الناس من جهة، ولدفع السآمة والملل عنهم من جهة أخرى.

حاورهم يا محمد ﷺ، ولا تيأس من دعوتهم، وقل لهم: كيف أعبد آلهة أنتم من صنعها، وأنتم من يعتني بها، وهي لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، ولا تملك شيئًا من أمر الحياة والموت والرزق، فضلًا عن أن تكون خالقة لغيرها.

قل لهم: هل بقي عندكم شك بعد كل هذا فيمن تُعِدُّونه لرغبتكم ورهبتكم، وفيمن تعبدونه ولا تشركون معه شيئًا ؟ وفمن يستحق أن يكون شرعه مهيمنًا على أفكار أهل الأرض ومعتقداتهم ؟ أليس الله هو الذي فطر السماوات والأرض وخلقهما من العدم ؟ أليس الله هو الذي يطعم الناس ويرزقهم ويحييهم ويميتهم، وهو الذي خلق الحبوب والثمار والكلأ والصيد ؟ أليس خالقنا هو المتفرد بالألوهية، وهو الذي لا يتخذ وليًّا من الذل ولا يحتاج أحدًا؟ قولوا: بلى، وتعالوا إلى الصراط المستقيم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦ -٥٨]، وقال جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٤].

وتعالوا ونحن نعيش مع الآيات نخاطب أنفسنا ومن حولنا لنقول: كيف أتولى غير الله وأتخذُه ناصرًا ومعينًا وهو الذي له الكمال المطلق وقد استغنى عن جميع خلقه، بل الخلق محتاجون إليه لا يقومون إلا به ؟ وهل يليق بي كعبد أن أدعو غير الله وأطلبَ منه حسنة من حسنات الدنيا والآخرة ؟ وهل يليق بقَدْره وعظمته أن أتقرب بالذبح أو أن أطلب الشفاء والرزق من غيره سبحانه ؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

أمرني ربي أن أكون أول من أسلم من هذه الأمة، واصطفاني بالوحي والرسالة، ونهاني عن الشرك وطرائقه وحب أهله وموالاتهم، فأنا أستجيب إليه، وماض في طريقي حتى ألقاه وهو راض عني.

يا أيها الناس: لا تطعنوا في الإسلام فهذا دين جميع الأنبياء والرسل من قبل، ولا تحاربوا التوحيد في الأرض فإنه غاية خلق الخلق، وهو طريق الخلاص والنجاة. قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وكان من دعاء سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

لا تنصروا آلهتكم التي تدركون عجزها، ولا تعينوا على رفع رايات أهل الشرك في الأرض وتعظموهم، ولا تظنوا أني سأرجع إلى دينكم في لحظة ما، وكونوا أنصارًا لله ولدينه.

أقرأ في هذه الآيات اللغة التي ينبغي للمسلم أن ينشرها في الأرض كلها، إنها لغة الثقة بهذا الطريق، والحرص على الثبات عليه حتى يأذن الله للروح في مغادرة البدن، وكأن المسلم الموحد القابض على دينه يستشعر اصطفاء الله وحبه لأهل التوحيد، ويستشعر عونه وحفظه لمن ينصر دينه وينشره، ويتلمس حاجة البشرية للتوحيد للدخول في جنة الله تعالى في أرضه قبل الظفر بجنته في الآخرة، إنها جنة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

الخوف من الله تعالى ركن من أركان العبودية للرب جل وعلا، ولا تستقيم عبودية أحدنا حتى يجمع بينه وبين رجاء رحمته وجنته، ولكم أن تنظروا في حال امرئ وقف في صلاته أو أدى زكاته أو أقبل على أي طاعة من الطاعات وهو يرجو من الله القبول، وكذلك يخشى العقوبة إذا فسدت الطاعة ورُدت على صاحبها.

ولكم كذلك أن تنظروا في حال امرئ أقبلت عليه المعاصي بلذاتها من كل حدب وصوب، ونادت عليه وقالت له: هيت لك، فما كان منه إلا أن ردَّها وأغلق أبوابها، وفارق أصحابها ولم يلتفت، وأبى أن يستبدلها بمرضاة سيده ومولاه، وأبى أن يقدمها على جنةٍ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

أقول لكم: الخوف من الله تعالى هو دليل المؤمن وسلاحه في إغلاق أبواب الزنا من النظر إلى الحرام وسماعه، ومن الخلوة بمن حرم الله الخلوة بها أو به، ومن لباس ما لا يرضيه سبحانه، وقيسوا على ذلك كل معصية أمر الله باجتنابها.

واعلموا أن كثيرًا من أصحاب الهوى ومتبعي الشهوات لا تستطيع أن توقظ ضمائرهم إلا بتذكيرهم بمقام الوقوف بين يدي الخالق جل وعلا، وإلا بأن تذكر لهم شيئًا من أهوال الدار الآخرة، وقد لا يكفي معهم بيان أضرار الذنوب على البدن والأهل والنفس والمجتمع.

تأمر الآية نبينا ﷺ بأن يخاطب أهل والكفر ويذكرَهم بما دعاهم للإيمان به، قل لهم يا محمد ﷺ: ينتظرني وينتظركم يوم عظيم لا محاباة فيه لأحد، ولا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة إلا بما أذن به الشرع، وقد أعد الله فيه عذابًا شديدًا لمن تجرأ على حدوده، وقصد سبيل المجرمين

من أهل الشرك الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرىٰ، أحبوها ورغبوا إليها وجعلوا لها صفات لا تكون إلا لله الواحد الأحد، الفرد الصمد.

قل لهم يا محمد ﷺ، وقولوا أيها المؤمنون حقًّا: إنا نخاف إن سلكنا هذا السبيل أن يسخط علينا ربنا ويعذبنا عذابًا شديدًا، وأن يكون حالنا كحال الخاسرين لأنفسهم وأهليهم ممن كتب الله لهم الخلود في النار إذا ماتوا علىٰ شركهم وكفرهم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال ربنا: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال ربنا: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٩]، وقال جل وعلا: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥-١٦].

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ» قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا».

وأخرج البخاري ومسلم عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ (والشراك هو رباط النعل)، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ (وهو القِدْر الذي يطبخ فيه)، مَا يَرَىٰ أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا».

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

تذكر الآية كرامة الذين ماتوا علىٰ التوحيد والعبادة التي رضيها الله وتقبلها منهم، فصرف عنهم نقمته وعذابه يوم أقبلوا عليه ليحاسبهم، وأنجاهم من الهول الأكبر ورحمهم رحمة واسعة، وأدخلهم دار كرامته خالدين فيها أبدًا.

ما أحوجنا لمثل هذه الآيات حتىٰ تذكرنا علىٰ الدوام بالفوز المبين الواضح الظاهر الذي ليس بعده خسارة، جنةٌ فيها رسول الله ﷺ، وفيها الرسل الكرام والأنبياء الذين وعدنا الله بصحبتهم إذا أطعناه ونبيه ﷺ، وفيها الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وفيها الشهداء والعُبَّاد والدعاة والأخيار، وفيها أوصاف يطير القلب بها فرحًا، أوصافٌ لطعام أهلها وشرابهم ولباسهم، وكذلك لبناء الجنة وأرضها وتربتها وأنهارها وأشجارها وسُرُرِها، وفي الجنة الحور العين، وفيها ما هو أعظم وأكرم من كل ما ذكرت؛ رؤية الرب جل وعلا، اللهم أكرمنا بها.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

أزعم أن أهل الكفر لو كانوا منصفين لكفتهم الأدلة المذكورة هنا على وحدانية الله وعظمته وقدرته، ولأقبلوا على التصديق بالرسالة وصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام، والآية هنا واحد من هذه الأدلة.

خطاب للنبي ﷺ، ومعناه عام، والغرض منه تذكير كل من غفل عن حقيقة التوحيد، وغفل عن أن المتصرف في خلقه بما يشاء هو الله، وأن النفع والضر بيده وحده لا شريك له، أو زعم أنه يعتقد ذلك ولكن عمله يدل على خلاف ما يزعم.

يا أيها الناس: إذا قدَّر الله تعالى أن يبتليكم بالضر من فقر أو مرض أو عسر أو غم أوهم فلا تفزعوا إلى غيره من أصنام الحجر والشجر والبشر، ولا تفزعوا إلى أرباب السحر والكهانة والعرافة، ولا تعتقدوا في الأموات والأولياء ما لا يليق إلا بالله العظيم. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

واعلموا أن الله تعالى هو الذي يكشف الضُّرَّ وينجيكم في بلواكم، وأن الله تعالى هو الذي يغنيكم بعد فقر، ويرزقكم العافية بعد مرض، وهو الذي ينفس عنكم كروبكم وغمومكم ويفرج عنكم همومكم، وهو الذي يحفظ عليكم أموالكم وعيالكم وأنفسكم، وهو القادر على نصركم على من ظلمكم وعاداكم، وما جعل البلوى والضيق فيما تحبون إلا ليكفر عنكم خطيئاتكم، ويختبر إيمانكم، ويرفعكم الدرجات العلا، فتأملوا.

ويا أيها الناس: إذا يسر الله لكم من نعيمه في الدنيا، وأعطاكم من واسع عطائه فيها من الصحة والأولاد والرزق فاعلموا أن خزائن السماوات والأرض بيده، وأنه لا راد لفضله ولا معقب لحكمه فاطمئنوا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وأخرج البخاري ومسلم عن المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ إِذَا سَلَّمَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ». وكذا عند مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: "رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ: اللهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ".

والخطاب الرباني هنا يَعلم من تدبَّره أنه يحمل تثبيتًا لقلب النبي ﷺ ولجميع الدعاة أمام غطرسة أهل الكفر ووعيدهم الذي لا يكاد ينقطع، وأمام إيذائهم وسعيهم في الشر والضر. قال الله تعالىٰ حكاية عن نبيه إبراهيم أبي الأنبياء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨١]، ولسان حال المؤمن بعد سماع هذه الآية: الذين ظفروا بمعية الله وحملوا راية دينه في الأرض هم الأحق بالأمن ممن تولوا غيره، فالشعور بالأمان رغم المعيقات، ورغم المحن، ورغم كل ما يصيب المؤمن من عدوان أهل الكفر وتضييقهم هو ثمرة من ثمرات الإخلاص في التوحيد وكمال الصدق فيه، كما أن الفزع والاضطراب من العلامات التي لا تدل علىٰ خير، فاللهم ثباتًا لقلوبنا وحِفْظًا.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

خضعت للرب العظيم كل الرقاب، وذلَّ له كل الجبابرة، وعنت له الوجوه ودانت له الخلائق، وقهر كل شيء سبحانه، والجميع تحت قدرته ومشيئته وسلطانه، ولا يكون في خلقه إلا ما يريد.

هل علمتم أحدًا غيرَ الله يصلح أن يكون خبيرًا عليمًا قاهرًا عزيزًا ؟! وهل علمتم أحدًا يقدر علىٰ ردِّ قضاء الله وأمْرِه ؟! سبحانه لا إله إلا هو. قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ وهو الحكيم فيما قدَّر وشرع وأمر ونهىٰ، وهو الخبير بأحوال خلقه وبما يصلح لهم ويُصلحهم.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

تنتقل الآيات من إثبات وحدانية الرب جل وعلا إلى إثبات نبوة الصادق المصدوق ﷺ، وإلى الحديث عن القرآن العظيم الذي جعله الله تعالى مصدقًا للكتب من قبله ومهيمنًا عليها.

ما أعظمها من آية وكل القرآن عظيم ! وما أعظمه من خطاب لمن كان له قلب ! وما أعجب حال أهل الكفر الذين أقفلوا عقولهم وأغلقوا قلوبهم عما ينفعهم !

يأمر ربنا جل وعلا نبيَّنا ﷺ بأن يقول لهم: مَن أعظمُ الأشياء شهادة ؟ ومن الذي تقبلونه لأُشْهده على صدق ما جئتكم به ؟ ومن أقوى الشهداء وأعدلهم لتفقهوا عنه كلامه ؟

وقد روى أهل التفسير بأسانيد لا تصح أن المشركين من أهل مكة طلبوا من يشهد لمحمد ﷺ على صدقه، وذلك بعد أن زعموا أنهم سألوا اليهود عنه فأنكروا أن يكون لهم علم به، أو أن يكون له ذِكْر في التوراة.

﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ قل لهم: إن أعظم الشهداء هو الخالق الرازق العظيم، العالمُ بي وبكم وبجميع خلقه، وهو الذي يحكم بيني وبينكم، ويشهد على قولي وفعلي وقولكم وفعلكم، وهو الذي لا يُتصور في شهادته ما يجوز أن يقع في شهادة غيره من خلقه من السهو والخطأ، وهو الذي يعلم المحق منا من المبطل، والصادق من الكاذب، والرشيد من السفيه.

كيف أفتري على ذي الجبروت والملكوت وأزعم أني رسول من عنده وهو الذي يصدقني ويؤيدني بالمعجزات التي تعلمونها ؟ وكيف يليق بحكمته وقدرته أن يؤيدني بقوته ونصره وحفظه إن كنت أكذب عليه. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

قل لهم يا محمد ﷺ: إذا لم تنفعكم الآيات والمعجزات التي جئت بها، ولم ترجعوا عن مكابرتكم وعنادكم فالله شهيد بيني وبينكم، وأمري وأمركم إليه، وحسابي وحسابكم عليه، ولن يحزنني كثيرًا صدودكم هذا وإعراضكم، وتكفيني شهادة الله وملائكته عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

ونحن كمسلمين نعلم تمام العلم أن الله تعالى شهد لنبيه في محكم التنزيل بأنه رسول الله، كما في قوله سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ﴾ [البقرة: ١١٩].

ونحن كمسلمين نشهد أن الله تعالى أيَّدَ نبيَّه الكريم ﷺ بالقرآن العظيم معجزةِ الإسلام الخالدة، كما أيده بغيرها من المعجزات. قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ١-٣].

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ وقل لهم كذلك: إن الله الذي رضيناه شهيدًا بيني وبينكم هو الذي أوحى إليَّ هذا القرآن، وإنني أشهده سبحانه على ما أقول، وقد أمرني أن أبلغكم رسالته وما أراده من خلقه، وقد أوحى إليَّ بكلامه لأبلغه لكم ولمن بعدكم من الأمم، ولأنذركم به بين يدي عذاب شديد إن لم تستجيبوا لنداءات كتاب الله التي تعددت وكثرت من أجلكم. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾ [هُود: ١٧].

وتأملوا في قول الله ﴿وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾، فإن فيها إشاراتٍ ودلالاتٍ وعْظيةً نفيسةً، منها:

أن دعوة الإسلام والقرآن ستبقى سائرة في الخلق بقَدَر الله، وسيصطفي لها من يقوم بقائمتها ولا يحيد عنها، وسيبلغ هذا القرآن ما كتب الله له أن يبلغ، ولن يتوقف حملته عن استخراج كنوزه في مختلف أبواب العلم والمعرفة والدراية.

ومنها أننا ممن بلغه القرآن بجهد من سبقنا من الصالحين والدعاة والعلماء، بل بجهد محمد ﷺ وأصحابه والتابعين، ولذلك أشار أهل العلم في كلامهم هنا إلى أن كل من بلغه القرآن وعاش معه وأقبل عليه، فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه بآيات هذا الكتاب وأحكامه.

ومنها أن دعوة محمد ﷺ هي دعوةٌ للناس جميعًا، ورسالته هي الرسالة التي قدَّر الله أن تكون آخر الرسالات، وأن الأحكام والأوامر التي جاء بها لا تستثني أحدًا. قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ومنها أن كل من بلغته دعوة محمد ﷺ، وأقيمت عليه الحجة، ثم مات على الكفر كان من أهل النار. أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

ومنها أن كل من بلغه القرآن فلا يسعه إلا أن يحمل أمانة تبليغه إلى عياله وأهله ومن حوله ليكون ممن أنذر وأعذر.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ﴾ وقل للمشركين يا محمد ﷺ: من إله غير الله تعلمون وتعبدون ؟ وكيف تشهدون لأصنامكم بأن لها صفات الألوهية وتدعون إلى عبادتها ؟ أما أنا فلا أشهد بشهادتكم ولا أتبع أهواءكم، ولا أحرص على إرضائكم. قال الله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ادعوهم إلى شهادة التوحيد التي تحمل للقلب السكينة والطمأنينة، والتي يكون بها النجاة في الدارين.

قل لهم: أتبرأ من آلهتكم التي يجزم كل عقل سليم بفسادها، وأتبرأ من الأوثان والأنداد والشركاء الذين قام عليهم شرككم. قال الله تعالى على لسان نبيه هود عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، وسيأتي معنا في السورة قولُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه بعد أن أقام الحجة عليهم: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨].

ونحن في زماننا نتبرأ من كل من أشرك مع الله شيئًا، فرضي غيره مألوهًا، ورضي غير شريعته دستورًا.

ونتبرأ من كل فِعل يقوم على أن يتعلق القلب بما لا يملك لنا ضرًّا ولا نفعًا، من تعظيم الأموات ودعائهم والاستغاثة بهم، ومن التعلق بالأحياء من أهل المناصب والمال، أعني: من وصل به الحال إلى نسيان أن النفع والضر والرزق والموت والحياة بيد الله وحده.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾

الذين آتيناهم الكتاب هم اليهود والنصارى، وهم يعلمون تمام العلم أن الله واحد لا شريك له، ويعلمون تمام العلم أن محمدًا رسول الله للعالمين جميعًا، وأن التوراة والإنجيل يشهدان له، يعلمون ذلك كما يعلمون أبناءهم الذين أنجبوهم وعاشوا معهم.

وهذا دليل آخر على صدق محمد ﷺ فيما جاءكم به من الهدى، وهذا نداء لأهل الكتاب ليشهدوا شهادة صدق أمام الناس جميعًا. قال الله تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرَّعْد: ٤٣].

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ كل هذا الجلاء وكل هذا الوضوح ثم لا يؤمنون، إن هذا لهو الخسران المبين للنفس وللأهل، وخسرانهم قائم على إهلاك أنفسهم وإلقائها في نار جهنم خالدين فيها بعد أن آثروا الدنيا على الآخرة، وبعد أن آثروا الجاه والمكانة والرياسة على الإيمان والهدى.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾

لا أحد أظلم ممن افترى على الله ونسب له ما لا يليق به، ووصفه بما لا يجوز عليه، كقول من زعم أن الله ثالث ثلاثة، أو أن له ولدًا، أو أن غيره ينفع ويضر، هؤلاء وضعوا التوحيد والعبودية في غير موضعهما فكان ظلمهم عظيمًا وكبيرًا.

ولا أحد أظلم ممن افترى على أنبياء الله وكذَّبهم، وممن جحد المعجزات والبراهين والأدلة، وممن افترى على القرآن أو على سنة محمد ﷺ وأحاديثه، هؤلاء اعتدوا على شريعة الله وعقيدة التوحيد فكان ظلمهم عظيمًا وكبيرًا.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كل من افترى على الله ظالمٌ لا يفلح في الدنيا ولا في الآخرة، وهو ممن كفر بالله العظيم وكذب عليه كَذِبا مُتعَمَّدًا، ولن يدخل الجنة. قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

تنتقل الآيات بالمخاطَبين من أهل الكفر والشرك إلى أرض المحشر وأهوال اليوم الآخِر، وتنذرهم عذاب الله وبأسه، وتبين لهم ما ينتظرهم من سؤال وحساب، وذلك بعد أن حاوَرَتْهم وأرشدتهم واستطردت في توجيههم، وبعد أن أطلقت أبصارهم وعقولهم في آلاء الله ونعمه ودلائل عظمته ووحدانيته.

يخبر الله تعالى أنه سيحشر هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالشرك والكفر، سيحشرهم جميعًا وسيخاطبهم توبيخًا لهم ويقول: أين الأصنام التي كنتم تزعمون أنها ستشفع لكم عندي، وستكون سببًا في نجاتكم وفلاحكم، والتي كنتم تعبدونها من دون الله ؟ أين دعاؤُكم لها واستعانتُكم بها ؟ قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢].

وقد دلت مواضع أخرى في كتاب الله على أن الحشر يكون لهؤلاء المشركين ويكون كذلك لمعبوداتهم من الأصنام وغيرها، كما قال ربنا: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ [يُونُس: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الْفُرْقَان: ١٧]، ولعل حشر الأصنام معهم ليظهر على الملأ أنها لا تملك لنفسها ولغيرها شيئًا، وأنها لا تعدو أن تكون جمادات صنعتها أيدي البشر، ثم لتزداد الحجة على أهل الكفر الذين جعلوها شريكة لله في سلطانه، وليظهر لهم أنهم لن يتوجهوا إليها بشيء في مثل هذا الموطن كما كانوا يزعمون في دنياهم.

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

فتنتهم، أي: حجتهم ومعذرتهم، والمقصود أنهم يُجيبون جوابًا يدل على أنهم فُتنوا وابتعدوا مرة أخرى عن الصدق، وأنهم أصروا على الكذب والافتراء فضلوا كما ضلوا من قبل.

يُقْسمون بالله في تلك اللحظات بأنهم لم يكونوا من أهل الشرك، وأنهم ما عبدوا الأصنام ولا قصدوها في رغبتهم ورهبتهم، وأن قلوبهم لم تتعلق بمعبوداتهم.

وهذا القَسَم إنما يكون في مشهد من مشاهد يوم القيامة الذي يمكثون فيها خمسين ألف سنة، وهذه المشاهد يتقلبون فيها بين إنكار شركهم وبين إقرارهم به، ثم طلبهم لمن يشفع لهم وينقذهم مما هم فيه.

وبيان ذلك أن أهل الشرك يسعون أولًا إلى إنكار شركهم عندما يرون عذاب الله قد اقترب، وعندما يرون مغفرة الله لمن مات على التوحيد، فيضطربون ويخافون ويزعمون أنهم مؤمنون لعل عفو الله يصيبهم ولعلهم يتملَّصون من العقاب، ولعل الله يدخلهم إلى الجنة كما أدخل أهل التوحيد، ولذلك تأملوا كيف يقولون: (واللهِ) ثم يقولون: (ربِّنا)، يقولونها مدركين لمعانيها وأبعادها التي حاربوها في دنياهم.

وهنا يختم الله على أفواههم فتتكلم أيديهم بما اقترفت، وتشهد أرجلهم بما كسبت، وتُستنطق جوارحهم فتشهد على كفرهم ولا يكتمون الله حديثًا، فعندئذ يودون لو تُسوَّى بهم الأرض وتنشق وتبلعهم ويكونون ترابًا. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

ثم إن ثمة مواطن في أرض المحشر لا يسعهم فيها إلا أن يقروا بشركهم ويتبرؤوا علانية من شركائهم. قال الله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦].

استحضروا هنا كم مرة سخروا من دين الله وأوليائه، وكم مرة مكروا بهم وبطشوا، وكم من الناس صدوهم عن دعوة الحق وسبيل الهدى.

واستحضروا هنا حال المؤمنين المخلصين الذين يطيرون فرحًا بإكرام الله لهم وما أعده لهم من ألوان المسرات والبشارات، وذلك بعد أن تعبوا في دنياهم قليلًا وخرجوا منها باذلين أرواحهم وأموالهم وأوقاتهم وأولادهم من أجل دين الله.

ولا تظنوا أن هذا القسم الكاذب لا يصدر إلا من أهل الكفر، بل يصدر كذلك من أبناء النفاق من هذه الأمة الذين أظهروا عددًا من شعائر الله، وأبطنوا في قلوبهم حقدًا ونارًا على الدين وأهله، وسارعوا في ولاية أهل الكفر ونصرتهم بألوان شتى. قال الله تعالى عنهم: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المُجَادَلَة: ١٨].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يظنون أن كذبهم نافع لهم، وأن الله سيخفى عليه حقيقة أمرهم، خابوا وخسروا خسرانًا عظيمًا.

انظر يا محمد ﷺ، وانظروا أيها المتدبرون للقرآن كيف يكون حال الكاذبين على الله في الدنيا والآخرة، الذين لا يعدوا حقيقة أمر الواحد منهم إلا أنه يكذب على نفسه ويخدعها ويمنيها بما لا ينفعها.

لقد ضل عنهم شركاؤهم وفارقوهم وتبرؤوا منهم ولم ينفعوهم، ضلوا عنهم وقد كانوا يزعمون أنهم ينفعون. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣-٧٤].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

تتكلم الآية هنا عن صنف من المشركين ممن كان يأتي ويستمع إلى قراءة النبي ﷺ للقرآن، ولكن هذا الصنف لم يكن لينتفع بشيء مما يسمع، ولم يكن يتدبر أو يفقه، وسبب ذلك أن الله تعالى حرم قلوبهم من الانتفاع بالقرآن العظيم بما كسبت أيديهم.

هؤلاء القوم اشتد عداؤهم للدعوة وحملتها، وحملوا راية الذب عن أصنامهم وعن شرك قومهم وكفرهم، فعاقبهم الله تعالى في الدنيا بأن جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه، أي: جعل أغطية وحُجُبًا وسواتر على قلوبهم فمنعها من الفهم عن الله.

وكذلك جعل في آذانهم وقرًا، أي: صممًا وثقلًا حائلًا بينهم وبين الانتفاع بما سمعوا، كمثل البهيمة التي تسمع أصواتًا وكلامًا ولا تفهمه. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧١].

ولا تظنوا أن استماعهم للقرآن من فم النبي ﷺ كان دائمًا، بل كان على خلاف ذلك، وكان استثناء وخُفية، ولعله كان استماع فضول منهم لا طلبًا للانتفاع، لأنهم حسموا أمرهم ونادوا من أول نزول القرآن بالمنع من الاستماع إليه والجلوس عند من يقرؤه. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وكأنهم يدركون قوة كلام الله في قَرْع قلب سامعه وتغييره ورده إلى فطرته.

وقد ذكر ابن اسحق وابن هشام وغيرهما في كتب السير أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق الثقفي، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا، ثم تكرر منهم ذلك في الليلة الثانية والثالثة حتى قال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود على ذلك، ثم تفرقوا".

ولعلكم تعلمون أنهم جميعًا ماتوا على الكفر إلا أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والذي أقبل على دين الله تعالى يوم فتح مكة، وزال الغشاء عن قلبه وأصبح من كبار أصحاب محمد ﷺ، وكل الصحابة كبار.

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ بلغ الحال بهم إلى الامتناع عن الإيمان مهما رأوا من الدلائل والحجج والبراهين، ومهما رأوا من آيات الله الكونية والشرعية. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأَنفَال: ٢٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ومن مظاهر صدودهم وإعراضهم أنهم إذا جاؤوا لنبينا ﷺ يناظرونه ويخاصمونه في الحق ويحاجونه، وإذا سمعوا منه القرآن وكلام تعظيم الرب جل وعلا، قالوا: ما هذا الذي جئت به إلا من كتب القرون السابقة ومنقول عنهم، وهذا يدل دلالة واضحة على أنهم لم يأتوا متجردين للحق، وطالبين لما ينفعهم.

وكأنهم يتظاهرون أمام أتباعهم بأنهم أهل عقل وإنصاف وعدل، فيأتون إلى نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليستمعوا منه ويختاروا الأفضل لهم ولأقوامهم، ثم يقررون أن ما جاء به ليس إلا حكايات وخرافات وأخبارًا أخذها ممن سبق، ولا علم فيها ولا فائدة منها، وقد كان يقولها لهم النضر بن الحارث وغيره.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

تأملوا كيف يخبر القرآن عن تفاصيل مكر الملأ من أهل الكفر، ومثل هذه التفاصيل تنفعنا كثيرًا في معركتنا معهم.

انظروا كيف يعمد رؤوس الشر في الأرض إلى صد غيرهم عن طريق الهداية، وكيف يبذلون الغالي والنفيس من أجل بقاء أكثر الناس على الكفر والشرك والفجور، وكيف يأبون الانقياد للقرآن وهداه.

الآية تخبر أن هؤلاء الصناديد والكُبَّار ينهون عنه، أي: ينهون غيرهم عن الاستماع للقرآن ولمحمد ﷺ وهو يتلوه ويبلغهم، ولكم أن تستحضروا كيف يكون نهيهم، وكيف يستعملون لغة التهديد والتخويف في قيادة من حولهم، وكيف يتساهلون في إراقة الدماء والاعتداء على الأعراض والكذب والخيانة من أجل الوصول إلى أهدافهم.

ثم هم ينأون عنه، أي: يبتعدون بأنفسهم عن الخير والصلاح، ويُعْرِضون عن سماع القرآن والفوز بهدايته، فيكونون بذلك قد جمعوا بين فعلين قبيحين، جمعوا بين الانصراف بأنفسهم عن الهدىٰ وبين السعي في صرف غيرهم من الأتباع والمقلدين والناعقين، فلا هم انتفعوا ولا تركوا غيرهم ينتفع.

وكأني بحالنا في هذا الزمان الذي قويت فيه شوكة أهل الكفر والظلم وأعوانهم، وسارعوا في إبعاد الناس عن التوحيد، وتسابقوا في تشويه صورة الدين والقائمين علىٰ حراسته، وهذه قنواتهم المسمومة تعيث في الأرض فسادًا وإفسادًا حتىٰ تغلغلت في بلاد المسلمين وبيوتهم.

﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ هذه حقيقة الأمر وخلاصة ما يفعلونه، خلاصته أنهم يقودون أنفسهم إلىٰ هلاكها، ويعرضونها لسخط الله وغضبه، ويحكمون عليها بالخلود في جهنم إذا ماتوا علىٰ الكفر.

هؤلاء ظنوا أنهم بمنعهم أنفسَهم وغيرَهم من العيش مع القرآن يكونون قد نجحوا في إيقاف الدعوة وأضروا بها وبحملتها، ولكنهم لا يشعرون بما ينتظرهم من السوء، ولا يستحضرون الأهوال الجسيمة التي سيمرون بها قبل دخولهم النار وبعد دخولهم فيها، ولعل سبب عدم شعورهم هذا هو انغماسُهم في شهوات الدنيا بالحرام، واستجابتهم لأهوائهم ورغباتهم بالحرام.

بل إنهم لا يشعرون ولا يعلمون أن الله تعالىٰ قضىٰ أن ينصر أولياءه وجنده ولو بعد حين، وأن العزة والغلبة في الدارَيْن للمؤمنين.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾

مشهد من المشاهد التي يظهر فيها ندمهم، وتظهر حسراتهم، وما أكثر هذه المشاهد في رحلتهم إلىٰ الدار الآخرة.

مشهد ينقلنا إلىٰ مشيهم في أرض المحشر ووصولهم إلىٰ نار جهنم، ورؤيتهم لما فيها من الأمور العظام والأغلال والسلاسل، ورؤيتهم لطعام أهلها وشرابهم ولباسهم، ورؤيتهم لفراشها وشدة سعيرها، ينادون يومئذ ويتمنون لو رجعوا إلىٰ الدنيا ليؤمنوا ويكونوا من أهل الدعوة والصلاح.

خطاب للنبي ﷺ يُدْخل الطمأنينة إلىٰ قلبه بألا يلتفت كثيرًا إلىٰ خصالهم وفِعالهم، ويُحرِّضه علىٰ المضيِّ في دعوته في الدنيا، ويُخبره بأن الجميع مبعوثون بعد موتهم، ومحاسبون علىٰ أعمالهم.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ظن أهل الكفر والشقاق والنزاع والنفاق أن ما أضمروه في أنفسهم من العداء لدين الله وحملته سيمضي دون حساب أو عقاب، وأن مكرهم بالليل والنهار ونجواهم التي كانوا يخططون فيها لاستئصال شأفة الإسلام ومنع انتشاره، وأن معاصيهم وأعمالهم السيئة التي كانوا يخفونها عن أعين الناس ويسترونها منهم، أقول: ظنوا أنها ستمر مَرَّ الكرام، وأنهم لن يُفضحوا عليها أمام الخلائق في الدار الآخرة.

نتكلم هنا عن سنين طويلة من كيدهم بأهل الصلاة والقرآن والدعوة إلى سبيل الهدى، ونتكلم عن خيرة الدعاة الذين آذوهم في أنفسهم وأعراضهم وأرزاقهم، وربما سجنوهم أو قتلوهم، ولكن نور الله أضاء وبقي، بل واشتد حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا.

تصف الآية حال هؤلاء بأن ما أخفوه في أنفسهم من المعاندة والكفر، وما أخفوه من صناعة أحداث تصد الناس عن الدين، قد بدا وظهر، وافتضح أمرهم أمام العالمين، وشهدت عليهم جوارحهم والملائكة والنبيون بما كانوا يعملون. قال الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال جل وعلا: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨].

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن الذي بدا لهم هو ما كانوا يخفونه من علمهم بأن محمدًا ﷺ صادق في دعوته، ومن دلالة كل شيء حولهم على وجود الخالق ووحدانيته، وعلى أن يوم القيامة آت لا محالة، ولكنهم كذبوا وكتموا ما علموه واستيقنوه حتى بدا لهم يومَ الحساب، كتموه عنادًا وخوفًا على مصالحهم وسيادتهم. قال الله تعالى عنهم: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]، وقال سبحانه مخبرًا عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النَّمل: ١٤].

صحيح أن الآيات جاءت في معرض الحديث عن المكذبين باليوم الآخر، ولكنها تعني الكثير لأهل الإيمان الذين يستحضرون هنا أنهم موقوفون بين يدي خالقهم الذي أحبوه وخافوه ورجوه، وأنهم ضعفوا في أوقات متعددة فوقعوا في المعاصي وذنوب الخلوات، وأن الله سترها عليهم.

أقول: إن الوقوف مع مثل هذه الآيات يدفعنا إلى المسارعة في التوبة والصدق فيها، وإلى أن نسأل الله تعالى أن يسترنا في الدنيا والآخرة وألا يفضحنا أمام الخلائق. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

أمنياتهم التي أطلقوها لما رأوا العذاب أمنيات كاذبة، وقولهم ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس صحيحًا، وقد سبق علم الله فيهم بأنهم لو رجعوا إلى الدنيا وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وأراهم المعجزات تلو المعجزات فإنهم لن يؤمنوا. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤-٧٥].

هؤلاء لم تكن مشكلتهم في قلة الدلائل والبراهين التي تثبت صحة الرسالة، ولا في صحتها وظهور دلالتها على المطلوب، ولكن مشكلتهم تكمن في عنادهم ومكابرتهم عن قبول الحق مع علمهم بأنه حق، فالعقل هو العقل، والتفكير عندهم هو التفكير، ولكنهم لما رأوا العذاب وهوله حاولوا التخلص منه بأمنياتهم الكاذبة وإظهار رغبتهم بالرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا.

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾

لقد جاءتهم آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، وجاءتهم آيات الله التي تلاها عليهم أنبياؤه فأنكروا ما جاء فيها، وزعموا مرة بعد مرة أن الدنيا هي دار القرار، وأنه ليس بعدها حساب ولا عقاب ولا جزاء.

ولكم أن تنظروا في مآل عقيدتهم التي تقوم على إنكار اليوم الآخر، كيف تجعلهم يتجرؤون على الكفر والشرك، وعلى الذنوب وأكل أموال الناس بالباطل، وعلى اقتراف أنواع الظلم ما داموا أقوياء بدون مبالاة أو خوف.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

انظر يا محمد ﷺ، وانظروا يا أهل دين محمد ﷺ، كيف تغير حالهم بين الدنيا والآخرة، وكيف انتقلوا من الجحود والصدود إلى الإيمان واليقين، انتقلوا في وقت لم ينتفعوا فيه بإيمانهم، ولم يغن عنهم كلامهم وتوبتهم المزعومة شيئًا.

ولو ترىٰ يا محمد ﷺ إذ بُعثوا من قبورهم، وجاء وقت الحكم والقضاء، ووقفوا بين يدي خالقهم، فسألهم عن إيمانهم بربوبيته وألوهيته سؤال توبيخ وتقريع، وسألهم عن إيمانهم بالبعث والنشور الذي هم فيه فأقروا بجميع ذلك، ورفعوا أصواتهم بإيمانهم وتصديقهم لعلهم ينجون من العذاب، ولكن كفرهم في الدنيا وموتهم عليه منعهم من الانتفاع بكل تصديق وإيمان بعد ذلك، فقد أُغلقت صحف العمل، وكانت النار جزاءهم خالدين فيها أبدًا.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

الخسارات أنواع وهذه أعظمها، فإنها خسارة لا ربح بعدها، والحسرات كثيرة وهذه أعظمها، فإنها حسرة لا سرور بعدها.

تتكلم الآية عن مشهد من مشاهد الندم الكثيرة في حياة أهل الكفر وفي آخرتهم، وهو مشهد مرتبط بالنفخ في الصور والإيذان بقيام الساعة، يوم يعلمون علم اليقين ألا رجعة إلىٰ الدنيا، وأن لحظة الجزاء قد حانت.

تأتيهم الساعة فجأة من غير ترقب ولا إعلان، إيذانًا بأنهم حرموا خيرات الآخرة وما فيها من نعيم مقيم وعظيم، فيُظهرون حسرتهم وندمهم وتعجبهم مما يحصل، يظهرون حسراتهم علىٰ أنفسهم وحالهم وما ينتظرهم، يظهرون حسرات علىٰ أعمال نافعة تركوها، وعلىٰ أعمال سوء اقترفوها، وعلىٰ أزمان في محاربة الدين أمضوها.

وتعالوا ننتفع نحن أهل الإيمان من هذه الآيات وهي تصف أهوالًا وأحوالًا صعبة علىٰ المكذبين الجاحدين، وتعالوا نستحضر ذنوبًا اقترفناها ولا زال الواحد منا مصرًّا علىٰ فعلها، وتعالوا نستحضر تلك الخلوات التي تجرأنا فيها علىٰ رقابة الرب جل وعلا، وعدنا إليه المرة بعد المرة، وتعالوا نستحضر قطيعة للرحم، وأكلًا لمال حرام، ومَجالس طابت لنا وهي قائمة علىٰ انتهاك حرمات الله من غيبة ونميمة وسماع للحرام ونظر إليه.

والمطلوب: أن نبادر بالتوبة إلىٰ الله قبل فوات الأوان، وقبل خروج الروح، وقبل قيام الساعة، وقبل الوقوف بين يدي الرب العظيم ليسألنا عن أعمارنا وأعمالنا وعلمنا ومالنا وعيالنا.

خسر أهل الكفر أنفسهم وجاههم وأموالهم، وربح أهل الإيمان رضا مولاهم وجنته، وفازوا بالدرجات العلا في النعيم المقيم السرمدي الأبدي.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾

أقبل أهل الكفر على الله وهم يحملون أوزارهم، أي: ذنوبهم وخطاياهم ابتداء بالشرك ومرورًا بكبائر الذنوب وصغائرها، فضلًا عن ذنوب من أضلوهم وكانوا سببًا في انتكاساتهم وبعدهم عن التوحيد، فكان عاقبة أمرهم السوء والخسران. قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

حملوا أوزارهم ليحاسبوا عليها، ولتكون سببًا من أسباب حسراتهم ونداماتهم التي لا تنقطع ولن تنقطع.

ولقد دلت أحاديث النبي ﷺ على أن أعمالهم التي كانوا يفرحون بها في الدنيا ستتمثل لهم في قبورهم وفي بعثهم على صورة أقبح رجل عرفوه ورأوه، كما دل على ذلك ما أخرجه أحمد وغيره عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف النبي ﷺ لحال الكافر بعد أن يعجز عن إجابة الملَكين في القبر عن سؤال: من ربك ؟ وما دينك ؟ وما هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟ قال ﷺ: "فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ ".

وكأني بكم وأنتم تعيشون في ظلال الآية تنتقلون إلى أهوال الدار الآخرة، وتستحضرون عظم الموقف وصعوبته، وتعلمون أن السعيد يومئذ هو من خفف الحمل وخرج من دنياه بأقل كلفة، وأن أهل النجاة هم الذين أحسنوا مراقبة الله وحفظوا أوامره، وحفظوا على من حولهم دماءهم وأعراضهم وأموالهم ولم يعتدوا عليهم.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

تصف الآية الكريمة حال الدنيا التي يركض الناس فيها ركض الوحوش، ويتقاتلون عليها ويبذلون لها الغالي والنفيس، وتخبرنا عن حقيقتها بأنها دار لعب ولهو وزينة وتفاخر، وليس فيها شيء من كل هذا يبقى.

جعل الله في هذه الدنيا مُتعًا ولذائذ، وحَبَّبَها إلى العالَمين ليبتليَهم أيهم أحسن عملًا، وقد أنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله ليعلمهم كيف يُعطوا كل شيء من حولهم حقَّه ومستحقه بلا غلو أو إفراط.

الدنيا فيها لعب مباح وآخر محرم، وفيها لهو مباح وآخر محرم، واللعب يكون غالبًا في البدن، واللهو يكون غالبًا في القلب، ولهو الدنيا ولعبها يدور بين منفعة لحظية آنيَّة لا تدوم، وبين ما لا نفع فيه ولا فائدة إلا أن يمضي الوقت. قال الله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ ﴾ [الحديد: ٢٠].

والمذموم من الدنيا هو ما صدَّ عن دين الله، وصرف القلب والعقل عن طريق الاستقامة والعبودية، وجعل صاحبه يَظْلم نفسه ودينه وأُمَّتَه باقترافه للكبائر وإصراره على الصغائر.

تأملوا حال من غفل عن صلاته ونسيها، ومن ترك الجهاد في سبيل الله، ومن هرب من ميدان الدعوة ومدافعة أهل الباطل، ومن امتنع عن أداء الزكاة لمستحقيها، ومن ترك القرآن وهجره، ومن اقترب من الزنا والفواحش، انظروا كيف غرتهم الحياة الدنيا وألهتهم، وكيف خدعتهم بزينتها ولهوها ولعبها وزخرفها.

يا أهل الإيمان: لا يغرنكم تقلب الذين كفروا في البلاد، ولا تظنوا أن المتع واللذائذ التي ينغمسون فيها دون سؤال عن حرام وحلال، أقول: لا تظنوها خيرًا لهم، ولا تظنوها علامة رضا الله عنهم، ولا تظنوا أنها سبب سعادتهم وراحةِ قلوبهم، ولكن اعلموا أنهم قوم كفروا بالله العظيم، واستعجلوا طيبات أحلت لهم عن طريق الحرام، فكان عاقبة أمرهم خُسْرًا.

واعلموا أن الانغماس في زخارف الدنيا وشدة الانبهار بها من أكثر الأسباب التي صدت العالمين عن دينهم وصلاتهم، وجعلتهم يأكلون الحرام أو يطلقون أبصارهم وأسماعهم فيه دون أن تتحرك قلوبهم أو يتوبون.

يا أهل الكفر والشرك، لا تظنوا أنه ليس بعد هذه الحياة حياة، وأن الدنيا هي دار القرار، ولكن اعلموا أننا نعيش مرحلة البلاء القائم على متع ولذائذَ تعقبها حياة أخرى أعظم نعيمًا وجمالًا، فأَعْملوا عقولكم واعتبروا بمن مضى من الأمم والناس، وآمِنوا واتقُوا واصدقوا الله في عقيدتكم وعبادتكم، واستقيموا كما أمركم خيرًا لكم. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣٦].

﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ﴾ يختلف حال المتقين في فهم حقيقة الدنيا كما أشار ختام الآية، فهم يعلمون أن نعيم الدنيا زائل، وأنه تلحقه مساءلة وحساب، ثم ثواب أو عقاب.

ويعلم المتقون أن لهوَ الدنيا ولعبَها وكلَّ ما فيها من نعيم، لا يكاد يُذكر أمام نعيم الدار الآخرة وما أعده الله فيها لأهلها وساكنيها، ولا يكاد يُذكر أمام اللذائذ الحقيقية التي لا تفنىٰ ولا يعقبها حسرةٌ أو ألم، بل إن لهوها ولعبها لا يكاد يُذكر إذا هجمت المنغصات والبلايا والفجائع.

المتقون علموا أن الآخرة خير وأبقىٰ، وأنه لا تَحوُّل بعدها ولا انتقال، وأن متع الجنة تختلف جملة وتفصيلًا عن حالها في الدنيا، وأنها لمن صبر وثبت وجاهد نفسه، وأخذ الكتاب بقوة.

المتقون تختلف أعمالهم في الدنيا، فهم يتسابقون في الخيرات والطاعات، وينوون نية طيبة في المباحات والعادات، ويلتزمون فيها بما أمر الشرع ولا يعتدون.

وأهل التقوىٰ كما هو معلوم لكم هم الذين يخشون ربهم بالسر والعلانية، ويعمرون دنياهم بالخيرات، ويسعون لنشر نور الهداية في العالمين جميعًا، وهم الذين أيقنوا أن الدار الآخرة خير لهم فلا يأخذون من دنياهم إلا ما أباحه الله لهم أو أمرهم به، ثم هم أصحاب رسالة مدارها علىٰ مرضاة الرب جل وعلا، وبذل الروح والمال والولد من أجلها.

ولا يفوتنا أن نستحضر مع هذه الآية تلك النصوص الشرعية التي تأمر بعمارة هذه الدنيا، وتطلب من العبد أن يأخذ حظه منها بما أحل الله، وعن النصوص التي أخبرتنا أن الغِنىٰ كان موفورًا في عدد من الأنبياء والصحابة والصالحين، وكان من دعاء نبينا ﷺ أن يوتيه الله في الدنيا حسنة كما هو الأمر في طلب حسنة الآخرة.

والمطلوب: خذ حظك من الدنيا كما أمر الشرع وأرشد، ولا تجعل قلبك متعلقًا بها فإنها ما استقامت لأحد من قبلك ولن تستقيم، ثم اعمل لها واعْمُرها بالخير والصلاح، واجعل نيتك صالحة في كل ما تقول وتفعل. أخرج الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ».

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ قارنوا بين الدَّارَيْن وتفكروا فيما هو ظاهر أمامكم، وامضوا فيما هو أنفع لكم وأصلح.

إن نعيم الآخرة دائم وثابت ومتجدد يومًا بعد يوم، وليس فيه هم ولا غم، ولا شقاء ولا تعب، ولا مرض ولا ضجر، ولا كدر ولا أي ضرر.

نعيم الآخرة فيه رؤية الله، ومجاورة حبيبه وحبيبنا محمد ﷺ، وكذا صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي: لهي الدار الدائمة الباقية التي لا موت فيها ولا فناء.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أدخل أهل الكفر من أهل مكة ومن حولهم من القرىٰ الحزنَ علىٰ قلب حبيبنا محمد ﷺ، أدخلوه بكفرهم وصدهم وعتوهم وشدة بأسهم، أدخلوه بتلك الأوصاف الي اخترعوها وأطلقوها عليه، وبإيذائهم لأصحابه المستضعفين، وبتأليب القبائل عليه وتشويه صورته، فجاءته الكرامة من عند الرب العظيم، وجاءته تسلية تكفيه وتكفي قلبه الحزين.

يقول الله تعالىٰ لنبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: أحاط علمنا بما يفعله قومك معك، ورأينا تكذيبهم لرسالتك وعداءهم لها، ورأينا طَعْنهم فيك وتنفيرَهم للعرب عنك، فاصبر علىٰ ما يقولون، واعلم أن الله معك وهو كافيك شرورهم، وهو ناصر لك ولأصحابك ودينك، وسينتقم لك من رؤوسهم وصناديدهم فلا تأسف عليهم ولا تحزن. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦].

وتأملوا في بلاغة عبارة ﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ فإنها تحمل دلالة علىٰ أن الذي قالوه كثير، وأنهم قصدوا كلَّ قول يثبط العزائم ويصرف عن الطريق، والقرآن دلَّنا علىٰ شيء مما قالوه في حق خير البرية ﷺ، فقد قالوا: ساحر ومجنون وشاعر وكذاب، وغير ذلك.

ولعلكم تدركون معي أن أهل الكفر والظلم في زماننا لا زالوا يتفننون في الصد عن دين الله، وإدخال الحزن علىٰ قلوب أهل التقوىٰ والإيمان، ولذلك جاءت مثل هذه الآيات لتسليَنا وتربطَ علىٰ قلوبنا، ولتعينَنا في مواجهة أهل الظلم والفجور في الأرض، ولتقولَ لنا: إن الله معكم فامضوا كما أمركم، واصبروا علىٰ مكرهم وكيدهم، والعاقبة في الدنيا والآخرة لن تكون إلا للمتقين.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ اعلم يا رسول الله أن قومك لا يشتبهون في أمرك، ولا يشكون فيك، بل يعلمون تمام العلم أنك نبي مرسل من عند الله، وأنك الصادق الأمين، وأنك تحمل الحق وهم يحملون الباطل، فإنهم لا يكذبونك في قرارة أنفسهم وفي مجالسهم التي يخططون فيها لاستئصال شأفة دعوتك، ولكنهم كعادتهم عاندوا الحق ودفعوه بما أوتوا من قوة، وردُّوا كل ما جاءهم من الوحي، وأغمضوا أعينهم عن آيات الله التي تملأ الآفاق، وأنكروا إنكار مكابرة وحسد فكانوا من الظالمين لأنفسهم أشد الظلم.

ولذلك لا يسوؤك قولهم وفعلهم، ولا تحزن كل هذا الحزن لئلا يُقعدك عن العمل، فإن الحزن طريق من طرائق الشيطان التي يصرف بها أهل الله وخاصته عما أقامهم ربي فيه.

يا أيها الدعاة إلى الله: تسلحوا بالعلم، وخالطوا الناس وتعاهدوهم بالموعظة والتذكير بألطف عبارة وأحسن أسلوب، فإذا قصدكم أهل الباطل بالأذى والتضييق، وتسلط عليكم السفهاء والجهال، فاصبروا على الناس، وأكثروا من التضرع والدعاء، وداوموا على بيان الحق وتبليغه، وتوكلوا على الله.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

إن طريق الدعوة إلى الله تعالى ونشر الهدى في الخليقة طريق صعب وليس يسيرًا، ويحتاج السائرون فيه لمثل هذه الآية ليفهموا طبيعته وما فيه من العوائق، ثم ليكونوا أقوياء في حمل الأمانة، ثم ليصلوا إلى لذة هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولذة إنكار المنكرات ومدافعة أهلها، ولذة النصر على الأعداء وتحقيق عالمية الشريعة الغراء. قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

نعيش في ظلال آيةٍ تحمل أمرًا بالصبر، ووعدًا بالنصر، وتخاطب نبينا ﷺ وتنقله إلى استحضار سيرة الرُّسُل من قبله، كيف نصب لهم أقوامهم رايات العداء والمكر والكيد والإيذاء والشرور، وكيف كفروا وظلموا وعاثوا في الأرض فسادًا وإفسادًا، ولكن هؤلاء الأنبياء والرسل الكرام مع صعوبة ما رأوه وعاشوه كانوا من الصابرين، ولم يتخلفوا عن غاياتهم ومنهجهم قَيْد

أُنْمُلة، ومَضَوا في دعوتهم وجهادهم حتى قضى الله تعالى بينهم وبين أقوامهم بنصر المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

تَحْمل الآية وعدًا للنبي ﷺ بأن ينصره الله على قومه وتكون العاقبة له ولصحبه، وتحمل كذلك تهوينًا عليه وتكرمة وعونًا، وترشده إلى الصبر الذي هو سلاح المؤمنين في دعوتهم. قال الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

انظروا في جمال قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾، أي: حتى نصرهم الله تعالى على أقوامهم، وهذا النصر له أشكاله وألوانه التي نفهمها من تتبع سِيَر أنبياء الله تعالى ورسله، وتتبع سِيَر الدعاة إليه الذين جاءت نصوص الوحي بالكثير من سيرهم وأحوالهم مع أقوامهم.

لقد نصر الله نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على قومه بإهلاكهم ونجاة المؤمنين، ونصر هودًا وصالحًا ولوطًا وموسى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ على أقوامهم بألوان من العذاب والعقوبات، ونصر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بنجاته من نار قومه ووعيدهم، ونصر الله أصحاب الأخدود بتمكينهم من تبليغ رسالة الله لقومهم وإيمان كثير من الناس، ونصر أصحاب القرية بوصول دعوتهم إلى أقصى المدينة وغيرها، ومكَّن الله لداود وسليمان ويوسف عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بالحكم في الأرض وسيادة أقوامهم.

هل أدرك أهل الدعوة والطاعة للرب العظيم قيمة التأسي بالأنبياء والصالحين، وضرورة أن نربي أنفسنا على الاعتناء بسيَرهم وخصالهم ؟ وهل أعطيناهم حقهم في مجالسنا وبيوتنا ومواطن لقائنا بالأحبة والإخوة ؟

وكأن القرآن يريد منا أن نستحضر تاريخهم مع أقوامهم، ونكون أقوياء كلما رجع الحزن إلينا بسبب ما نجده من أقوامنا وأبناء جلدتنا وزماننا، وكأنه يريد أن ترسخ عقيدة الإيمان بهم في قلوبنا على الطريقة الصحيحة لا مجرد أن نذكرهم ونتكلم عنهم.

﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أقول: هذه الآية لنا ولكل من قرأ القرآن وعاش معه من قبلنا، ولكل من اختار هذا السبيل إلى يوم الدين، ممن اختار لنفسه أن يحمل إرث النبيين والرسل، وأن يسير على طريقهم لعله يكون في درجتهم غدًا في الجنات.

يا أيها الدعاة إلى دين الإسلام، قضى الله تعالى في عليائه أن تكون الغلبة دائمًا لكم، وأن أهل الباطل قد ينتفشون ويفرحون بعلوهم في جولة من جولات الصراع معكم، ولكنكم يقينًا ستظفرون بعون الله وتأييده ما دمتم تراعون سننه في النصر على الأعداء، وتأتون بأسباب التمكين لكم في الأرض. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصَّافَّاتِ: ١٧١ -١٧٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الْمُجَادَلَةِ: ٢١].

أخرج البخاري عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

وأخرج ابن ماجه بسند حسن عن أبي عِنَبَةَ الْخَوْلَانِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "لَا يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ".

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أخبرك الله يا محمد ﷺ بشيء من سيرة الرسل فيما أوحاه إليك، مما يثبت فؤادك ويطمئن به قلبك، فلك فيهم أسوة حسنة وقدوة طيبة مباركة، فاعمل كما عملوا وترقب نصر الله لك وللمؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

السياق القرآني يمضي في مخاطبة نبي هذه الأمة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ودعاتِها وحملةِ راياتها، ويقول لهم: لا يشقنَّ عليكم إعراض عدو الله وعدوكم عن دعوتكم، ولا تتذمروا من شدة إصرارهم على الكفر والفسق والفجور.

وكأني بهذا الخطاب لنبينا ﷺ الذي هو رسول الله ومُصطفاه من خلقه، يدلنا على عظم الحزن والألم الذي أصابه من إعراض قومه، وعظم حرصه على أن يكونوا مهتدين، ويشير إلى مقدار شغله في الليل والنهار، وطلب ما يقدر عليه وما لا يقدر لعلهم يهتدون.

وقول الله تعالى ﴿كَبُرَ﴾ أي: شَقَّ. وقوله سبحانه: ﴿نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: سَرَبًا وخندقًا. وقوله: ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سلمًا تصعد على درجاته إلى السماء.

والمقصود: إذا شقَّ عليك يا رسول الله ﷺ ضلالُ قومك وإعراضهم عن الإيمان، وظننت أنك ستنجح في إدخالهم في الإسلام وهدايتهم إذا وافقتهم في كل ما يطلبون ويشترطون، فاذهب إلى أنفاق الأرض وخباياها، واصعد إلى السماوات العلا وعجائبها، وهات آية ومعجزة تكون أفضل من آيات الله التي تتابعت وكثرت.

واعلموا أن صناديد مكة وكُبَّارها أرادوا معجزات خاصة بهم غير التي جاءتهم، وكانوا يزعمون أنهم سيدخلون في دين الله إذا تحقق طلبهم، مع أن ما طلبوه يدل على ما أضمروه في نفوسهم من الكبر والكفر والعناد، وقد جاءت آيات ربنا تذكر شيئًا مما طلبوا، وقد أشرنا إليه من قبل في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

ولعل قلب نبينا ﷺ كان يهوى أن يستجيب الله لما يطلبه قومه منه ليؤمنوا، فجاءته الآية هنا لتقول له: إنهم لن يؤمنوا ولن ينتفعوا مهما فعلت ومهما بذلت.

واعلموا أن نبينا ﷺ كان حريصًا كل الحرص على هداية قومه، حتى خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقوله جل وعلا: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]. والباخع: هو المهلك نفسه.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ﴾ اعلم يا محمد ﷺ أن قلوبهم ليست بيدك، وأن رسالتك تقوم على السعي في هدايتهم، ثم مجاهدتهم كما أمرك الله، واعلم أن إعراضهم يهدف إلى إدخال اليأس إلى قلبك، وإدخال الحزن الدائم إلى حياتك، وإضعاف همتك وإيقاف دعوتك، فلا تلتفت إلى ما يقولون أو يفعلون.

إن الذين يكذبونك لا يهديهم إلا الله، ولقد علم سبحانه خبث قلوبهم وطباعهم وما في نفوسهم، واطلع على نياتهم فرأى فيها الجحود والإنكار، وعاملهم بما يستحقون فختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس: ٩٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الجاهل هنا ضد العالم، وليس كل جهل يكون عيبًا لأن الإنسان لا يحيط بكل شيء علمًا، فإذا أراد الواحد منا شيئًا يظنه خيرًا ثم لا يُقَدَّر له فإنه يدخل الحزن إلى قلبه والندم عليه، ويشعر أنه حُرم فضلًا كبيرًا، والصحيح أن الله تعالى قضت حكمته وسبق في علمه كل ما ينفع فقدَّره ويسَّره، وكذا كل ما يضرُّ فمنعه وضيَّقه.

تحذير للنبي ﷺ يحمل تعليمًا لكل من قرأ القرآن وعاشه بجوارحه، تحذير يقول له: إياك أن تكون من الذين يتعاملون بعاطفتهم المجردة الحريصة على هداية كل الناس، فإن الله تعالى قدَّر الإيمان والكفر في الدنيا، وخلق الجنة والنار في الآخرة، وجعل لكل منهما أهلًا، فاعلم ذلك ولا تكونن من الجاهلين به.

ولقد استحضرت مع هذه الآية الكريمة حال أقوام من الناس يبذلون الغالي والنفيس في سبيل هداية ولدهم أو والدهم أو زوجهم أو أحد أرحامهم، ثم لا يوفقون في ذلك ولا يجدون طريقًا، كما حصل مع نبي الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في زوجه وولده، وكما حصل مع لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في زوجه، وكما حصل مع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في والده، وكما حصل مع نبي الله محمد ﷺ في عمه وأبناء عمومته. قال الله تعالى لنبيه نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما دعا الله وطلب منه الرحمة لابنه لأنه من أهله، وذلك بعد أن أخذه الطوفان وهو على الكفر: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

المقصود بالموتى أهل الكفر الذين يعيشون على الدنيا وقد عطلوا عقولهم وقلوبهم عن قبول الحق، ولم ينتفعوا بالحواس التي وهبهم الله إياها على الوجه المَرْضي، ولم ينزجروا عن شركهم واتخاذهم الأنداد مع الرب العظيم، فكان حالهم كحال الأموات الذين لا يسمعون ولا يستجيبون، ماتت قلوبهم فكانوا كمن مات جسده، وهذا كقول الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

ثم إن أهل الكفر هؤلاء الذين هم أشبه بالأموات وأقرب إلى حالهم سيرجعون إلى خالقهم، وسيحاسبهم عن إعراضهم وصدهم وإصرارهم، وهذا الخطاب يحمل تهديدًا لهم، وتهكُّمًا عليهم وازدراءً بهم.

ومن أهل العلم من قال: إن لفظة الموتى هنا على حقيقتها، وتعني أن الموتى جميعًا من المسلمين والكافرين سيبعثهم الله من قبورهم وسيحاسبهم، وحينها لا ينفع الندم ولا ينفع المكذبين شيءٌ.

أما صدر الآية فهو امتداد لخطاب النبي ﷺ وتوجيهه، وفيه مزيد بيان لحقيقة حال من كفروا به ونصبوا رايات العداء له من قومه ومن غيرهم، وفيه إظهار بُعدهم عن الهدى باختيارهم وإرادتهم، وفيه تأكيد على صعوبة استجابتهم وولوج الدعوة إلى نفوسهم وإن قدَّمت لهم ما قدَّمت، والمطلوب: هَوِّن على نفسك واصبر على ما يقولون ويفعلون يا نبي الله ورحمته للعالمين.

وتدل عبارة ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ على أنه لا ينتفع من نصوص الوحي والهدى، ولا ينقاد لأمر الله ونهيه إلا من سمع كلام الله وكلام نبيه ﷺ عن تجرد وحرص على التدبر والفهم والإذعان للحق، وهذا هو حال أهل الإيمان بالله العظيم، بخلاف أهل الكفر الذين آتاهم الله أسماعًا وعقولًا وقلوبًا، ولكنهم لم يستمعوا للآيات لينتفعوا، ولا ليفقهوا ما جاءهم من آيات الذِّكر الحكيم، ولا ليعتبروا بالمواعظ والوعد والوعيد، فكان المراد من السماع في الآية أن يستمع بقلبه لا بأذنه.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يريد أهل الشرك أن ينزل الله عليهم المعجزات التي طلبوها، والتي اشترطوها لإيمانهم وتصديقهم، ومن المعجزات التي طلبوها ما أخبرت به سورة الإسراء كما مر معنا، وما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧-٨].

والمتأمل فيما طلبوه يجد أنه لا يحمل إلا دلالة واحدة هي تعنُّتهم واستخفافهم بالشريعة ومُنْزلها، واستخفافهم بمن جاء بها من عند الله، واستخفافهم هذا هو الذي حرمهم من فلاح الدنيا والآخرة. وقد مر معنا قول الله تعالى فيهم: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وجاء قول الله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢].

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قل يا محمد ﷺ لهم: إن الله تعالى قادر على كل ما طلبتموه، وأنتم تعلمون ذلك جيدًا، ولكنَّ حكمته قضت بإيتائكم معجزات تناسب مقامكم، وتكفيكم حاجاتكم، وتُعطيكم الدليل والبرهان الساطع، وتَنْزل على ما ينفعكم لا على مقتضى شهواتكم وأمنياتكم التي تقصدون بها التعجيز، ولو أن الله آتاكم ما تريدون ثم توليتم لعاجلكم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة، فانتبهوا وافقهوا عن الله وارجعوا، كما دل على ذلك قول الله للحواريين لما طلبوا مائدة من السماء: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، وكما أنزل الله العقوبة بقوم هود وصالح عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لما كذبوا بآيتي السفينة والناقة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

ولا تظنوا أن الآيات والمعجزات لم تتنزل على أهل الكفر، بل جاءتهم ورأوها بأمِّ أعينهم، وعلموها وتناقلوها، كانشقاق القمر، وتكثير الطعام القليل، ونبع الماء من بين يديه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بل جاءتهم آية واضحة، ومعجزة باهرة هي أعظم معجزة في إرسال الأنبياء جميعًا، جاءتهم معجزة خالدة لهم ولجميع أهل الكفر من بعدهم مما لا يسعهم أمامها إلا أن يُقْبلوا على الدين ويؤمنوا، وهي معجزة القرآن العظيم، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

وقد كان التحدي مُوجَّهًا إليهم مباشرة، ويقرع أسماعهم ليلًا ونهارًا، ولكنهم قوم يعاندون ويظنون أن وظيفة الرسل أن يستجيبوا لكل ما يطلب أقوامهم، وبتفاصيلهم التي يريدون، وغفلوا عن وظيفة رسل الله التي اصطفاهم لها، وهي التبليغ والإنذار والإرشاد على الوجه الذي يأمر به الله. قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وقول الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يعني أنهم لا يعلمون أنهم يطلبون شرًّا لهم، لأن تكذيبهم بالآيات التي طلبوها يعني أن البلاء والعذاب سيحيق بهم ويستأصلهم، وسيعجل الله العقوبة لهم كما هي سنة الله فيمن كذبوا، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]، أو أنهم يحسبون أن عدم مجيء الآيات التي طلبوها دليل على عدم صِدْق محمد ﷺ في رسالته، وهذا من ظُلْمة عقولهم، وشدة جهلهم، وقلة فقههم وعلمهم.

ويعني كذلك أنهم لا يعلمون شيئًا من حِكَم الله تعالى في أفعاله، ولا من سننه في خلقه، ويعني أن هذا حالُ أكثرهم كما نبهت الآية، بمعنى أن أهل العقل والفهم موجودون فيهم وإن كانوا قِلَّة، ولكنهم يكابرون ويتظاهرون بخلاف ما يعتقدون.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾

يا أهل الكفر، لمَ لا تتأملون في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من معالم قدرة الرب جل وعلا ؟ أما تعلمون أن الله تعالى خلق أممًا من الطير والإنس والجن وجميع الدواب ؟ أما يكفيكم ذلك لتستحضروا هذه العظمة في الخلق فتنقادوا ؟ أما آن لكم أن تتوقفوا عن كثرة جدالكم واشتراط ما لا ينفعكم ؟ هل تظنون أن الله سيغفل عما تعملون، وأنه غير مجازيكم عما تكسبون ؟

ويا أهل الإيمان، انظروا في هذا الخلق، وتأملوه يومًا بعد يوم لتزدادوا يقينًا على يقين، وليزداد إيمانكم ويرسخ، ولتعلموا أن أعداء الدين وأعداءكم لا يملكون لكم نفعًا ولا ضرًّا، ولن يصدوكم عن تبليغ رسالتكم للعالمين وإن توعدوا وهددوا وملكوا ما ملكوا، فإن أهل الدين منصورون ما نصروا دين الله وتتبعوا السنن.

نستحضر ونحن نعيش مع الآية أنواع الطير وأصنافه وأشكاله التي لا تُعَد ولا تُحْصى، ونتأمل في دواب الأرض التي يستحيل حصرها وتتبع جميع أحوالها، وننظر في حال أمة الجن التي أخبرنا الله تعالى أنها وجميع دواب البر والبحر والطير أممٌ أمثالنا، يأكلون ويشربون وينكحون، ويفرحون ويغضبون، ويختصمون ويموتون، ولهذه الأمم لغتهم وصفاتهم وعاداتهم التي تخصهم، ولهم طريقة حياة كما هو حالنا.

نستحضر ونحن نطلق النظر في خلق الله أن منهم من أعطاه الله العقل وكلفه كالجن والإنس، ومنهم من ألهمه وجعل فيه غرائز، وفطره على ما تقوم به حياته، وإن كان غير مكلف ولا عقل له.

ولقد وصلنا في عصرنا الحديث إلى تفاصيل كثيرة عن حياة هذه الأمم مما لم يكن في سابق العهد والأزمان، ومما لا يملك المرء العاقل أمامه إلا أن يدرك عظمة الخالق، ويعيش ظلالها على الدوام، ويعلم أن هذا الكون مخلوق بقَدَر وعلم وحكمة، وأن الإنسان أمام هذه العظمة ضعيف وحقير ولا قيمة له إلا بإيمانه وتوحيده.

ومن أهل العلم من نص على أن الآية ألمحت إلى ضرورة الرفق بالحيوان لأن لحياتها نظامًا وحُرْمة مثلنا، وقد جعلها الله تعالى أممًا لاستكمال عمارة الأرض وكمال العيش فيها.

قلت: والمتتبع لنصوص الشريعة يجد أن الدواب منها ما هو نافع ومنها ما هو ضار، ومنها ما أذن الشرع بقتله ومنها ما نهى عن قتله أو تعذيبه، ومنها ما يحل أكله ومنها ما يحرم، ومنها ما يباح تربيته ومنها ما لا يباح، وهكذا.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ أحاط علم الله وقَدَره بجميع مخلوقاته، وهو الذي يدبر أمورهم ويرزقهم، وهو الخبير بأسمائهم وأعدادهم وأماكن تواجدهم، وهو العليم بحركاتهم وسكناتهم وجميع تفاصيل حياتهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هُود: ٦].

ما فرطنا، أي: ما أهملنا ولا تركنا، ولا ضيَّعنا ولا قصَّرنا، ولا غفلنا عن ذرة من أحوال المخلوقات وما يُصحلها، ولقد رزقناها كما رزقناكم ونفذت فيها مشيئة الله وإرادته كما نفذت فيكم.

والمقصود بالكتاب هنا اللوح المحفوظ الذي كتب الله تعالى فيه كل المقادير قبل أن يخلق الخلق، سبحانه لا إله إلا هو.

ومن أهل التفسير من قال: إن المراد بالكتاب هنا هو القرآن، بمعنى أن الله تعالى أنزل في كتابه قواعد العلم والعمل، وعلمنا أصول العقائد والأحكام والأخلاق، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

ومن عجائب زماننا أن صنفًا من الناس يزعم أنه يحب القرآن وينادي بتحكيمه ويدعو الناس إليه، ولكنه لا يؤمن بالسنة والحديث، ويرى عدم جواز أخذ أي عقيدة او حكم من غير القرآن، وتراه يستدل بهذه الآية بأن الله تعالى ما فرط في الكتاب من شيء، وأن كل شيء موجود فيه.

وهذا الطرح مخالف للقرآن جملة وتفصيلًا، ومخالف لإجماع الأمة وما سارت عليه منذ بزوغ فجر الإسلام، والأصح في وصف قائله ومعتقده أنه كافر بالقرآن نفسه الذي أمرنا باتباع محمد ﷺ وطاعته في أقواله وأفعاله، ولا أدري كيف يصلي أو كيف يأخذ أحكام الصيام والحج والزكاة بدون سنة حبيبنا وقدوتنا وأسوتنا محمد ﷺ، ولا أطيل مناقشة كلامهم وأوجه سقوطه، ويكفيني استحضار حديث النبي ﷺ الذي ذكرهم فيه، كما أخرج أحمد عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ (أي: السُّنَّة)، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ (هذا القائل يقصد بكلامه الاقتصار على القرآن وهجر السنة)" الحديث.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الإنس والجن والطير والدواب سيموتون، وسيبعثهم الله في أرض المحشر لإقامة محكمة العدل والثواب والعقاب. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التَّكْوِير:٥].

ولقائل أن يقول: وهل تُحشر الدواب كما نحشر، ويُقتصُّ منها وبينها كما هو الحال مع الإنس والجن ؟

والجواب: نعم، يحشرها الله ويقضي بينها ثم يجعلها ترابًا، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية، كما في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ (التي لا قرون لها)، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ (التي لها قرون)».

وأخرج أحمد بسند حسَّنه بعض أهل العلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ؟ " قَالَ: لَا. قَالَ: "لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا".

وأخرج الحاكم وغير واحد من أهل التفسير بأسانيدهم، بإسناد جوَّده عدد من العلماء، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَقْضِي اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ، الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، وَإِنَّهُ لَيَقِيدُ يَوْمَئِذٍ الْجَمَّاءَ مِنَ الْقَرْنَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ تَبِعَةً عِنْدَ وَاحِدَةٍ لأُخْرَى قَالَ اللهُ: كُونُوا تُرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: "يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا".

ولقائل أن يقول: ولماذا تُحْشر الدواب، ويُقتصُّ منها ولها وهي غير ملكفة ؟ ولا يتعلق بأفعالها في الدنيا ثواب ولا عقاب، لانتفاء مقتضى التكليف القائم على العقل ؟

والجواب أن في ذلك دلالة عظيمة على أن محكمة العدل ستُقام غدًا في أرض المحشر بين الخلائق جميعًا، حتى بين الدواب التي لا تعقل، ليعلم أهل الظلم أنهم موقوفون بين يدي الرب العظيم، وأنه لن يمر شيء بدون حساب، وأن ما أخذوه من مال ظلمًا، وما اقترفته جوارحهم عمومًا وألسنتهم خصوصًا قد سبقهم إلى ذلك اليوم، فليحذروا وليردوا المظالم إلى أهلها، وليتحللوا منها ويتوبوا قبل فوات الأوان. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

يا أهل الظلم: إذا كان هذا حال القصاص بين البهائم والحيوانات، فكيف يكون حال القصاص في جنس الإنسان ؟ وكيف سيكون حسابكم وقد فضلكم الله على الدواب بالعقل والفهم وعمارة الدنيا وإقامة الحضارات فيها ؟ فاللهم سَلِّم سَلِّم.

الدار الآخرة هي دار العدل، والقوي فيها هو الله أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، بخلاف الدنيا التي قد تنتصر القوة فيها على العدالة في وقت ما.

وفي الدار الآخرة: سيأخذ كل مظلوم حقه من ظالمه، ولا مفرَّ فيها ولا محيص من الحساب، ثم الثواب أو العقاب.

ثم إن حشر الدواب في الدار الآخرة يحمل مزيد حجة على أهل الكفر الذين ينكرون البعث والحشر، ويقول لهم: إن الحشر لن يكون للناس فقط، بل هو للدواب والطير كذلك، دلالة على عظم ما ينتظرهم. قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩].

ثم اعلموا ان القصاص من القرناء والجلحاء ليس قصاص تكليف إذ لا تكليف عليها، ولكنه قصاص مقابلة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾

الأصم هو الذي لا يسمع، والأبكم هو الذي لا يتكلم، وهذان الصنفان يشتد عليهما الأمر في الاهتداء إلى الطريق لو كانوا سائرين في طريق مظلم، فالأصم لا يسمع إرشاد الآخرين له، والأبكم لا يستطيع السؤال عن المَخْرج، وهذا حال أهل الشرك الذين لا يسمعون كلام الخير والإيمان سماع انتفاع وفهم وقبول فكانوا كمن لا يسمع، ثم هم لا ينطقون بكلام التوحيد والعبودية مع علمهم بأنه الحق فكانوا كمن لا يتكلم، فهم في جملة أحوالهم يعيشون في ظلمات الجهل والحيرة والشك والتردد والغفلة، ولا يهتدون إلى النور الذي يوصلهم إلى نجاتهم. قال الله في وصف حال أهل الكفر: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وهؤلاء الذين عَمُوا وصَمُّوا عن آيات الله وتوحيده سيحشرهم غدًا يوم القيامة على الحال التي اختاروها في الدنيا. قال الله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ سبحانه، هو المتصرف في خلقه بما يشاء، الكل تحت ملكه وقهره، والجميع عبيد له، يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ولا يكون في خلقه إلا ما يريد.

سبحانه، القلوب بيده، والخير كله له، وله الخلق والأمر، يشرح صدر من أحب واصطفى للإيمان والعلم، ويوفقه للخير والصلاح بعلمه وحكمته وفضله، ويحول بين المرء وبين قلبه إذا شاء، ويحرمه من عونه وتوفيقه وحفظه، كل ذلك بما كسبت يداه وارتضت واختارت. قال الله تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال جل وعلا: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قل يا محمد ﷺ لأهل الشرك والكفر: ألا تخافون أن ينزل بكم عذاب الله في الدنيا، وتأتيكم الرجفة أو الصاعقة أو الغرق كما أتت من قبلكم ممن تعلمون ؟ هل أمنتم أن تقوم القيامة على الناس بغتة وأنتم مقيمون على اتخاذ الآلهة مع الله ؟ ماذا ستقولون لربكم إذا وقفتم بين يديه للحساب ؟ وهل تملك لكم هذه الآلهة شيئًا إذا حلَّت بكم عقوبةُ الله ونقمتُه ؟ وهل ستدعون غير الله في تلك اللحظات كما تفعلون الآن ؟ أين زعمكم بأنكم صادقون في دعواكم بأن آلهتكم من البشر والحجر تنفع وتضر ؟ ألا تخافون الحسرات والندامات يوم لا ينفع مال ولا بنون ؟

أخبرهم يا محمد ﷺ وأخبروا أيها المصلحون أقوامكم، وقولوا لهم: متى تستفيق عقولكم من هذه الغفلة التي طالت وألهت ؟ ومتى تستحضرون قدرة الله وعظمته بالتصرف في خلقه بما يريد ويشاء، فتخافونه وترجونه ؟ قولوا لهم: إنَّ قَدَر الله إذا حل بكم لن ينفعكم شيء فأفيقوا واخلعوا عنكم الشرك، وبادروا بالإقبال الصادق على من بيده النفع والضر حقيقة.

انظروا في جمال موعظة الله لهم كيف يذكرهم بأحوالٍ قد تعرض لهم فلا يلجؤون حينها إلا إلى خالقهم، وهذه الأحوال يعلمونها في قرارة أنفسهم جيدًا ويوقنون بها، ثم انظروا في هذا الخطاب الذي يحمل تهديدًا لهم وتخويفًا.

بل انظروا في قادم الآيات التي ينتظركم فيها تكرار لفظة "قل" اثنتي عشرة مرة، لعل القوم يتحرك فيهم شيء، ولعل الدعاة إلى الله يفقهون عظم دعوتهم، وضرورة أن يتسلحوا فيها بالثقة بالقوي العزيز، وأن يكونوا أقوياء ويقولوا للكفرة والفجرة والعصاة ما يلزم من الموعظة والنصح والإرشاد وإقامة الحجة.

ولقد أخبرنا كتاب الله عنهم أنهم إذا أحاط بهم ما يسوؤهم، وعجزوا عنه وعن دَفْعه، فإنهم يفزعون إلى العليم القدير، ويُخلصون له في الدعاء، ويعطونه العهود والمواثيق على توبة لا انتكاسة بعدها، فإذا أكرمهم ربهم وأعطاهم سُؤْلهم ونجاهم مما يخافون رجعوا إلى فساد حالهم وقلوبهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥-٦٦].

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

يقيم الله عليهم الحجة تلو الحجة لعل واحدة منها تدخل إلى عقولهم وقلوبهم فينقادون، ويخبرهم أنهم لن يستغيثوا في وقت الضرورة إلا بالعظيم جل جلاله، ولن يفزعوا ويتوجهوا بالدعاء إلا لمن علموا في قرارة أنفسهم أنه خالقهم ومدبر أمرهم، وسَيَنْسون أصنامهم التي جعلوها نِدًّا وشريكًا في الرغبة والرهبة مع الله، سيذهلون عنها ولا يلتفتون إليها لأنهم يعلمون حقيقتها، وقد يستجيب الله لهم دعاءهم ويفرج عنهم ما هم فيه، وقد لا يستجيب.

يقول الله لهم: إذا كنتم تعلمون أنه لا يقدر على نصركم ودفع العذاب عنكم إلا الله فلماذا تصرون على الإشراك به وقت الرخاء ؟ وإذا أيقنتم أن أوثانكم وأصنامكم ومعبوداتكم جميعًا لا تملك لكم مثقال ذرة من خير أو ضُر أو موت أو حياة أو نشور فما هو سِر تعلقكم بها ؟ متى ستدركون أن شفاعة الأصنام التي تعتقدونها لا تعدو أن تكون واساطة شِرْكيَّة وَهْميَّة موروثة عن الآباء، ولن تنفعكم ؟

ولقائل أن يقول: ولماذا يخبرهم في الآية أنه قد يكشف عنهم البلاء في الدنيا إذا دعوه مع أنهم أهل كفر وإشراك ؟ والجواب أن الله تعالى لا يحرم مسلمًا ولا كافرًا من نعمه في الدنيا، بل يعطي الجميع من المال والصحة والجمال والعيال، وهو سبحانه يتحبب إلى عباده بنعمه وإن كانوا مشركين، وقد يستجيب لهم الدعاء إذا دعوه وحده ليقيم عليهم الحجة زيادة وزيادة، وليحصل عندهم طمع في رحمته فيسارعون في توحيده والرجوع إليه.

وهذا بخلاف الأمر في الدار الآخرة التي لا يعطيها الله إلا لأوليائه ومن مات على توحيده وإتمام العبودية الصادقة له، أما أهل الكفر فدعاؤهم في الدار الآخرة لا ينفع، وهو في ضلال مبين. قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠].

وتأملوا كيف أخبرهم أنه يكشف عنهم العذاب إن شاء، وذلك لئلا يتكؤوا على واسع فضله، ويظنوا أنهم أولياء الله وأحباؤه، وليبقوا على حذر وتبقى في قلوبهم غصة فلا يأمنون عقاب الله ونزول سخطه عليهم في أي وقت.

بل أخبرهم في آيات أخرى أن كشف العذاب عنهم لن يدوم، وأنه سيرجع إليهم قريبًا فليحذروا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۚ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٥-١٦].

وأصدقكم القول: إن عددًا منا قد يتشبه بهم في سرعة إعراضهم عن الإقرار بالنعم وما تستوجبه من الشكر وقت الرخاء، بل قد نرىٰ من أبناء الإسلام من لا يعرف ربه إلا وقت الضيق وعند حصول اليأس من الأسباب، فإذا أصابه الرخاء نسي عهده ووعده، ثم قنط وأيس من رحمة الله وفضله. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أخذ الله تعالىٰ الأمم الكاذبة الضالة بالبأساء، أي: بالفقر والشدة وضيق العيش، وأخذهم بالضراء، أي: بالأمراض والأسقام والآلام، لعلهم يتضرعون، أي: يتذللون ويخشعون ويذلون، ويرجعون إلىٰ خالقهم ويدينون له بما أمر ورضي، وذلك بعد أن أرسل إليهم رسلًا، وأنزل عليهم كتبًا، وجاءتهم المعجزات والآيات والبينات.

يخبر الله تعالىٰ أنه أنزل بهم ذلك، وكأنه يطلب من نبينا ﷺ أن يذكر قومه بما يعلمونه من وقوع العذاب بالذين ظلموا أنفسهم بالشرك، وبأن يداوم علىٰ إنذارهم وتخويفهم من الاستئصال، بل توعدهم بذلك وخاطبهم صراحة في آيات أخر كما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

فلولا، أي: فهلا إذا نزل بهم البلاء تابوا وألحُّوا علىٰ الله بالدعاء والاستكانة والإنابة، وهلَّا كانوا كحال العقلاء من الناس الذين تربيهم الشدائد والصعاب فيكفوا عن فجورهم وغرورهم، ولكنهم لم يفعلوا لأن قلوبهم كانت صلبة وعلاها الرَّانُ فما رقَّت ولا خشعت ولا أفلحت، بل كابرت وأطاعت الشيطان في تحسين دين الآباء من الشرك والكفر والصد عن سبيل الله، وأطاعت الشيطان في تحبيب الفسق والفجور إليهم، وإيهامهم بأنهم علىٰ الحق، وأنهم يُحْسنون صنعًا في بقائهم علىٰ عقيدتهم الباطلة.

أقول: ويا ليتهم فعلوا وفازوا بسعادة الدارَيْن.

وأقول: ولو تأملنا حال من فسد وابتعد عن طريق الاستقامة لوجدنا أن القسوة أحاطت بقلبه فلم يعد ينتفع بموعظة ولا تذكرة، ولم يعد يتأثر بموت قريب أو حبيب، وما كانت قسوة قلبه إلا لإصراره على الذنوب والمعاصي، وانصرافه عن الصلاة والقرآن والذِّكر وصحبة الصالحين، ثم أوقعه الشيطان في أوهام وشبهات، وحسَّن إليه ما يفعله، وتلاعب به كما يشاء، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

تقدم معنا أن الله ابتلاهم بالبأساء والضراء، ثم رفعه عنهم بسبب دعائهم لعلهم يتوبون ولكنهم نسوا ما ذُكروا به من عقوبة الله، وكان نسيانهم لما جاءهم من عند الله نسيان إهمال وإعراض، وكان يحمل دلالة ظاهرة على قسوة قلوبهم وشدة إعراضها عن الهدى والحق، فاستدرجهم الله من حيث لا يعلمون، وآتاهم من نعمه وفتح عليهم أبواب الرزق والصحة والولد والعافية والأمان من جميع ما يشتهون ويتمنون، فظنوا أن هذه علامة رضا الله عنهم، وأنهم على خير، ولم يدروا أن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يؤخره ولم يمهله.

نسوا لله وأوامره ونواهيه، واستمروا على كفرهم، ففتح عليهم أبواب كل شيء لعل تتابع النعم عليهم يُحدث في قلوبهم حياء من المنعم، ولعل نفوسهم تطهر فيحمدوا خالقهم ويوحدوه في اعتقادهم وعبادتهم، ويا ليتهم فعلوا. قال الله تعالى عن قوم موسى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فرحوا بنعمة المال والولد والعافية، وانغمسوا في نعم الله وتقلبوا فيها، وأصابهم الفَخْر والبطر بالنعمة مع نسيان المنعم، وظنوا أنهم قادرون على كل شيء، حتى إذا كانوا على هذا الحال نزل بهم بأس الله فجأة، وأتتهم عقوبته في الدنيا على حين غفلة، فلم يُنْظَروا ولم يُمْهلوا ليتوبوا أو يرجعوا، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ أي: ساكتون عن بيان حججهم، آيسون من النجاة، ومن استجابة الدعاء، ومن كل خير. قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأَعْرَاف: ٩٤- ٩٥].

وهنا فائدة لا تفوتكم، وهي ما ينبغي أن يكون عليه حال السائرين إلى الله من الحذر، ومن ضرورة الانتفاع من جميع الحوادث المفرحة والمؤلمة، ومن دوام مجاهدة النفس وعدم الاغترار بالنعم، فالمؤمن إذا رأى رزق الله متتابعًا عليه أقبل على المنعم، وسأله الثبات على طاعته، وحرص على أن يكون في ديوان الصادقين معه الشاكرين لأنعمه.

وكأن الآية تقول لنا: إذا رأيت الله يوسع عليك وأنت مقيم على المعاصي فاحذر أن يكون استدراجًا لسوء خاتمة وغضب من الرب العظيم، وإذا رأيت الله يضيق عليك فاعلم أنه يدعوك إلى التوبة من ذنب، أو يدبر لك، وتدبيره خير من تدبيرك.

أخرج أحمد بسند حسن عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

وفائدة أخرى تقوم على الانتفاع من منهج القرآن في دعوة أهل الكفر ورؤوس الشر في الأرض، ولعلكم لاحظتم أنه منهج يقوم على الوعد والوعيد، والترهيب والترغيب، وذكر الجنة والنار، وعذاب القبر ونعيمه، وسوء الخاتمة وحُسْنها، وهذا التنوع فيه مراعاة لطبائع النفوس التي ينتفع بعضها بالشدة، وينتفع بعضها باللين، بل قد تتقلب النفس الواحدة على صاحبها فيحتاج إلى التخويف تارة، وإلى التحبيب تارة أخرى، ثم إن لغة الخطاب مع العاصي المستكبر تختلف عن لغة الخطاب مع العاصي المعترف بذنوبه وتقصيره، وكذلك تختلف لغة الخطاب مع الطائع المنكسر عن لغة الخطاب مع الطائع المغرور، ولا تنسوا أن السآمة لا تكون مع التنوع والاختلاف في الوعظ والإرشاد.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

انتهى أمرهم وذكرهم، واستُؤصلوا وغادروا دنياهم فلم يبق منهم أحدٌ، وانتقلوا إلى حياة أخرى لا رجعة بعدها، وحفظ الله دينه وأولياءه منهم، وحفظ الأرض والهواء والماء من شؤمهم وإفسادهم.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الحمد لله على نعمة التأييد والنصر، والحمد لله على تخليص العالمين من إفسادهم وشرورهم، والحمد لله على اليوم الذي سيأخذ كل ظالم فيه جزاءه الذي يستحق، والحمد لله على اصطفائنا وإكرامنا وتثبيتنا، والحمد لله على جريان عدله وظهور حكمته، وعلى ما أنعم به من شفاء صدور المؤمنين.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ».

يعطينا ختام الآية أملًا بأن يكرمنا الله كما أكرمهم، وينصرنا على من عاثوا في بلاد المسلمين فسادًا، بل عاثوا في الأرض جميعًا، ولا يكون ذلك إلا إذا اطلع الله على قلوبنا فرأى فيها صدقًا، واطلع على أعمالنا فرأى فيها عملًا للدين ونَصْرًا لحملته.

والآية تعلمنا أن الله تعالى هو وحده المحمود عند هلاك كل ظالم، وعند كل نصر وثبات وتمكين، وعند كل رفعة للدين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

تذكيرٌ جديد لأهل الكفر بنعم الله على الناس جميعًا، وبمعالم قدرته التي لا يقدر عليها إلا هو، تذكيرٌ يأمر ربُّنا جل وعلا نبيَّنا ﷺ أن يبلغه لقومه الذين يعيش بينهم، وكذلك هو نداء لجميع الدعاة في كل العصور بأن يذكروا به كل غافل عن الرب العظيم من أهل الكفر، ومن رؤوس النفاق والفسق والصد عن التوحيد والعبادة الخالصة.

قولوا لهم: تأملوا وأعملوا عقولكم في قيمة نعمة البصر ونعمة السمع، وتأملوا كيف يكون حالكم لو سُلبت منكم هذه النعم وأذن الله لها أن تزول عنكم، ثم انظروا في قدرة جميع معبوداتكم التي رضيتم بها وجعلتموها واسطة للرغبة والرهبة، هل تقدر في تلك اللحظات على أن تعيد لكم شيئًا من هذه النعم ؟! قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ١٧].

وانظروا فيمن يتصرف في قلوبكم وعقولكم، ومن يملك لكم الهداية والسعادة، كيف يكون حالكم لو منعكم الهدى ؟ وهل يهديكم إلا الله ؟ فاصدقوه وعظموه كما ينبغي، واسألوه الهداية والإعانة بصدق يبلغكم إياها. قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الْأَنفَال: ٢٤] .

صحيح أن الكلام جاء في معرض إقامة الحجة عليهم بأنه لا إله إلا الله، ولكنه يحمل كذلك تهديدًا لهم ووعيدًا، ويأمرهم بأن يشكروا نعم الله وينتفعوا بها خير انتفاع لئلا تذهب عنهم وهم غافلون، فيصعب عيشهم ويخسرون الدنيا والآخرة. قال جل وعلا: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المُلْك: ٢٣] .

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ انظر كيف يتعاملون مع دلائل التوحيد التي لا يملك المنصف أمامها إلا أن ينقاد ! ما أعجبه من حال ! وما أشد صدودهم ونفورهم !

انظر كيف نصرفها لهم، أي: نُبينها ونُوضحها عن طريق التنويع فيها، فتارة يرون المعجزات بأعينهم، وتارة يرونها في عظم خلق السماوات أو في الأرض، أو في أنفسهم، أو فيما حلَّ بالقرون من قبلهم؛ كل ذلك ليهتدوا وما هم بمهتدين.

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه، ويعدلون مع الله غيره.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

لا تأمنوا يا من بغيتم واعتديتم على أعظم مقام في حياتكم، وهو مقام الألوهية والربوبية، تقول الآية: قل لهم يا رسول الله ﷺ: لا تأمنوا عذاب الله أن ينزل بكم، واعلموا أنه قد يأتيكم خُفية وفجأة وبغتة وأنتم لا تشعرون أنه جاء، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٤]، وقد يأتيكم العذاب جهرة، أي: ظاهرًا عيانًا وقد جاء قبله علامات وأمارات ترونها، وتدركون أنه نازل بكم. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٧].

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إذا نزل العذاب بكم، أهلك الله الظالمين، وحفظ الصالحين المصلحين، وتمت كلمته سبحانه بالحق والعدل.

والظالمون هم الذين ظلموا أنفسهم وأهليهم ومجتمعاتهم بالشرك والكفر، وهم الذين عاندوا فكان وبال صنيعهم راجعًا عليهم.

والمطلوب: لا تقيموا على الظلم ولا تصروا عليه، ولا تكونوا سببًا لهلاككم وهلاك أتباعكم، فإنه الشقاء وربي.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أنكر أهل مكة رسالة محمد ﷺ، وجعلوا يصدون عن دينه ويحاربونه بما أوتوا من قوة ومكر وخداع، فكان من سوء صنيعهم أنهم جعلوا يقترحون معجزات وآيات يريدونها على وفق أهوائهم، ويقصدون بها إظهار عجز النبي ﷺ أمام أصحابه وأمام أتباعهم عن إثبات رسالته ونبوته، ويقصدون إيهامهم بأن استجابتهم للنبي ستكون بعد أن يلبي لهم كل ما طلبوه، ولكنهم ما دَرَوْا أن أصحابه صدَّقوه وانعقدت قلوبهم على حبه ونصرة شريعته، وأن وظيفة الأنبياء والرسل ليست تحقيقَ مطالب أهل الشرك والكفر بإظهار العجائب، ولا السيرَ بحسب رغباتهم.

يخاطبهم ربنا ويقول لهم: أرسل الله تعالى رسله إلى من قبلكم، وأرسل محمدًا ﷺ إليكم وإلى من بعدكم ليبشروا وينذروا، أما البشرى فإنها تكون بالغفران والنعيم المقيم في جنات أعدها الله لمن أطاع الرسل فيما جاؤوا به، وأما الإنذار فيكون بالعذاب والسخط والنار لمن كذب الرسل فيما جاؤوا به، وإليكم البيان:

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ثم أصلح نفسه وأهله ومن استطاع ممن حوله، وأقام الدين بقوة، أقول: مثله لا يَخاف مما ينتظره بعد موته من إقبال على الله ووقوف بين يديه، ولا يحزن على ما تركه وراءه من الأهل والعيال والمال، فالله وكيل عليهم وحافظ لهم.

ومن أهل العلم من قال: لا يخاف من عذاب الله في الدنيا والآخرة، ولا يحزن في الدنيا ولا في الآخرة على شيء فاته، فالإيمان خير عاصم وحافظ في الدارَين. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أما الذين كذبوا بما أمرهم الله أن يؤمنوا به، فهؤلاء ينالهم العذاب ويباشرهم بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله، ثم الإصرار عليه حتى الموت.

ولا يفوتكم أن تكذيبهم هذا يعني أنهم سيرتكبون الفواحش، وينتهكون المحرمات، وسيحاربون الدين الصحيح، فكان جزاؤهم عسيرًا.

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠ ﴾

كيف يجهل أهل الكفر حقيقة الإلهية، ويطلبون من نبينا ﷺ ما لا يقدر عليه إلا الله من تفجيرِ الأنهار والينابيع في الأرض، وإيجادِ البساتين والجنات، وإسقاطِ السماء عليهم قطعًا، وغير ذلك ؟ وكيف يعترضون على الرسالة ويخدعون من حولهم بأن لازم نبوته أن يخرج من حقيقته البشرية ويأتيهم بجميع ما يشتهون ؟

قل لهم يا رسول الله ﷺ: لا تظنوا أن مقاليد السماوات والأرض بيدي، وأنني أملك شيئًا منها، وأن النفع والضر من عندي، وأنني قادر على تحقيق شيء مما تطلبون، إنما أمري وأمركم بيد خالق السماوات والأرض سبحانه.

قل لهم: خزائن الله من الرزق والعلم والغيث وتصريف الرياح إنما هي بيد الله وحده، ولست أنا من يتصرف في شؤون المخلوقات وأرزاقها، ولا أملك إلا مثل ما يملكه غيري من البشر بإذن الله. قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ [الحجر: ٢١]، وقال الله تعالى في معرض الرد على أهل النفاق: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٧].

أقول: ومن غرائب ما رأيناه في تاريخنا القديم والمعاصر، تلكم الطوائف التي يدعي المنتسبون إليها بأن فيها من مشايخهم وأوليائهم ومعصوميهم من يتصرف في هذا الكون، ويملك للآخرين قضاء الحوائج والنفع والضر، ولا أطيل الكلام حولهم ولكن احذروهم وكفى.

﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ قل لهم: لا يعلم غيب السماوات والأرض وما فيهما من أمم وحياة وآلاء إلا الله وحده. قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل:٦٥].

سأل أهل الكفر نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن حقيقة الروح، وعن وقت الساعة، وعن وقت نصر الله له وإنزال العذاب بهم، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله. قال سبحانه: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

عَلَّم الله تعالى عباده ما يلزمهم، وأطلعهم على ما ينفعهم، وخصَّ الملائكة بشيء من علمه مما لا يطلع عليه البشر، واصطفى من خلقه عبادًا فأوحى إليهم واختصهم بما اختصهم به، واستأثر بعلمه أمورًا لا يعلمه إلا هو سبحانه. قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وقل لهم: لست مَلَكًا من ملائكة الله التي تطير وتنتقل في هذا الملكوت العظيم، ولست ملكًا لتطلبوا مني ما اختصهم الله به من قدرات.

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ إنما أنا عبد لله، ووظيفة العبد الطاعة، ولقد اصطفاني ربي وشرفني وكلفني بأن أبلغ رسالته بأمانة وإخلاص وصدق، وهو ما أواصل فيه الليل بالنهار.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ قل لهم: لا يستوي حال من اتبع الحق وهُدي إليه وعاشه بجوارحه وجوانحه، وحال من ضل عنه وترك الانقياد له وعادى حملته. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرَّعْد: ١٩].

الأعمى هو الذي كفر بمن آلاؤه ونعمه وآياته تملأ الآفاق، وهو الذي لم يفقه غاية خلقه وإيجاده، ولم يفرق بين الحق والباطل والتوحيد والشرك، والتبست عليه المعاني الوضاحة، والفهوم الظاهرة.

أما البصير فهو الذي انتفع بنعم الله وآياته، وخضع للرب العظيم، وصرف إليه اعتقاده وعبوديته بصدق وثبات.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ختام للآية يحمل إنكارًا عليهم في طريقة تفكيرهم، ويحمل تحريضًا لهم ليطلقوا العنان لعقولهم لعلها تفقه عن خالقها، ولعلها تتفكر في هذا الخلق العظيم، وتتدبر في كل ما حولها فتنقاد.

﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١﴾

أنذر به، أي: بالقرآن الذي أوحاه الله إليك، فإنه لا ينتفع به إلا من آمن باليوم الآخر بما فيه من بعث وحشر وحساب.

أنزل الله هذا القرآن، وجعل فيه مواعظ للناس جميعًا، وأخبرنا سبحانه أنه لا ينتفع بهذه المواعظ إلا أهل التقوى، ولا يُقبل عليها إلا أهل الخشية من الله والخوفِ من سخطه وعذابه، فهم الذين تعيش أسماعهم وقلوبهم معها، وهم الذين يسألون الله بصدق أن تكون لهم نورًا في حياتهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

ويدل خوفهم من يوم الحشر والعرض والحساب على أنهم موقنون بحصوله وقدومه، وأنهم يفهمون حقيقة الرسالة وما تريده منهم، ويجعلهم يبذلون الأعمال الصالحة ويسارعون فيها، ويتحرَّون مواطن مرضاة الله عنهم، ويجتنبون بسببه الحرام وإن كانا مُحَبَّبًا إلى قلوبهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:١١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨].

أما أهل الشرك فلا ينتفعون بالموعظة والتذكرة لأنهم لم يؤمنوا بأنه يكون بعد الموت حساب وجنة أو نار. قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ٦]، وقال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يؤمن أصحاب القلوب الموقنة بلقاء الله أن الله تعالى هو مولاهم، وأنه لن ينفعهم في أرض المحشر والحساب، ولن يجيرهم من سخط الله وعقوبته أحد وإن كان صديقًا حميمًا، أو قرابة محبوبة ومخلصة، ولذلك تراهم يلتزمون باب التوحيد والعبودية في الدنيا، ويتوكلون على الله ويستعينون به وحده ليكون حافظًا لهم في تلك الأهوال التي يفر المرء فيها من أمه وأبيه، وزوجه وبنيه، وجميع عشيرته وصحبه. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ويؤمن كذلك أهل التقوى واليقين بأن مردَّ الشفاعة إلى الله، فلن يشفع أحد لأحد إلا بإذن الله، وإلا برضاه عن الشافع والمشفوع له، كما أشار إلى ذلك قول الله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقول الله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الذي يخافون أن يُحشروا إلىٰ ربهم يحملون قلوبًا نقية صافية طيبة، فاحرص علىٰ دوام تذكيرهم وموعظتهم، واجعل القرآن وما أُنزل إليك من الوحي قريبًا من أسماعهم وأبصارهم، وأخبرهم عن أحوال الناس في يوم القيامة وما ينتظرهم من أهوال بعد موتهم، فهذا أدعىٰ إلىٰ ثباتهم وتحصيلهم لتمام التقوىٰ التي تكون بها النجاة.

والتقوىٰ التي تريدها شريعتنا منا تقوم علىٰ فعل الواجبات وترك المحرمات، ودوام الازدياد من الخيرات والصالحات، وتقوم علىٰ دوامِ المراقبة للرب العظيم، وسرعةِ التوبة والإنابة إليه إذا أصاب الواحدُ منا ذنبًا، ثم سؤالِ الله الثبات حتىٰ الممات.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

تعطينا الآية هنا مفتاحًا من مفاتيح توفيق الله لنا، وتُعلمنا أن العقيدة هي التي تُنصب حولها رايات الولاء والبراء، وأن الحب والبغض للآخرين لا يكون بسبب لون أو جنس أو قوة أو ضعف، وإنما يكون لله وفي الله.

خطاب للنبي ﷺ ولجميع الدعاة ومفاتيح الخير من بعده، ولجميع من أكرمه الله بقيادةٍ أو حُسْنِ توجيه للناس وقبولٍ بينهم، يقول هذا الخطاب: لا تُبعدوا عنكم أولئك الذين جعلوا مرضاةَ الله هَمَّهم وهِمَّتهم، وارتضوا شريعته حَكَمًا ومنهاجًا لهم ولغيرهم، ونصروا دين الله وأولياءه، وعظموا خالقهم ومَجَّدوه وأثنوا عليه، ودعَوْه وعبدوه وسألوه في الغداة والعشي، أي: في الصباح والمساء كما أمر وشرع، والغداة أول النهار الذي يبدأ في الصباح، والعشي من الزوال (بعد الظهر) إلىٰ الصباح.

ثم انظروا في عظم ما تحمله قلوبهم من الإخلاص والبعد عن الرياء، فقد وصفتهم الآية بأنهم في إقبالهم علىٰ الخير يريدون وجه الله وكفىٰ، والذي يعمل العمل من أجل الله يتقن العمل، ويمضي فيه وإن ذمَّه الناس ولاموه، وإن سكتوا عنه ولم يشكروه، ونجده لا يحرص علىٰ إظهاره أمام الغير إلا بقصد الحث علىٰ الخير، ولا يبطل عمله بالمن والأذىٰ، وليس للعُجْب محل في قلبه وإن تكلم الناس عنه ومدحوه.

يا أهل الإيمان: اقتربوا من بعضكم، وكونوا جسدًا واحدًا كما أمركم ربكم، وتأملوا في حال جلسائكم واختاروا منهم للخُلَّة والصحبة من يريدون وجه الله، وهم المخلصون المواظبون على العبادة والدعوة، الذين بذلوا أموالهم وأوقاتهم وأنفسهم من أجل دين الله.

قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

يا نبي الله ﷺ: احذر أهل الغفلة وإن كانوا في ظاهرهم أقوياء وأصحابَ مال وجاه ومنصب، وإن ظننت أن دخولهم في الإسلام نافع للدعوة، احذرهم مع المواظبة على دعوتهم وتذكيرهم.

ولقائل أن يقول: وهل يُتصوَّر أن يطرد النبي ﷺ أصحابه عنه حتى تنزل الآية الكريمة وتنهاه عن ذلك؟

والجواب جاء فيما أخرجه مسلم عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِؤُونَ عَلَيْنَا (أي: لئلا يطمعوا فينا ويلغوا الحواجز بيننا وبينهم). قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ (يعني: فكَّر في الاستجابة لما اقترحوه عليه طمعًا في إسلامهم واستجابة جميع أقوامهم)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾.

وفي رواية عند مسلم "وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَالُوا لَهُ: تُدْنِي هَؤُلَاءِ". أي: ينكرون عليه اجتماعَ الضعفاء حوله وحرصَه عليهم.

وقد أورد هذه القصة عدد من أهل الحديث والتفسير بأسانيدهم، وفيها أن أشراف المشركين وسادة أقوامهم كانوا يرون التفاف الضعفاء حول نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَنِفوا من مجالسة بلال وابن مسعود وغيرهما من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ استصغارًا لهم، وكِبرًا عليهم، ولأنهم ليسوا أشرافًا، فطلبوا من رسولنا ﷺ أن يبعدهم عنه بالتمام فأبى، ثم أرادوا لهم يومًا وللضعفاء يومًا، فطمع ﷺ في إيمانهم، ومال إلى رأيهم، وهمَّ أن يفعل ويكتب لهم كتابًا بذلك، فنزلت الآية تنهاه عن طردهم، وتصفهم بأجمل الأوصاف وأحسنها، وتثني عليهم بجهرهم بإيمانهم، وإقبالهم على الطاعات، وصدقهم وإخلاصهم فيها، ورغبتهم عن الدنيا وحظوظها.

ولعلكم تستحضرون قصته ﷺ التي جاءت في سورة عبس، يوم أعرض عن عبدالله بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طمعًا في هداية كبار أهل مكة، وحرصًا على استمالة الأقوياء والتفافهم حول دعوته، فعاتبه الله وأرشده إلى ما فيه عز الإسلام.

ولقائل أن يقول: ولماذا نهاه الله عن ذلك، فلعل هداية هؤلاء الأسياد تحصل ويكون معه ما نريد من الرفعة والتمكين ؟

والجواب من أوجه:

١- دين الله تعالى في الأرض محفوظ بحفظ الله، فهو سبحانه من تكفل به، وهو سبحانه يصطفي له من عبيده من يقوم بقائمته، وهو سبحانه يشرح صدر من علم فيه الصدق والخير فيكرمه بحمله والذَّبِّ عنه. قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة الحجرات: ١٧].

٢- الشريعة لا تعتز بالطغاة القساة والمستكبرين، ولقد قدَّر الله أن يكون الإيمان والعمل الصالح مفتاحًا لعزة الإسلام والتمكين له، فكل من تسلح بهذَيْن السلاحَيْن نصره الله وأيده، ومن لم يتسلح خاب وخسر وإن كان أغنى أهل الأرض وأقواهم وأكثرهم جاهًا وعلمًا.

٣- يختلف نظر أكثر الناس في ميزان الحب والولاء عن ميزان الشريعة، فغالب الناس تتبع الأقوى والأجمل والأكثر مالًا، ويَعدُّون غير هؤلاء من الضعفاء، بخلاف الشريعة التي تكون الكرامة فيها لأهل التقوى، ولذلك كانت سيقان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أثقل في الميزان من جبل أحد، وكان بلال وعمار وسمية رضوان الله عليهم أحبَّ إلينا وأنفع لنا، ولا زالت الأمة ترضى عنهم صباح مساء، فاللهم ربنا اجمعنا بهم في عليائك.

٤- يصعب علينا أن نأمن مكر هؤلاء المجرمين، أو أن نركن إليهم بحال، فإننا لو استجبنا لهم وأبعدنا الضعفاء لخرجوا علينا بألف حيلة وحيلة، ولاعتذروا عن إيمانهم ودخولهم في الإسلام بأعذار جديدة، ولغرروا بنا وضحكوا علينا بإبعاد أهل الصدق، والتفريق بين المؤمنين، وتعليق قلوبنا بالوهم والسراب.

تأملوا كيف تتكرر حِيَل أهل الكفر في إضعاف الدعوة وإسقاط قاماتها في التاريخ القديم والمعاصر، وتأملوا كيف تتشابه قلوبهم في احتقار أهل الدين والتقوى وذمِّهم، فقد سأل

قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيهم أن يطرد الضعفاء والفقراء من حوله، فقال لهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩-٣٠]، وجاء في الآيات قول الله: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٥].

أقول: ولا زال المستكبرون في زماننا يستخفون بالمؤمنين ويسخرون منهم، ويرونهم أراذل الناس وأصاغرهم، وما دَرَوا أن ما يحمله أهل الإيمان في قلوبهم سيثمر قريبًا، وسيكونون في المكان اللائق بهم بتوفيق الله.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾

لا تطردهم لأن الطرد لا يكون إلا بسبب إساءة، وهم لم يفعلوا شيئًا يُسبِّبُ إبعادهم، ثم إنه لو قُدِّر صدور إساءة من أي طرف كان فحسابه على الله وحده، وليس للمشركين تأثير في ذلك، وليس لهم طاعة في طعنهم بالمؤمنين، وما تظاهروا فيه من النصح والحرص.

إن أنبياء الله ورسله لهم المقام الأعلى بين الناس، ولقد اصطفاهم ربنا واختصهم بالوحي والرسالة، وأوجب عليهم أن يقيموا الشريعة في الناس ويعلموهم كما أمر، ولكن حساب الناس والسيطرة عليهم ليست إليهم، ومن باب أولى ليس للناس أن يحاسبوا الرسل ويسألوهم عن تبليغ رسالة الله، فالأمر في ذلك جملة وتفصيلًا للرب العظيم. قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حملت الآية في ختامها وصفًا لمن طرد أهل الإيمان وأبعدهم، وخاطبت به نبينا ﷺ ليحذَرَ هو، وليحذرَ أهل الإيمان والدعوة من إبعاد أهل التقوى وصرفهم عن مواطن صناعة القرار والنصرة، فإننا إن فعلنا ذلك كنا من الذين ظلموا أنفسهم وعرضوها لسخط الله وانتقامه.

ووجه الظلم في ذلك أن حسابهم ليس إلينا، وأننا بفعلتنا هذه نكون قد استجبنا لأعدائنا، وتصرفنا فيما لا نملكه، وهو الظلم بعينه.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

رأى كُبَّار قريش وزعماؤها أن الذين اتبعوا نبينا محمدًا ﷺ هم ضعفاء الناس والعبيد والإماء الذين ليسوا من الأشراف والسادة، وهذا ما جعلهم يتعجبون ويقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ﴾، أي: أهؤلاء الذين اختارهم الله للإيمان مِمَّن لا يُعدُّون شيئًا بين الناس والقبائل والأمم، وهل يُعقل أن يعطيَ الله الهُدى للضعفاء والأذلاء ويتركَنا ونحن السادة والقادة، ونحن الأغنياء والأقوياء ؟ كما في قولِ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الأحقاف: ١١]، وقولِ الله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٧٣]، وهذا من سخريتهم بالمؤمنين وتهكُّمهم واستخفافهم، إذ كانوا يكثرون منها فضلًا عن إيذائهم في أبدانهم وأهليهم وتعذيبهم.

وقد قال قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هُود: ٢٧]، أي: ينظر عِلْية القوم من قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الذين آمنوا برسالته نظرة ازدراء وانتقاص، زاعمين أنهم أراذل الناس، أي: حقراؤهم وسفلتهم.

تخبرنا الآية أن مقولتهم هذه مظهر من مظاهر المدافعة بين أهل الحق والباطل، وأن الله تعالى كتب عنده أن يفتن بعضهم ببعض، أي: يختبرهم ويبتليهم بما يصدر منهم نحو الطرف الآخر، فالكافرون والمنافقون وأذنابهم تراهم يتتبعون كل حيلة ووسيلة تحول دون نشر أهل الحق للخير والهدى، والمؤمنون والدعاة إلى الله لن يسكتوا عنهم ويستسلموا لهم، ولكنهم سيدافعون عن الحق الذي يحملونه؛ لأنهم يوقنون أن الحق الذي لا تحميه القوة يبقى ضعيفًا.

ومعلوم لديكم أن الله تعالى خلق المسلم والكافر، والمؤمن والمنافق، والفقير والغني، والضعيف والقوي، والعزيز والذليل، والشريف والوضيع، والصحيح والمريض، والعالم والجاهل، وجعل سبحانه هذا التنوع في الخلق من تمام الفتنة، أي: الابتلاء والاختبار، لينظر كيف يكون حال كل واحد منهم في تعامله مع الآخر، هل يكون على منهج الشرع أم يكون مخالفًا له ؟ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "تَحَاجَّتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَعَجَزُهُمْ، (يعني: مساكينهم ومن لا قَدْر لهم عند أهل الدنيا) فَقَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمْ مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ، فَيَضَعُ قَدَمَهُ عَلَيْهَا، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ".

جاءت الآية هنا لتخبرنا عن صورة من صور هذا البلاء، مما يحصل بين كُبراء المشركين وبين ضعفاء المؤمنين، مما ينفعنا كثيرًا في علاقتنا بمن يصد عن ديننا منهم.

انظروا فيما تحمله نفوس الصادين عن دين الله، من كِبر وغرور وعُجب وكبرياء واحتقار لنا، ثم اعلموا أن هذه الصفات حالت بينهم وبين الهُدى، وجعلتهم يستمرون على الشرك هم وأتْبَاعُهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، أي: عظيم بالمال والجاه والولد.

واعلموا أنكم في مدافعة معهم حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

واستطرادًا في الوعظ الذي تريد الآيات منا أن نتعلمه، أقول: إن غالب من اتبع أنبياء الله كانوا من ضعفاء الناس، وكانت بذرة الإيمان والتوحيد والعمل الصالح تدخل إلى سويداء قلوبهم أسرع من غيرهم، ولذلك سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل أن يسلم عن حال من يتبع نبينا ﷺ ليتحقق من نبوته، فجاء في قوله كما أخرج البخاري ومسلم: "وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ"، أي: إن أول من يتبع الرسل هم الضعفاء، بخلاف الملأ الذين استكبروا وكانوا وجوه أقوامهم وسادتهم، فقد كان غالبهم يبطئ عن الاستجابة للدعوة، ولعلنا لو أعملنا عقولنا في سبب تأخرهم عن الإسلام أو صدودهم بالكلية لوجدنا أن خشيتهم على مكانتهم ومناصبهم ومصالحهم منعتهم من سرعة الانقياد، وأن الدنيا ملأت قلوبهم وفتنتهم عن التفكير بآخرتهم.

ولا تظنوا أن الضعفاء لما دخلوا في دين الله بقوا على ضعفهم، فسنن الله قد جرت بتمكينهم في الأرض لما تسلحوا بالإيمان والعمل الصالح، ولما تتبعوا سنن الله في النصر والظفر وأخذوا بأسباب ذلك.

انظروا إلى أصحاب محمد ﷺ والتابعين من بعدهم، وإلى غالب من حمل الإسلام دينًا وشريعة ومنهاجًا في تاريخنا، انظروا إليهم كيف حكموا الأرض ودانت لهم أعتى الأمم وأقواها، وكيف تزلزلت عروش الظالمين والمستكبرين وسقطت. قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أليس ربنا هو خالق الناس جميعًا ؟ وهو الذي يعلم طيب النفوس من خُبثها ؟ وهو الذي يعلم من يعرف نعمة الله عليه ويصدق في شكره ممن يجحد ويكفر ؟ وهو الذي أحاط علمه بمن يأتي النبي ﷺ حريصًا على العلم والفهم والاستقامة ممن يأتيه مستهزئًا متكبرًا ؟ والجواب: بلى، فكانت في هدايته وتوفيقه للشاكرين الصادقين الحكمةُ البالغة وإن كانوا ضعفاء أو فقراء. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وأخرج مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ».

أبطل ختام الآية شبهتهم، وأخبرنا أن هداية الله للناس في الدنيا تقوم على من علم الله فيه خيرًا، ورأى صدقه في إقباله عليه، وأن قاعدة الثواب والعقاب لا تقوم على الغنى والفقر، ولا على القوة والضعف، وإنما تقوم على الإيمان والعمل الصالح، وعند الله قد يسبق القوي، وقد يسبق الضعيف، وقد يسبق الغني، وقد يسبق الفقير، وما يجده أهل الكفر من رزقٍ وقوةٍ ليس دليلًا على تكريم الله لهم ورضاه عن صنيعهم، ولا هو جزاء لهم على عقيدتهم الباطلة وإفسادهم، وإنما هو من متاع الدنيا الذي يعطيه الله للجميع بأسبابه. قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾

خطاب للنبي ﷺ يأمره بأن يكرم أهل التقوى والإيمان وإن وصفهم أهل الكفر بأنهم ضعفاء، وألا يلتفت إلى غمزهم ولمزهم بأصحابه وحملة دعوته.

أكْرِمْ يا نبي الله من جاءك مؤمنًا بما نزل عليك من آيات القرآن، وألقِ السلام عليهم ليأمَنوا، وليشعروا بأنهم أعز الناس وأغلاهم وأرفعهم درجة، وأنهم أحب الناس إلى نبي الله ﷺ.

ما أجمله من توجيه ينفعنا في تعاملنا مع إخواننا في الله، ومع الذين يسيرون معنا في درب الدعوة والإصلاح، ومع الذين يعينوننا على الثبات في زمن المتغيرات والأهواء والشبهات.

تأملوا في كلمة "السلام" المأمور بها في الآية، والتي نطلقها ونسمعها، تأملوا في قدر السكينة التي تُدْخلها إلى قلوبنا، والطمأنينة التي تملأ جوانحنا، فنستبشر بها خيرًا ونرى شيئًا من جمال الحياة حولنا. قال الله تعالى في حق نبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وبشر المؤمنين من حولك بسعة رحمة الله تعالى، وشمولها لكل من أناب إليه ورجع، ولكل من هجر الحرام وأصحابَه وأقبل.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ، لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ».

وفي لفظ مسلم «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وأخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

ولفظة "كتب" هنا معناها أوجب، وربنا له أن يوجب على نفسه ما يشاء سبحانه، ولا يوجب عليه أحدٌ شيئًا، ولولا رحمته التي نستظل بها في الدنيا قبل الآخرة لأهلكتنا ذنوبنا وخسرنا بسببها خسرانًا عظيمًا، وإليكم بيان ذلك:

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعد الله عباده المؤمنين، وَوَعْدُه لا يُخلفه جل جلاله، أنه من عمل سيئة وهو غافل عن رقابة الله، وقد استحكم عنده الهوى، فكان وقت فعله الحرام جاهلًا بعظمة الله ورقابته، ثم أقلع عن

المعصية وندم عليها، وبادر إلى التوبة وسارع فيها، ثم أتبعها من الأعمال الصالحة ما أتبعها، من صلاة وصيام وإنفاق وبر للوالدين، وعون للمساكين والضعفاء، أقول: وعده الله أنه إذا تاب وعمل الصالحات غفر له ما كان منه، بل أبدله بسيئاته حسنات يجدها قد سبقته إلى أرض المحشر. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

ما أجمله من سياق يأتي فيه الأمر بإلقاء السلام على المؤمنين بما يحمله من سكينة وطمأنينة وأمان، ثم تأتي فيه كرامة الله لأوليائه بسعة باب الرحمة والتوبة، والترغيب في دوام رفع الهمم والعزائم.

وتأملوا هنا أن لفظة الجهالة في الآية لا تعني الجهل بحرمة هذا الذنب، وإنما تعني غلبة الهوى أو الشهوة أو الغضب حال فعل الذنب، وتشير إلى خفة العقل بالبحث عن السعادة فيما فيه الشقاء، فالمذنب جاهل بسوء العاقبة وقبح الفعل، وعظم الجراءة على الله.

ولكنه مع هذه الجهالة يسمع كلام خالقه ينادي عليه أنْ أقْبِلْ على التوبة وبادِرْ وسارِعْ، واملأ النفس بالقرآن والعلم والذّكر حتى تزكوَ وتطهر، واعلم أن لك ربًّا يغفر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين: وكما بيَّنت الآيات السابقة أحوال المشركين وتلبيساتهم وشبهاتهم، وكما ردها القرآن ونقضها وكشف زيفها، فكذلك يفصل الله الآيات في محكم كتابه، ويجعلها واضحة وضوحًا شافيًا كافيًا، مزيلًا للبس وخاليًا من الإشكال، كل ذلك لتستبين سبيلَ المجرمين، أي: لتظهر رايات أهل الحق ورايات أهل الباطل، ولتنير للعباد سبيل المجرمين الذين طغوا في الأرض وأفسدوا فيها، وليكون أهل الصدق على حذر منهم، وليجاهدوهم ويصرفوا شرورهم عن البلاد والعباد.

بينت آيات ربنا في القرآن كله وفَصَّلت وَوَضَّحت طريقةَ المشركين وسيرتَهم في الظلم والكِبر والصد عن دين الله، لئلا يشتبه حالهم علينا، وليبقى التمايز بيننا وبينهم.

واعلموا أن تفصيل الآيات وتكرار المعاني حول خصال أهل الكفر لم تتوقف غايته على التحذير منهم، بل امتدت إلى إقامة الحجة عليهم، كما في قول الله تعالى الذي سيأتي بيانه معنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، وكذا امتدت إلى دعوتهم للرجوع إلى دين الفطرة والعقل، كما في قول الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤].

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يحتاج السائرون إلى الله تعالى إلى قوة في الحق، وزيادة في البيان، ومزيد تذكير وتوجيه، ولولا ذلك لسهل على أهل الزيغ أن يضلوا كثيرًا من المتقين، فإنهم يمكرون الليل والنهار ليكفر الناس بالله ويتخذوا غير الله معبودًا لهم.

جاءت الآية لإعلان براءة النبي ﷺ من عبادة الأصنام، ولتأكيد نداء الله له وللعالمين بأن يتبرؤوا منها وممن ينصرها.

قل يا نبي الله ﷺ واصدع بالحق بين أظهر المشركين، قل لهم: نهاني ربي عن عبادة أصنامكم وجميع آلهتكم بأشكالها وأنواعها، وإني أتبرأ منها ومن الدعاة إليها، وأتبرأ من كل من لجأ إليها ودعاها وعبدها وإن كان تابعًا لا متبوعًا.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قل لهم: أنتم تعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، وأنها لا ترزق ولا تحيي ولا تميت، فلم يبق لاتخاذكم لها وتعلقكم بها إلا تفسيرٌ واحدٌ، وهو أنكم تركتم عقولكم وفطرتكم واتبعتم أهواءكم لتصلوا إلى منافع دنيوية تفنى ولا تبقى، وكذلك اتبعتم أهواءكم لتحافظوا على موروث الآباء والأجداد بزعمكم، وكذلك اتبعتم أهواءكم وعبدتم أصنامكم حسدًا وعنادًا واستكبارًا.

قل لهم: إذا جعلتكم قدوة لي، وتركت نور الله وصراطه المستقيم، فأنا من الضالين الذين ما أفلحوا ولن يفلحوا، وحاشاه أن يقع منه ذلك ﷺ.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

جاءهم نبي الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالبينات والحجج العقلية، والبراهين الحِسِّيَّة التي تثبت نبوته وتهديهم إلى الحق، ولكنهم كذبوا به نبيًّا وكذبوا بما معه من الوحي، واستعجلوا نزول عذاب الله بهم، واستخفوا بوعيد الله لهم ولم يَقْدُروا الله حق قدره.

وقالوا عن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شاعر ومجنون وساحر، ويتكلم بأساطير الأولين، ثم جاؤوا بشكل جديد من أشكال الصدود التي أظهروها أمام دعوته، فأقبلوا على نبينا ﷺ، وجعلوا يطلبون منه أمورًا ليست بمقدروه ليُتعبوه ويُظهروا عجْزه، وليُحْدِثوا في نفسه ونفوس المؤمنين من حوله شيئًا، وكذا ليَظْهروا أمام أقوامهم بأنهم أقوى حجة وعلمًا، أقول: طلبوا من نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يأتيهم بعذاب الله الذي يتوعدهم به في القرآن، كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقول الله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، وقول الله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، فجاءت الآية هنا لتربط على قلبه، وتزيدَه يقينًا إلى يقين، ولتدلَّه على ما يقوله لهم، ولترشدَه إلى بيان حقيقة الدعوة وحاملها، فالدعوة إنما هي من عند الله، وحاملها بشر مثل جميع البشر، ويقف عند ما أرسله الله به ولا يستطيع غيره، ولا يملك إنزال عذاب بقوم، وليس عنده ما يستعجلون به.

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ﴾ قل لهم: لست أنا من يُنزل العذاب بكم، ولست أنا من يملك خلق السماوات والأرض ويأمر بوقوع الهلاك، ولست قادرًا على شيء من ذلك.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ الأمر في ذلك لله أولًا وآخرًا، وهو القادر على أن يُنزل بأسه بكم، وهو سبحانه إن شاء عجَّل لكم ما سألتم، وإن شاء أنْظَركم وأجَّلكم وأخَّركم.

والله يقص الحق، أي: يقضي بالحق، ويجري قدره على مقتضاه، وهو أعلم بالحكمة في التأخير أو التعجيل.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ سبحانه هو خير من فصل في القضايا، وأعطاها حكمها الذي لا يصلح غيره، وبَيَّن فيها المُحِقَّ من المُبْطل، فإنه العليم الحكيم القدير.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

وقل لهم: لقد استعجلتم عذاب الله وعقوبته، واستهزأتم بذلك وآذيتم، ولو أن هذا العذاب بيدي لأوقعته بكم وما أخرتكم، ولانتهى الأمر بيني وبينكم.

ولقائل أن يقول: كيف نفهم هذه الآية مع الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم، وفيه أن ملك الجبال عرض على النبي ﷺ أن يُطْبَقَ على أهل مكة الجَبَلَيْن اللَّذَيْن أحاطا بهم فيُهلكَهم، فأبى ﷺ راجيًا أن يخرج الله من ذرياتهم وأصلابهم من يعبد الله ؟

والجواب أن الحديث يتكلم عن مجيء المَلَك وتخييره للنبي ﷺ في استئصال جميع أهل مكة والقضاء عليهم بالتمام، فكان رجاؤه ﷺ في صلاح ذرياتهم سببًا في ما اختاره، بخلاف الآية التي تتكلم عن قوم منهم مُتَعنتين قد وصل طغيانهم حدًّا عظيمًا، حتى طلبوا بألسنتهم منه أن يوقع العذاب، فأخبرهم أنه لو كان بيده لفعل، ولكنه بيد الحليم الصبور الذي خلقهم، وخلق كل ما حولهم، جل جلاله. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥٠-٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جعل الله جزاء الدنيا والآخرة بيده وراجعًا لتقديره، وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء من حال من خلق، وهو سبحانه يعلم الذين استحكم فيهم الظلم حتى عُدم الرجاء منهم وفيهم، فيَنْزل سخطُه على من يشاء، ويُؤخِّر عمن يشاء.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ».

وفي رواية أنه قرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

ولقائل أن يقول: ما معنى مفاتيح الغيب ؟ وكيف يكون ذلك في الأمور الخمس المذكورة؟ وهل هي على سبيل الحصر أم إن الغيوب التي لا يعلمها إلا الله كثيرة ؟

والجواب أن الله بكل شيء عليم، وثمة غيوب كثيرة يعلمها سبحانه كعلم الملائكة وعلم الجن وعلم الجنة والنار وأهوال اليوم الآخر وغير ذلك، ولكنه قد يُطْلع على غيبه من ارتضى من رسول أو مَلَك، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وذلك بخلاف الخمس المذكورة فإنه لا مطمع لأحد في أن يعلم شيئًا منها.

فالله سبحانه وتعالى يعلم متى تقوم القيامة، ولا يعلم ذلك نبي مرسل، ولا ملَكٌ مقرب، وهو الذي يعلم أقدار الأمطار، أين تنزل، وكم تكون، ومن ينتفع منها.

وربنا يعلم ما في الأرحام من جنسه، ومقدار عمره، وكيف يكون عمله، وشقي أو سعيد، وكيف يموت.

وهو الذي يعلم ما سيفعله كل واحد منا في قادم أيامه بتفاصيله، ومتى ينزل العذاب بمن كفروا وظلموا، وهو الذي يعلم أين سيموت كل واحد منا، سبحانه لا إله إلا هو. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عن أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥].

وسيأتي مزيد بيان لذلك، وحديثٌ عن العرافين والمنجمين ونحوهم بعون الله في تفسير سورة لقمان إن مدَّ الله في العمر.

والمقصود بمجيء هذه الآية في هذا السياق هو تذكير أهل الكفر والظلم بأن الله يعلم ما قلوبهم، ويعلم ما يمكرون، ويعلم متى يكون التمكين لأولياء الله ونصرهم عليهم.

وينتفع كذلك أهل الإيمان من هذه الآية بازدياد يقينهم بالله، وحسن التوكل عليه فإن وعد الله لهم سيأتيهم على النحو الذي يريده ربنا كما اقتضت حكمته.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أحاط علمه بجميع مخلوقاته، ولا يخفى عليه شيء من حالها، سواء كانت في البر أم في البحر.

علمنا أن الله تعالىٰ تجلت عظمته وقدرته فيما وصلنا إليه من علوم البحار واليابسة، ونعلم يقينًا أن ما وصلنا إليه ليس بشيء أمام خفايا البر والبحر من العجائب.

نرىٰ في هذه الأرض الجبال والتلال والمدن والقرىٰ، ونرىٰ الحيوان والنبات والمعادن، ونرىٰ في البحر أشكالًا وألوانًا من الأسماك والحيتان وأنواع المخلوقات، وكل ذلك يجري بقدر الله وعلمه وحكمته، فلا إله إلا هو.

﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ ويعلم حركات الأشجار، وكل شيء فيها بقدر عنده.

يعلم ما سقط منها ومات، ويعلم ما ينمو منها ويثمر، يعلمه وإن سقط بفعل فاعل أو وحده، وإن سقط في الصحاري والبراري، أو في الأمصار والقرىٰ، فلا إله إلا هو.

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾

ويعلم الحبات التي تكون مغروسة في أبعدِ عمق في باطن الأرض، وهي تعيش في الظلمات التي تحيط بها هناك من كل جهة.

وهو عليم بكل ثمرة وحبة وشجرة إذا يبست أو كانت رَطْبة؛ كل ذلك في كتاب مبين ظاهر معلوم ثابت عنده سبحانه لا يتغير، قد كتبه قبل أن يخلق الخلائق بخمسين ألف سنة، كما دل علىٰ ذلك ما أخرجه مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: "كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ"، وأخرج أحمد والترمذي وغيرهما عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَىٰ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ الأَبَدِ".

كتب الله في اللوح المحفوظ كل ما سيوجد، وكيف يكون حاله، ومتىٰ وكيف ينتهي، فلا إله الا الله ما أعظمه، وما أحلمه وأكرمه. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [يونس: ٦١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [النمل: ٧٥].

انظروا وتأملوا فيما تريده الآية منا، انظروا في تعظيم الرب كيف يكون في القلب بعد استحضار هذه المعاني والعلم بها، وانظروا في هذا التعظيم كيف يقودنا إلىٰ عظم المراقبة واستحضار سمع الله وبصره وعلمه، وكيف يحول بيننا وبين الذنوب والمعاصي في السِّرِّ والعلن، وكيف تهون علينا كل مصيبة قد كتبها الله من قبل، ثم انظروا إلىٰ الحياء الذي يختلج الصدور إذا تجرأ الواحد منا علىٰ ربه وعصاه وخالف أمره ونهيه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠﴾

كتب الله تعالىٰ على خلقه وفاتَيْن، أما الأولىٰ فهي الوفاة الصغرىٰ التي ننام فيها كل ليلة ثم نستيقظ في الصباح، وهي التي ذكرتها الآية هنا، وهي آية من آيات الله تعالىٰ التي تدل على أنه إله عظيم حكيم قدير.

أما الوفاة الثانية فهي الوفاة الكبرىٰ التي تكون بالموت، وفيها تفارق الروح البدن بلا رجعة، وهي التي تبدأ معها الرحلة إلىٰ الدار الآخرة.

بينت الآيات السابقة سَعَة علم الله تعالىٰ، ثم جاءت الآيات هنا لبيان عظيم قدرته جل وعلا في الأنفس والآفاق، كل ذلك لإقامة الحجة على أهل الشرك، وتذكير من قد ينتفع منهم بالموعظة، وكذلك ليهنأ المؤمنون بخالقهم ويزدادوا قوة في دعوتهم وطاعتهم.

جاء الخطاب هنا في سياق إقامة الحجة على أهل الشرك الذين يعبدون الأصنام، والذين استخفوا بخالقهم وجعلوا له شركاء، والذين أنكروا البعث بعد الموت.

تطلب منهم الآية الكريمة أن يستحضروا آيات يعيشونها صباحهم ومساءهم تدل على وحدانيته، وتُذكرهم أنه لا يملك مقاليد الليل والنهار والسماوات والأرض والأنفس والأرواح إلا الله وحده، فلماذا تشركون معه غيره ؟!

يقول الله لهم: ألستم تموتون ميتة صغرىٰ كل ليلة، ويتوفىٰ الله فيها أنفسكم ويقبضُ أرواحكم، ثم يردُّها إليكم مرة أخرىٰ حين تستيقظون ؟ ألا يعطيكم هذا دليلًا ظاهرًا وقاطعًا علىٰ قدرته سبحانه علىٰ إرسال أرواحكم في أبدانكم يوم القيامة، وبعثكم من جديد جسدًا وروحًا للحساب ؟ هل تملك أصنامكم التي تعبدونها أن تميت وتحيي ؟

إن السياق الذي نعيش في ظلاله هنا يُحيي فينا الكثير وإن كان في معرض الحديث عن أهل الكفر، ذاك أن مثل هذه الآيات تزيدنا طمأنينة إلىٰ طمأنينة كما تفعله بنا جميع آيات القرآن، وتجعلنا نستحضر ما يحصل معنا في الوفاة الصغرىٰ التي قد تكون وفاة كبرىٰ، فكم من نائم ما أفاق، بل تجعلنا نستحضر نعمة الله علينا لما يَرُدُّ علينا أرواحنا عند استيقاظنا في الصباح لنزداد من الخير والأعمال الصالحة، ولنتدارك تقصيرًا من هنا وذنبًا من هناك.

ولقد أعطتنا شريعتنا مفاتيح التعامل مع هذه المعاني، وأرشدتنا إلى دوام استحضارها لتكون خير معين لنا على تعظيم الرب والثبات على طاعته، فقد أخرج البخاري ومسلم عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا، وَإِذَا قَامَ قَالَ: الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ».

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: "إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ (يعني: طرف ثوبه الذي يلبسه)، فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ، وَلْيُسَمِّ اللهَ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا خَلَفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ (يعني: من الهوام والحشرات وما لعله يؤذيه)، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ، فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، وَلْيَقُلْ: سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبِّي بِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ". وفي زيادة عند الترمذي: "فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ".

واعلموا أن قبض الروح يحصل في المنام كما جاء في القصة التي أخرجها البخاري عن أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والتي فاتت فيها صلاة الفجر نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والصحابة وهم على سفر، وكان سبب فواتها أنهم تأخروا في استيقاظهم من النوم، فقال الصادق المصدوق ﷺ: "إِنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ".

أقول: صحيح أن الروح تُقبض في المنام، ولكن أهل العلم بينوا أن قبضها في المنام يختلف عن قبضها عند الموت، فخروجها عند الموت يكون خروجًا تامًّا وانفصالًا كاملًا، بخلاف خروجها في النوم فيكون جزئيًّا، ويبقى لها نوع ارتباط بالجسم على كيفية لا يعلمها إلا الله، ولذلك يتحرك الإنسان ويتنفس ويتكلم أحيانًا.

وهنا فائدة مهمة تنفعنا في دراستنا لعقيدتنا في عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي فائدة يذكرها أهل العلم عند تفسيرهم لهذه الآية لأنها تقرب المعنى وتجعله يسيرًا.

وتدور هذه الفائدة حول إطلاق القرآن للفظة الوفاة على النوم، يعني: نستطيع في اللغة أن نطلق على من نام بأنه توفي، ونعني بذلك الوفاة الصغرى، وهذا ينفعنا في تفسير الوفاة في قول الله ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فقد استدرك بعضهم على الآية التي في سورة آل عمران، وقال: كيف توفى الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ،

ونحن في عقيدتنا نقول: إن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يمت، بل رفعه الله إلى السماء ؟ وأنه سينزل قبل قيام القيامة ليقتل الدجال والخنزير، ويكسر الصليب؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧- ١٥٨].

والجواب عند جمهور المفسرين أن المقصود بالوفاة هنا النوم، أي: ألقى عليه النوم ثم رفعه إلى السماء، لأنه من معاني الوفاة النوم، فلا إشكال في الآية.

وفي الإجابة عن تقديم لفظة الوفاة على رفع نبي الله عيسى إلى السماء أوجه أخرى، ذكرها أهل العلم والتفسير، وقد ذكرتها في تفسير سورة آل عمران عند قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عِمْرَانَ: ٥٥].

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ كما أن الله تعالى هو الذي يتوفانا بالليل، فكذلك يعلم سبحانه ما كسبنا من الأعمال في النهار، فَعِلْمُ الله قد أحاط بجميع خلقه في ليلهم ونهارهم، ولا يسع أهل الكفر بعد تذكيرهم بهذا أن يعدلوا بالله شيئًا، ولا يسعنا نحن كمسلمين إلا أن نراقب الله في جميع أحوالنا من سر وعلانية، وليل ونهار، وغضب وفرح، وسكون وحركة. قال الله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرَّعْدِ: ١٠].

ولكم أن تتأملوا في استعمال لفظة ﴿جَرَحْتُم﴾ في التعبير عن أفعالنا في نهارنا، مع العلم بأن الجَرْح هو تمزيق الجلد بآلة حادَّة كالسكين والظُّفر ونحوهما، وكأن أعمالنا تحتاج إلى مزيد عناية ومراقبة لئلا تكون لنا كالجرح الذي يسوؤنا، ولقد قُرنت لفظة الجرح في آية أخرى بفعل السيئات لتدل على سوء منقلب أصحابها في الدنيا والآخرة، وليكون فيها تحذيرٌ أظهر للمؤمنين، وتهديدٌ أعظم للمشركين. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: ثم يبعثكم في النهار ويوقظكم من منامكم ليقوم كل واحد من الناس بقضاء حوائجه، وأداء واجباته حتى يأتيَه أجلُه المُسَمَّى، وهو انتهاء ما كتبه الله له من العمر بالموت، فيأتيه الموت وتقوم قيامته الصغرى، وتنتهي حينها قصته في الدنيا وتبدأ رحلته إلى الآخره. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزُّمَرِ: ٤٢].

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم تَرْجعون إلى الله بعد وفاتكم، وتقوم قيامتكم الكبرى التي وعدكم ربكم بها، والتي سيخبركم فيها عن كل خير أو شَرٍّ قدمتموه، وسيجزي من أحسن جنةً وإحسانًا، ويجزي من أساء جحيمًا وخسرانًا.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾

أقترح على من يعيش مع هذه الآيات ويتدبرُها أن يتخلى عن شواغل الدنيا ما استطاع، وأن يسعى في الانتقال بعقله وروحه وقلبه إلى ملكوت السماوات والأرض التي استطرت الآيات والسياق القرآني ببيان ما فيه، فالآيات تريد منا أن تتحقق في قلوبنا خشية الرب، والانقيادُ له بجوارحنا دون تباطؤ أو كسل أو خوف أو حزن، وكأنها تريد منا أن نمضي إليه مستمدين قوتنا منه وراجين فضله ونعيمه وجنته.

سبحان من قهر كلَّ شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كلُّ شيء، ونفذت إرادته ومشيئته في كل شيء، وهو العالي بذاته وقدرته على كل شيء.

إن المؤمن الذي يعيش مع هذه المعاني يمضي في طريقه الذي اختاره بدون خوف من سطوة ظالم، أو إيلام عدو، أو سخرية معاند ومستهزئ، والسبب في ذلك أن معه إلهًا عظيمًا قاهرًا حافظًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ الحَفَظة الذين يرسلهم الله لحفظنا هم من الملائكة الذين يتعاقبون فينا ليلًا ونهارًا، وإرسالهم نعمة كبيرة من نعم الله، يعيش معها وفي ظلها من علم بها واستحضرها ورآها في حله وترحاله.

وهذا الحفظ له صور متعددة دلت عليها نصوص شريعتنا:

فمن الحفظة من يحفظ بدن الإنسان من الأذية والهَوامِّ، وشرور الإنس والجان، كما حفظ الله المؤمنين في بدر، وكما في حديث حفظ من صلى الفجر في جماعة فلا يصل إليه من الأذى إلا ما يأذن الله به، كما أشار إلى ذلك قول الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرَّعْد: ١١]، أي: له ملائكة يحفظون مما كتبه الله وقدَّره من الأذية، أو يحفظونه بأمر الله، وهذا على رأي عند أهل التفسير في فهم هذه الآية.

ومن الحفظة من يحفظ أعمال العباد من خير وشر، ويحصيها ويسجلها، ولعله هو المقصود هنا لأن الآية جاءت في معرض تهديد أهل الكفر وتحذيرهم، كما دل على ذلك قول الله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقولُ الله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧- ١٨]، وقولُ الله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ -١٢].

وجاء في حق حفظ أعمال المؤمنين، وطيب شهادة الملائكة لهم ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ".

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ يكتب الحفظة أعمال كل الناس، ويداومون على ذلك حتى تأتي سكرة الموت فتتخلى عنه، وتُطوى الصحف ويمضي الناس إلى آخرتهم بأهوالها.

يأتي الموت، أي: يأتي وقته، ويحين أجله، ويكون معه الاحتضار والسكرات، ثم تتوفاه الملائكة التي وكلها الله بذلك.

واعلموا أن الله تعالى هو الذي يتوفى الأنفس، وقد وكَّل بهذه الوفاة ملكًا يُعرف بملك الموت، وجعل له أعوانًا من الملائكة تُخرج الروح من الجسد، ليقبضها ملك الموت إذا وصلت إلى الحلقوم، ثم تُقبض الروح منه وتسير بها الملائكة الموكلون إلى أعلى عليين، لتبقى بعد ذلك في حياة البرزخ مع أرواح المؤمنين إذا كان مؤمنًا، أو تسير بها إلى أسفل سافلين لتبقى مع أرواح الكافرين إذا كان مشركًا، إلى أن يُنفخ في الصور وتقوم الخلائق من قبورها لمشهد العرض على الله.

ومن هنا نفهم لماذا جاءت لفظة التوفي في القرآن منسوبة إلى فاعل الوفاة الحقيقي تارة، وهو الله كما مر معنا في قول الله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمَر: ٤٢]، وجاءت كذلك منسوبة إلى ملك الموت تارة أخرى كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وجاءت هنا في الآية منسوبة إلى رسل الله من الملائكة.

أخرج أحمد والنسائي وابن ماجه واللفظ له، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ، قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ (وهو الماء الحار)، وَغَسَّاقٍ (الشراب الكريه ويكون من القيح والصديد)، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَلَا يُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَيُرْسَلُ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ".

﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ تقبض الملائكة الروح في الوقت الذي أُمرت به، وتسير بها إلى قدرها دون أن تفرط في حفظ هذه الروح أو تُضيِّعَ شيئًا مِمَّا وُكِل إليها فيها.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾

ثم ترجع الخلائق كلها إلى مولاها الذي بَرَأَها من العدم، وتقف بين يدي مولاها الذي لا مولى لها غيره، وتسير إلى حكم الله من نعيم أو عذاب. قال الله تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٧]، وَقَالَ جل وعلا: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

هل تأملتم بلاغة وصف الله لذاته بأنه المولى الحق، أي المولى الذي نفذت في أهل الكفر مشيئته، وعلت فيهم كلمته وعلا قَدَرُه، وهو المولى الذي لا تنقطع ولايته عمَّن أحبهم وأحبوه، وعمَّن حفظهم وعبدوه، وعمَّن رضي عنهم وبذلوا له كل ما يستطيعون، بخلاف الأضداد والأمثال من أصنام الحجر، وممن اتخذهم أهل الكفر والفسق أولياء من أصنام البشر، لقد انقطعت كل وِلاية ظنوها نافعة.

كان رؤوس الشر والكفر والظلم والفسق يوهمون أتباعهم في الدنيا بأنهم يملكون من الأمر شيئًا، وأن النفع والضر بيدهم، وأنهم لن يخذلوا من أطاعهم يومًا ما، فإذا كان يوم القيامة تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا، وعلت أصواتهم بالحسرات والندم، وعلموا حينها أن الله مولى الذين آمنوا وأنهم لا مولى لهم.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ القضاء يوم القيامة لا يكون إلا لله، وهو مالك يوم الدين، وهو سبحانه أسرع من يحاسب فلا يتأخر حسابه وجزاؤه، وكيف يتأخر وهو الذي أحصى كل شيء عددًا، والعالم بأحوال خلقه، والحفيظ على أعمالهم صغيرها وكبيرها.

صحيح أن الآية جاءت في معرض بيان حال أهل الكفر وتهديدهم، ولكنها تحمل كذلك بشرى للمؤمنين بأن الله تعالى سيبلغهم المقام الأعلى، وسيعطيهم ما وعدهم به بعد حسابه لهم، وهو أسرع الحاسبين، فالمسرَّة لهم عاجلة كحال العقوبة لأعدائهم.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾

قل يا محمد ﷺ لقومك الذين يعدلون مع الله غيره من الآلهة، وخاطبهم بما لا مهرب لهم منه، واسألهم عمن ينجيهم في مواطن الهلاك، ومن الذي يفزعون إليه إذا انقطعت بهم السبل في ظلمات البر والبحر، وكانوا حائرين فيما يفعلون وهم يخشون الهلاك وينتظرونه ؟!

وظلمات البر هي التي تكون في الليل، ويخاف السائر فيها من ضياعه في الطريق، ومن تعرضه للأذية، وكذا الأمر مع ظلمات البحر التي يخاف السائر فيها من الغرق والضياع والعدو.

﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ كانت قلوب أهل الكفر في حال الرخاء والسعة متعلقة بمعبوداتها من أصنام البشر والحجر، وكانت لا تلتفت إلى خالقها إلا قليلًا، ولكن أصحاب هذه القلوب إذا انقطعت بهم الأسباب وأيقنوا بالموت والهلاك تذكروا خالقهم الذي كانوا يشركون معه، وفزعوا إليه منيبين، وأفردوه بالدعاء تضرعًا، أي: تذللًا، وأفردوه خفية، أي: دعوا ربهم سرًّا في نفوسهم.

والجمع في الدعاء بين التذلل وبين إخفائه علامة على أن قلوبهم لم تتعلق في هذه اللحظة بغير الله سبحانه.

ثم إنهم يعاهدون الله في دعائهم لئن أنجاهم من الهلاك ليكونُنَّ بعد النجاة من الشِّدَّة من أصدق المعترفين لله بهذه النعمة ومن الشاكرين له عليها، وليُقْبِلنَّ على دينه الذي ارتضى وأمر، وليُخْلِصُنَّ له في الرغبة والرهبة حال السعة والرخاء كما أخلصوا هنا.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يعلم الله حقيقتهم وما طُبعت عليه نفوسهم وقلوبهم من العداء للدين، ويعلم الله أن الصدق عليهم عسير، وأن الوفاء بالعهد والوعد ليس من شيَمهم.

قل لهم جوابًا لا يستطيعون غيره، قل لهم: ليس غير الله يقدر على حفظكم ونجاتكم، ولكنكم بعد النجاة سترجعون إلى شرككم لأنكم أمنتم، وستركنون إلى آلهتكم التي كفرتم بها يوم أصابكم ما أصابكم، وستحلفون بحياة أوثانكم التي أيقنتم أنها لا تملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

وهذا حالهم وحال صنف من أبناء المسلمين يتشبهون بهم، وتراهم يسارعون في التوبة والأوبة إذا أحاط بهم البلاء، وأصابهم العجز، وأيقنوا بالهلاك، وينادون في ظلمات الليل وفي وضح النهار على خالقهم يطلبون العافية والنجاة، ويعاهدونه على الاستقامة وترك المحرمات، ثم يرجعون إلى سابق عهدهم، ويسقطون في بحر الشهوات والشبهات، وينسون عهد الله إذا زال الكرب عنهم.

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أذكركم بالفوائد الوعظية التي نستحضرها مع تِكرار لفظة "قل" في السياق القرآني هنا، فالخطاب للنبي ﷺ، والمطلوب منه أن يخاطب قومه الذين كذبوا به، وتِكرار لفظة "قل" يدل على طلب أن يكون قويًّا في دعوته لهم، واثقًا بما عنده، قريبًا منهم، مشفقًا عليهم، يدعوهم مرة بعد مرة، ويأتيهم بالحجة بعد الحجة، ويخوفهم ويرغبهم، ويجتهد في الوصول إلى مفاتيح قلوبهم وعقولهم لعلها تُقبِل.

قل لهم: لماذا ترجعون إلى شرككم بعد أن نجاكم الله، وبعد أن أعطيتم العهود والمواثيق على السمع والطاعة ؟ ألا تخافون بأس الله وانتقامه منكم ؟ ألا تخشون غضبه الذي إن حلَّ بكم ما أفلحتم أبدًا ؟

ألا تعلمون أن الله تعالى قادر على أن يبعث عليكم عذابًا يأتيكم من فوقكم لا يُبقي منكم أحدًا، كالصواعق والريح والطير الأبابيل التي ترجمكم ؟

ألا تعلمون أن الله تعالىٰ قادر علىٰ أن يبعث عليكم عذابًا من تحت أرجلكم لا يُبقي منكم أحدًا، كالزلازل والخسف والطوفان ؟

ألا تعلمون أن الله تعالىٰ قادر علىٰ أن يلبسكم شيعًا، أي: يخلطكم فرقًا وجماعات فتضطرب أموركم، ويزول الأمن، وتحل الفوضىٰ ؟

ألا تعلمون أن الله تعالىٰ قادر علىٰ أن يذيق بعضكم بأس بعض، أي: يسلط بعضكم علىٰ بعض بالعذاب والقتل وألوان الشرور، ويجعلكم طوائف تتناحر فيما بينها وتتقاتل ؟

انظروا في هذا الخطاب الرباني كيف يرتفع مع أهل الكفر في لغته وطريقته، ثم انظروا في قلوب المؤمنين إذا عاشوا مع مثل هذه الآيات كيف يكون حالها، هل تمر قلوبهم علىٰ الآيات مرور الكرام لأنها لا تعنيها ؟ أم تتأولها في نفسها وتتعامل مع الخطاب الرباني كأنه موجَّه لها ؟

والجواب يأتيكم في سيرة نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يوم نزلت هذه الآيات، فإنها لما نزلت بلغت مبلغها من قلب النبي ﷺ، وكان يعيش معها علىٰ أنها خطاب من الله تعالىٰ لجميع أمته، فكان يرجو الله أن يحفظنا من الاستئصال والاستبدال، وأن يحفظنا من التناحر والفرقة. أخرج البخاري عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «لَمَّا نَزَلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قَالَ: هَاتَانِ أَهْوَنُ أَوْ أَيْسَرُ (يعني التفرق وحصول التقاتل بينهم أهون من الاستئصال)».

والمتتبع لسيرته ﷺ يجد أنه كان يدعو الله تعالىٰ لأمته بأن يحفظها من الزوال، وأن يجمعها علىٰ قلب رجل واحد ويبعد عنها الخصومة والفجور فيما بينها، فاستجاب الله له وحفظ أمته من الاستئصال، ولكنه سبحانه لم يستجب له في دعائه بأن لا تتقاتل أمته فيما بينها ولا يكون بينها فتن، بل جعلها جل وعلا عقوبة عاجلة تراها أمته إذا حادت عن منهج الله وما أمرها به. أخرج مسلم عن عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ (وهي قُرىٰ بظاهر المدينة)، حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: "سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا (يعني: لا يهلكها بالقحط والجدب العام والجوع)، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا".

وفي رواية عند أحمد والنسائي: "وَسَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْنَا عَدُوًّا مِنْ غَيْرِنَا (يعني: عدوًّا يقضي على جميع المسلمين)، فَأَعْطَانِيهَا".

ولقائل أن يقول: ولماذا كان النبي ﷺ يستعيذ من نزول العذاب مع أن التهديد والوعيد إنما كان لأهل الكفر وليس لأهل التوحيد والإيمان ؟

والجواب أن العذاب إذا نزل بأمة أهلكها جميعًا، ثم يُبعث الناس على نياتهم وأعمالهم للحساب والثواب والعقاب، ولذلك لزم أهلَ الدعوة أن ينهوا عن المنكرات على الدوام، وأن لا يتخاذلوا عن سلوك طريق أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، وطريق صحابة محمد ﷺ ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولزمهم أن يأخذوا على أيدي أهل الظلم فيردعوهم عن ظلمهم، ويأخذوا على أيدي أهل الفسق فيمنعوهم من المجاهرة بمعاصيهم والإصرار عليها، لأن شؤم الحرام يُذهب الخير عن الجميع. قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وأخرج البخاري ومسلم عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ».

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ تصريف الآيات، أي: تبيينها وتوضيحها وتنويع الخطاب فيها، ولعلهم يفقهون، أي: يتدبرون ويفهمون عن الله مراده ومطلوبه وما خُلقوا لأجله.

وهذا تهديد لهم وتخويف، بل هو تهديد لنا وتخويف لئلا نتشبه بهم، أو نكون مثلهم، أو نتكل على سعة رحمة ربنا فنسرف على أنفسنا بفعل الحرام، والأكل منه، والدعوة إليه، والسكوت عنه.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾

أرسلك الله إلى قومك الذين عشت معهم من صغرك، وعرفوا نسبك وأمانتك وطيب خصالك، وظهرت لهم الآيات الكثيرة على صدق نبوتك، وجئتهم بالقرآن العظيم الذي جاءهم بلغتهم، ولكنهم كذبوا به وبما فيه من الهدى والبيان، ولم يؤمنوا به مع أنه الحق الظاهر البيِّن الذي ليس بعده حق.

﴿قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ قل لهم: لست موكَّلًا بكم ولا حفيظًا عليكم، ولا مدافعًا عنكم أو ناصرًا لكم، ولا أملك قلوبكم كما لا أملك حسابكم، فمن شاء منكم أن يؤمن فله السعادة في الدنيا والآخرة، ومن اختار طريق الضلال كان من أهل الشقاء والخسران في الدنيا والآخرة.

قل لهم يا نبي الله ﷺ: إنما عليَّ البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، والموعد بيننا في يوم لا يظلم الله فيه أحدًا. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

كل ما أنبأكم به القرآن وأخبرتكم به من الوحي من وقوع العذاب بكم إن بقيتم على الكفر، ومن مجيء يوم القيامة وحسابكم، أقول: لكل نبأ من هذا مستقر، أي: نهاية سيحصل عندها الموعود به. قال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٨].

وسوف تعلمون حينها من الصادق ومن الكاذب، ومن السعيد ومن الشقي، ومن المؤمن الحق ومن الكافر الكذاب؛ أيُّ تهديد ووعيد هذا.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾

تحمل هذه الآية قاعدة شرعية عظيمة، وتوجيهًا ربانيًّا يغفل عنه كثير من أبناء الدعوة والملة، وهي قاعدة تحفظ على المسلم دينه، وتحفظ عليه سمعه وبصره ولسانه، وتحفظ كذلك قلبه وعقله عن حصول الألفة مع أهل الباطل، وتوجهه إلى ضرورة وقوع التمايز عنهم، وهذا مقصد طفحت نصوص الشريعة في الدلالة عليه وتأصيله.

يخاطب الله تعالى نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والمطلوب في هذا الخطاب أن ينتفع منه كل من بلغه وقرأه وفهمه، يخاطبه ويقول له: إذا رأيت أهل الكفر والشرك يقعون في دين الله وآياته استهزاءً وتكذيبًا وانتقاصًا فأعرض عنهم وقم من مجلسهم، ولا تشاركهم أو تنتبه لهم، واحرص على هذا حتى يعلموا كراهتك لحديثهم وكلامهم ومجالستهم فيذهبوا للحديث في كلام آخر لا يحمل هذا الكفر والاستهزاء.

ويظهر من كلام أهل العلم في الآية أن صنفًا من أهل الكفر كانوا زمن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يطعنون في دين الله وآياته بإيراد الشبهات وطلب مزيد من المعجزات ونحو ذلك، ويظهر كذلك أن نبينا ﷺ كان يجالسهم حرصًا منه على دعوتهم وتأليف قلوبهم، ويظهر كذلك أن مجالستهم إذا كانت تحمل إقرارًا لهم على باطلهم، أو كان فيها استئناس لهم واطمئنان بمخالطتهم، فهذا محظور في شريعتنا ومنهي عنه أشدَّ النهي.

وقد يفعل أحدنا ذلك ويجالس أهل الفسق وهم مقيمون على فسقهم، يجاهرون به ويدافعون عنه، وقد تقوم مجالسهم على الطعن في الآخرين والتحريش بين الناس، أو تقوم على سماع المعازف وكلام الغيبة، أو تقوم على النظر إلى مَشاهِد الحرام القائمة على كشف العورات والاختلاط بين الرجال والنساء ومقدمات الزنا، أو تقوم على الغمز واللمز بالصحابة والعلماء، وبالدعاة والداعيات، وباللباس الشرعي والجهاد، وغير ذلك مما نراه في مجالس بعضهم. قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وهنا فائدة تخصُّ كلَّ من يتساهلُ في مجالسة أهل الفسق والفجور الذين يأنسون بسماع الحرام، ويتكلمون به وينظرون إليه، ويعيشونه بكل جوارحهم، فهؤلاء هم أهل الغفلة الذين يسرقون الإيمان من قلب من يَسعدُ بهم، وتراه لا يخرج من مخالطتهم إلا وقد ذهب الحياء من الله عن جوارحه، وماتت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عنده، بل قد يصل الحال به إلى أن يصبح رأسًا في المنكر، والأخطر: أن يراه معروفًا.

هؤلاء: نغضبُ لله ودينه ونغادرُ مجالسهم، ونجتنبُ مؤانستهم لأنها تفضي إلى مشاكَلتِهم وتقليدِهم، ونوصلُ لهم كلمة الخير بالحسنى لعلهم يرشدون. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ (وهي آلة من الجلد ينفخ بها الحِداد على النار)، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ (أَيْ: يُعْطِيَكَ مَجَّانًا)، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ (أي: تشتري)، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً".

أخرج أحمدُ والترمذيُّ عن عمرَ بن الخطاب وجابرِ بن عبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بسند حسَّنه جمع من أهل العلم، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: "وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلَا يَجْلِسْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا بِالخَمْرِ".

والآية يمكن الانتفاع منها كذلك في التحذير من مجالسة رؤوس أهل البدع والضلال، والذين يعبثون بشرع الله ونصوص الوحي ليخدموا بذلك ضلالاتهم وافتراءاتهم على هذه العقيدة وعلى هذا الدين.

ويمكن الانتفاع منها في التحذير من الركون إلى أهل الظلم الذين يأكلون حقوق الناس ويعتدون على حُرُماتهم، والذين عذَّبوا أولياء الله وضيَّقوا عليهم دعوتهم، والذين عاثوا في أرض المسلمين فسادًا وإفسادًا.

وفي فقه التعامل مع هؤلاء جميعًا، أقول: اعلموا أن الواجب على أهل الصدق مع الله هو الإنكار عليهم باليد أو باللسان، وقد نجد من أهل العلم والدعوة من يجالس هؤلاء ليدافع عن دين الله، ويرد عليهم شبهاتهم، ويخفف من شرورهم وتأثيرهم على الأجيال، والأمر في ذلك واسع، بخلاف ما لو عجز أهل التقوى عن مدافعة هؤلاء بالفعل أو القول فالواجب هو مغادرة مجالس الشياطين وعدم المكوث فيها. قال الله تعالى في حق التعامل مع أهل النفاق قاتلهم الله: "أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً" [سورة النساء: ٦٣]، وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يسأل سائل: ولماذا ندعوهم إلى الله ونذكرهم بالخير ؟ ولماذا نهجر مجالسهم إذا أصروا على كفرهم وفسقهم ؟ ولماذا نداوم على وعظهم وإرشادهم مع أنه يغلب على ظننا أنهم لن يستجيبوا ؟

والجواب يأتي في هذه الآية التي تعلمنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له فوائد متعددة، وأن القلوب بيد الله لا بأيدينا، وأن الله تعالى هو من يحاسب أهل الكفر على كفرهم ولسنا نحن، كما أننا لا نُحاسَب على إصرارهم على الكفر بعد دعوتهم، ولا نُحاسَب عن سوء اعتقادهم وخوضهم وصنيعهم، وإنما علينا البلاغ والتذكير، وإقامة الدين فيهم كما أمر الله وشرع.

تخبرنا الآية بأننا نملك دعوتهم والسعيَ في هدايتهم، ونملك أن نعينهم على ترك الباطل وهجرانه، وتبين لنا غاية هذا الوعظ والإرشاد، وهي التذكير وإحياء ما في القلوب من خير وفطرة سليمة، وما يدريك لعل الذكرى تنفعهم فيهتدون ويكونون من المتقين، أو قد تنفع أفرادًا منهم ولو بعد حين، أو قد توقفهم عن الخوض في آيات رب العالمين لعلمهم أن ثمة من يُنكر.

يا ورثة الأنبياء: الزموا باب دعوة أهل الكفر والفسق، وخوفوهم بأس الله وغضبه، وحذِّروهم مما ينتظرهم إذا أصروا على ما هم عليه، واحرصوا في خطابكم معهم على أن لا تتألَّوا على الله، وتظنوا أنفسكم أصحاب الجنة والنار، وعلى أن تتركوا موعظتهم إذا كانت الموعظة سببًا في ازدياد شرهم وخبثهم وفسادهم.

ولعل الناظر في حال صنف ممن غرق في بحور الشهوات والشبهات في زماننا، وجده يتعمد إيذاء الصالحين المصلحين إذا رآهم، ويزداد مجاهرة بمعصيته التي يقيم عليها، وترتفع لغة التحدي لهم، ومثله ما درى أن هذا المصلح إنما هو مبلغ عن الله، وأن كل هَمِّه وهِمَّتِه هدايتُه، وأن إعراضَه عنه حال إصراره على الحرام والقيامَ من مجلسه ليس عن ضعف، ولكن عن علم وحكمة وحلم، وأن أعظم مصيبة ابْتُلي بها هذا المعتدي أنه نسي علاقته بالخالق وانشغل بالمخلوق.

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

اترُك يا محمد ﷺ أولئك الذين خفَّ الدين في قلوبهم ولم يعظموه، بل جعلوه للسخرية والضحك وكثرة السؤال والجدال، واستخفوا بحملته ونظروا إليهم على أنهم أراذل الناس وأسافلهم، اتركهم واعلم أن الله تعالى لهم بالمرصاد. قال الله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣]، وقال سبحانه: ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٦].

لقد كانت عبادة أهل الجاهلية لأصنامهم عبادة لعب ولهو من تصفيق وتصفير، كما أشار إلى ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ ﴾ [الأنفال: ٣٥]، وكانوا يحرمون ويحللون بحسب أهوائهم ومصالحهم وما تشتهيه نفوسهم.

ولقد غرتهم الحياة الدنيا وخدعتهم، حتى ظنوا أنه لا حياة بعدها، وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، ثم اشتغلوا بلذاتها التي ألهتهم عن آخرتهم.

واتركوا أنتم أيها المؤمنون مجالسَهم وقنواتِهم ومجلاتِهم وسائرَ إعلامهم، واتركوا مرافقتهم ما استطعتم إلى ذلك سبيلًا، واهجروا من غرَّته الحياة الدنيا فركن إليها على حساب دينه، وجعل يتقلب في شهواتها دون وقوف مع الحرام والحلال، ودون أن يتحرك في قلبه شيء.

إن مجالسة هؤلاء تفضي إلى المجانسة، فتنتقل أفكار السوء وسلوكات الرذيلة والفساد إلى قلب من يرافقهم دون أن يشعر، حتى يصبح واحدًا منهم.

لا تخالطوهم ولا تهتموا لهم زيادة عما يستحقونه، ولا تكترثوا باستهزائهم وشدة عدائهم وإصرارهم على الباطل، ولا تشغلوا قلوبكم بما يفعلونه من غمز ولمز وسخرية.

واعلموا أن الله تعالى لا يقبل من العبد دينًا لا يخلص فيه للرب العظيم، ولا يعظم شعائره وحدوده، ولا يرتضيه منهاجًا وحكَمًا في حِلِّه وترحاله، ولا يقبل دينًا يتخذه صاحبه ويتخذ أهله وعلماءه وعُبَّاده للضحك والسخرية، ويتلاعب فيه بحسب ما يشتهي ويتمنى، ويتخذُه وسيلة لدنياه، وإذا أقبل على طاعة في وقت ما لم ينتفع منها ولا بها، ولم تُحدث في قلبه شيئًا من الخشية والتذلل وتزكية النفس وتهذيب سلوكها.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: وذكِّر الخائضين في آياتنا بالقرآن وحذِّرهم مما ينتظرهم لعلهم يرتدعون وينزجرون، ولئلا تُبسَلَ نفوسهم بأعمالهم وكسبهم، يعني: لئلا يجازون بها ويُسَلَّمون للهَلَكة والعذاب العظيم، ويُحْبسون في النار. قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ هناك في النار: لا يقبل الله تعالى فيها شفاعة أحد وطلبه بأن يعفو الله عنه، لأنه مات على الكفر والسخرية من الإله الخالق العظيم، ومن دينه وملائكته ورسله وكتبه، ولأنه سخر من تعاليم الشريعة كالصلاة والحج وستر العورات وغير ذلك، ولأنه أحاطت به معاصيه فوُكِل إليها وهيهات أن تنفع. قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وهناك في النار: ليس له وليٌّ يعينه وينصره، فإن العزة والجبروت والملكوت في الآخرة لله وحده كما هو الحال في الدنيا، وكل الولايات التي كانت في الحياة الدنيا انقطعت ولم يبقى منها شيء. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ﴾ وهناك في النار: لو بذلت هذه النفس التي ماتت على الكفر كل فدية من مال، وقدَّمت ما تملكه من عيال، لا يُقبل منها ولا ينفعها، كما لم تنتفع بشفاعة قريب أو حبيب، وكما لم تنتفع بمن كان ينصرها في دنياها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٦-٣٧].

إن مفتاح النجاة في الآخرة لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح الذي صدق العبد فيه، وكان متابعًا للنبي ﷺ، وكل من طرق بابًا غير هذا الباب لم ينفعه وكان من الخاسرين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾

لقد سخط الله عليهم بعنادهم وإصرارهم على الكفر، وبحربهم التي أقاموها على التوحيد وحملته في الأرض، وباتخاذهم دينهم لهوًا ولعبًا، فأُبسلوا بذلك، أي: عذَّبهم أشد العذاب، وحبسهم في جهنم خالدين فيها.

ثم جعل شرابهم من حميم إذا عطشوا وطلبوا السقيا، أي: من ماء شديد الحرارة يغلي في بطونهم، ويقطع أمعاءهم ويشوي وجوههم ولا يرويهم، فضْلًا عن ألوان أخرى من العذاب الموجع المؤلم المهين.

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾

يحرص أهل الشرك على دعوة أهل التوحيد إلى الضلال والكفر، ويبذلون حيلًا شتَّى لتحبيب الشرك إليهم وتزيينه في أعينهم، ويفتحون خزائنهم ويغدقون عطاياهم لئلا يفطن المسلمون إلى مفتاح عِزِّهم، وليغفلوا عن دعوتهم وعن جهادهم فيظفروا بهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم:٧٣]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢].

كان أهل الشرك في زمن النبوة يراودون قرابتهم ومن عرفوه عن دين التوحيد، ويصرفونهم عن دعوة الإسلام، ويرغبونهم ويخوفونهم، ولا زالوا يفعلون ذلك.

قل يا نبي الله لهم: هل تريدون مني أن أترك توحيد الله العظيم، وأترك جمال الحياة مع الصلاة والذكر وسائر الطاعات، وأترك الطمأنينة التي أعيشها صباحي ومسائي، وأقبل على التعلق بأصنام من حجر لا حول لها ولا قوة، ولا تملك للمسلمين ولا لغيرهم مثقال ذرة من نفع أو ضر ؟! وتريدون مني أن أسير في طريق الضلال والتيه التي لا يطمئن فيها قلب ولا يهدأ بال ؟! وتريدون مني أن أترك صراط أهل الجنات وأسير معكم على صراط أهل الحسرات والندامات ؟! قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦].

وعبارة ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ تشير إلى الرجوع إلى الوراء والتقهقر، والمقصود هو الرجوع إلى الكفر وخذلان العقيدة والشريعة.

ولكم أن تتأملوا في ظلال قوله ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ﴾، فإنها تحمل تذكيرًا لأهل الإيمان أن هدايتهم كانت اصطفاء من الله، فليحذروا من تضييعها، أو التنازل عن أصل من أصولها. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧].

يا أهل الشرك: لا تظنوا أن رِدَّة المسلم عن دينه أمر سهل ويسير، إذا كيف يرتد مؤمن عن عقيدة سهلة واضحة توافق العقل والفطرة ؟ وكيف يترك عبادة تسري في جوانحه وجوارحه، وهي سرُّ سعادته وراحته ؟ وكيف يترك أحكامًا تدله على الحكيم الخبير ؟ وكيف يترك أخلاقًا تضبطه وتريحه من التخبط والضياع ؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

يا أهل التوحيد: انظروا وتأملوا في حال من حمل الباطل كيف يبذل الغالي والنفيس من أجل دعوة أهل الحق إلى باطله، وانظروا كيف ينشره بين الناس ويجاهر به، مع أنه يحمل باطلًا لا يتردد صاحب عقل في الحكم عليه.

ثم انظروا في حال أهل الحق الذين أدركوا عظمة هذه الشريعة حتى في أدق تفاصيلها، واعلموا أن المطلوب هو الاجتهاد في توجيه أهل الحق نحو الذَّبِّ عن شريعتنا وحمل رايتها، وأن نكون عونًا لكل مشروع ينصر الدين ويرفع راية التوحيد على المنهج الصحيح، وألا نخذل أهل الله وخاصته في مواقف يحتاجوننا فيها.

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾

قل لهم: إنا إذا أطعناكم فيما ترجونه وتسعون فيه، كُنَّا مثل رجل كان يسير مع أصحابه في طريق، فأضلته الشياطين عن هذا الطريق وجعلت تصرفه عنه، فنادىٰ عليه أصحابه أن تعال معنا فإننا نهتدي إلىٰ الطريق جيِّدًا.

كان أصحابه علىٰ خير وهدىٰ وصلاح، وكانوا عونًا له في طاعته ودعوته، ثم لبَّست عليه الشياطين في عقيدته وعبوديته، وأدخلت الحَيْرة والشك، وجعلت تتلاعب به لتصرفه عن أصحابه وعن الطريق الصحيح، وزينت له الشياطين كل منكر حتىٰ خطفت عقله وساقته إلىٰ ما فيه ضياعه، ونقلته من الرشد إلىٰ التيه، ومن النور إلىٰ الظلمة، ومن مصاحبة الصالحين إلىٰ رفقة مفاتيح الشرور، وربما وافق سعيها هوىً عنده، أو حظ نفس لم يستطع التغلب عليه.

ولكن رفقة الخير التي أحبَّته في الله ولله لم تتركه، وجعلت تنادي عليه أنْ تعال إلينا وائتنا، ولا تترك طريق النجاة فتكون من الخاسرين، فعاش مرحلة التردد بين طرفين كُلٌّ منهما ينادي عليه، والسعيد من ثبَّته الله وكان إلىٰ أهل التقوىٰ أقرب، والشقي من استهوته الشياطين، وجعلته هائمًا في حيرته، مضطربًا في أمره، كما هو الحال هنا.

ولقائل أن يقول: هل يمكن أن يرتد مسلم عن دينه بعد أن عرفه ولزمه ؟

والجواب أن ذلك محتمل وواقع، فالنفس البشرية يعتريها من الأمراض الكثير، وقد يمتنع دخول الإيمان إليها بسبب طغيانها، أو اتباعها للهوىٰ، أو إفساد غيرها لها.

ولقد وصف القرآن أقوامًا من هؤلاء وتوعدهم وحذَّر منهم، كما في قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ [النساء: ١٣٧].

وكذلك ذكر لنا أن اليهود كان منهم منافقون، وأنه كانت لهم حِيَلٌ في صَدِّ المسلمين عن دينهم، منها أنهم يأتون أول النهار إلىٰ مجالس المسلمين فيُظهرون إسلامهم، ثم يأتون آخر النهار يعلنون ردتهم، ويتكرر ذلك منهم ليقذفوا الوهنَ والضعفَ في قلب من يراقب حالهم ويحضرُه. قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وكان من حيل أهل النفاق كذلك ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

صحيح أن حالات الردة في ديننا قليلةٌ، ولكنها تحتاج من الغيورين على أبناء الإسلام الذين آتاهم الله شيئًا من القيادة والعلم أن يقوموا بواجبهم في تحصين العقول والقلوب، وأن يأخذوا على محمل الجَدِّ قرب عدوهم منهم، فنحن نعيش في زمن احتضنت فيه قنوات الإلحاد والردة والتنصير عددًا من أبنائنا، تدعوهم إلى ترك الدين، وتبعث في قلوبهم الشَكَّ بكل ما حولهم، وقد صادف كلامُهم قلوبًا خاويةً على عروشها من العلم والتقوى، فتأثرت بما يقولون.

ولقائل أن يقول: أين يكون الخلل في مثل هذه النفوس التي تؤمن ثم ترجع إلى الكفر، ثم تؤمن ثم ترجع إلى الكفر؟ والجواب أنَّ صنفًا منهم أراد بإسلامه أن يحقنَ دمه فقط، أو يأخذَ من الغنائم أو من بيت المال، أو دخل في ديننا لتحصيل منفعة دنيوية خالصة كالزواج من مسلمة أو الوصول إلى أخبار أهل الإسلام.

وصنفٌ آخر قد يعرض له في حياته وخلطته مع الآخرين ما يُفسد عليه عَقْله فيضل، فمن ذلك: أن يُبتلى بلاءً صعبًا ولا يصبر، ثم ينسى فضل الله عليه ويُنكِر، ثم ينسلخ من إيمانه وتوحيده للرب جل وعلا اعتراضًا على بلائه.

أو قد تُفتح عليه الدنيا ويطيش عقله معها، تُفتح عليه بالمال والشُّهرة، ويترك دينه وراء ظهره جاحدًا له، ليصل إلى ما يطلبه منه أسياده طمعًا فيما عندهم.

أو قد يُذهلُه ما وصل إليه أهل الكفر من الحضارة المادية والعلم، ويظنُّ أن القصور فينا كان بسبب ديننا، فيتركُه ويهجرُه.

أو قد لا يعرف عن دينه إلا القليل، ثم تعرض له شبهات تتعلق بالخالق وبالقرآن وبالتشريع، وتصادفُ جهلًا عظيمًا عنده فتؤثرُ، حتى تحولَ بينه وبين إيمانه.

واعلموا أن المرتدين الذين يُبَارزون بردتهم ويُظْهِرونها، لهم ضرر على قلوب غيرهم من ضعيفي الإيمان لا يخفى، وقد يُشَكِّل بعضهم إذا فُسح المجال له خطرًا على هيبة الإسلام وهيمنته، ولذلك ألزمت الشريعة وليَّ الأمر أن يقيم عقوبة حَدِّ الرِّدَّة على أمثال هؤلاء، يقيمُها بشروطها وضوابطها التي أبدع أهل العلم في كتب الفقه والعقيدة ببيانها.

والآية وإن جاءت تضرب مثلًا صعبًا في حق من تقلب بين الكفر والإسلام، إلا أنها تحمل كذلك موعظة لمن يكثرون من التقلب بين المعاصي وبين الطاعات، ولا يَصْدُقون الله تعالىٰ في التوبة منها، فإنه يُخشىٰ علىٰ قلوبهم أنْ تَأنس إلىٰ المعاصي، وتُقبض الأرواحُ عليها.

بل تحمل موعظة لأولئك الشباب والفتيات الذين تربوا علىٰ القرآن وحفظوه ثم لم يعتنوا به، ومنهم من تربىٰ في المساجد ثم هجرها، ومنهن من كانت تتقرب إلىٰ ربها بسترها وحيائها ثم تخلت عنهما.

وكأن الآية تنادي عليهم وتقول لهم: لا تأمنوا مَكْر الله، وسارعوا في رجوعكم إلىٰ سابق عهدكم فإنَّ الأمر يسيرٌ علىٰ من يسَّره الله عليه، واعلموا أن مفتاحكم إلىٰ ذلك الصدقُ مع الله.

وهنا: نستحضر أن القلوب بيد الله سبحانه وتعالىٰ، وأن الهداية لا تكون إلا بإذنه، وأن العبد الموفق هو الذي يَفرُّ إلىٰ الله تعالىٰ إذا عصف بهذا القلب أمرٌ، ولا يُعَلِّقُه ببشرٍ ولا حجرٍ، ويَحْمدُ الله تعالىٰ أن فتح له أبواب الهداية وأعانه فيها، وأنْ كرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان.

ويحضرني هنا ما يفعله صنف من أهل الكبائر والفسق والفجور، من سعيٍ في إضلال الصالحين أهلِ الاستقامة، وفَتْحِ أبواب الحرام لهم، وتزيين المعاصي وتقديمها بأثواب برَّاقة، كلُّ ذلك ليَضلوا عن سواء السبيل.

ثم يحضرني عدد من أبناء الدعوة وبناتها الذين رافقوا أهل الصلاح، وعاشوا معهم جمال مدافعة الباطل وأهله، ثم استهوتهم الشياطين، واستدرجتهم لطرائقها وحبالها حتىٰ أبعدتهم عن جنة الأرض التي كانوا فيها، وانقلب حالهم، وانغمسوا في بحر الشهوات والشبهات، وأقبلوا علىٰ سماع الحرام والنظر إليه ومخالطة أهله، وجعل أصحابهم من أهل المساجد والقرآن وأعمال البر والتقوىٰ ينادون عليهم، ولات حين إجابة.

الحمد لله الذي حفظ علىٰ صاحب القلب السليم دينه وعقيدته، وجعل الردة بعيدةً بُعْدَ المشرقين عن القلبِ الذي يحمله، القلبِ الذي ذاق حلاوة آيةٍ من القرآن العظيم، أو حلاوةَ سجدة بين يدي الله، أو تفيَّأَ ظلال حديث من مشكاة النبوة، أو نظر في التشريع الرباني الذي أبهرَ البشرية بإحكامه وارتقائه بأهله، أو صَدَقَ الله تعالىٰ بسؤاله الثبات علىٰ دينه حتىٰ الممات.

أخرج البخاري أن هرقلًا ملكَ الروم أراد أن يستفصل عن ديننا، فطلب من أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يأتيه، وكان أبو سفيان علىٰ الشرك لم يسلم بعدُ، فكان مما سأله أن قال: "وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ" الحديث.

﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾ احذر منهم ولا تكونن كمن استهوته الشياطين، وقل لهم: إنكم كاذبون فيما زعمتم، ولستم على الهدى الذي أراده ربي وخالقي، ولن أترك هداية الله وطريق الاستقامة، فإنه الهدى الذي لا ينفع غيره، ولا يشقى به أحد في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذه لغة الثبات التي نقوى بها، وهذه تجارة الصالحين الذين أطاعوا الله فيما أمرهم به، ولزموا مقام التوحيد، وتنافسوا في العمل الصالح مستحضرين ما أعده لهم في جناته يوم لقائه.

نرفع رؤوسنا بهذا الدين كما أمرنا الله، وننقاد لأوامره ونواهيه، ونلبس ثوب عبوديته ونسأله رضاه، ثم نسأله الثبات على الهدى حتى الممات.

﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢﴾

قل لهم: لقد أمرنا الله بإقامة الصلاة التي هي ركن الإسلام وعموده، أمرنا أن نؤديها بأركانها وواجباتها وسننها وخشوعها لتنفعنا في انتهائنا عن الفحشاء والمنكر، ولتكون نورًا لنا غدًا في أرض المحشر.

وقل لهم: وأمرنا سبحانه أن نتقيه بفعل المأمورات واجتناب المنهيات، راجين في ذلك رحمته، وخائفين من عذابه.

وخوِّفهم باليوم الذي سيبعث الله فيه الخلائق كلها ويحشرهم إليه ويحاسبهم، وذكرهم به لعلهم يرشدون، وذكِّر المؤمنين بذلك ليكون عونًا لهم في طاعتهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾

تعطي العقيدة الإسلامية لحاملها مفاتيح خشية الله تعالى، وتنجيه من فتن الشبهات التي تموج كموج البحر، وتحميه من الشرك وأهله وحملته والدعاة إليه، وتعطيه سلاح مدافعتهم والانتصار على خبثهم ومكرهم، وتجعله على بصيرة تحفظ قلبه وعقله وتسعده.

خلق الله السماوات والأرض بالحق، أي: بالحق الذي لا لعب فيه ولا باطل، وبالعدل الذي لا ظلم فيه، والتدبير الذي لا نقص فيه، وبالحكمة التي لا خلل فيها. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٦-١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدُّخان: ٣٨-٣٩].

يعلم المشركون أن الله خلق السماوات والأرض، ولكنهم لا يؤدون حقه من إفراده بالعبودية، بل يشركون معه غيره، ويجعلون له حظًّا من دعائهم ورغبتهم ورهبتهم. قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ١٧].

ويعلم المؤمنون أن الله تعالىٰ أوجدهما من العدم وأخرجهما إلىٰ الوجود، وأنه أحكم خلقهما بنظام لا يقدر عليه إلا الله، ويقرون له جل وعلا بهذه العظمة، ويفقهون ما توجبه عليهم من التوحيد والعبادة. قال الله تعالىٰ في وصفهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يُمَانِع قدرتَه وأمْرَه أحدٌ، ولا يتصرف في هذه الخليقة وهذا الكون غيره، فلا إله إلا هو ما أعظمه وما أكرمه.

قال سبحانه لهذا الكون كن، فكان، وقال لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كن، فكان، ويوم القيامة بجميع أهواله ومَشَاهده يقول له كن، فيكون، فمن إله غيره يستحق العبودية والتعظيم يا من عبدتم الأصنام والشمس والبقر والإنسان ؟!

﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ سبحانه، كل ما يأمر به ويُقدِّره ويدعو إليه حق وعدل لا شكَّ فيه، وكل ما خلقه ويسره وقضىٰ به حق وعدل لا شكَّ فيه، وكل ما أخبر عنه من قصص الأولين ومن ثواب وعقاب حق وصدق وعدل لا شكَّ فيه.

أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو مِنَ اللَّيْلِ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، لَكَ

الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، قَوْلُكَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ لِي غَيْرُكَ».

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ إذا أمر الله بالنفخ في الصور لأماتة الخلائق ثم بالنفخ فيه لبعثهم من قبورهم، فلا مُلْك يومئذ إلا لله وحده، وكل مُلْك كان يملكه أحد من خلقه ذهب، وكل مُلْك ادعاه الجبابرة وعاشوه في دنياهم وَلَّى وانقطع، وبقي المُلْك الحقيقي الذي لا يزول ولا يفنى ولا يُنَازع، وهو مُلْك الواحد القهار جل وعلا. قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الْفُرْقَانِ: ٢٦]، وقال سبحانه من قائل: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غَافِرٍ: ١٦].

والصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل إيذانًا ببدء الرحلة العظمى إلى الدار الآخرة، كما دل على ذلك ما أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَا الصُّورُ؟ قَالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ».

ومعلوم لديكم أنه ينفخ فيه نفختين، وبعد كل واحدة منهما أهوال وأحوال، وأن التفكر في هذا الأمر الجلل يجعل الواحد منا على حذر دائم، ويعينه على المسابقة في الخيرات وترك المنكرات. أخرج أحمد والترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدِ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْظُرُ مَتَى يُؤْمَرُ " قَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا نَقُولُ؟ قَالَ: " قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ".

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعلم الله جميع أحوال ما خلق من غيب وشهادة، أي: يعلم ما هو غائب عنهم لا يرونه، ويعلم ما يرونه، ويعلم ما يسرون وما يعلنون وَإِنْ أَظْهَرُوا لِخَلْقِهِ ما أظهروا، وَسيبتلي الله تعالى ما في صدورهم، وسَيَجْزِيهِمْ عَلَيه أشدَّ الجزاء. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ سبحانه، هو الحكيم في قَدَره وشَرْعه، وفي أفعاله وأقواله، وفي قضائه وقدره، وفيما يختاره ويريده، ويضع كل شيء في موضعه اللائق به.

وهو الخبير بظاهر الأمر وباطنه، ولا تخفى عليه خافية، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

ينتقل السياق القرآني بنا إلى حكايةٍ من حكايات بيوت النبوة، حكايةٍ لها علاقة بالسياق الذي أفاض بالحديث عن إثبات التوحيد ورفعة أهله، وعن إبطال الشرك ونبذ أهله، حكايةٍ تتعلق بالعداء من أقرب الناس إلى أكرم الناس نبيِّ الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

أوصت جميع الشرائع ببِرِّ الوالد ولزوم طاعته، وحذَّرت من عقوقه والتعرض له بالإيذاء، ولكنها جعلت طاعته بالمعروف، وجعلتها بما لا يخالف أمر الله، إليكم موعظة بليغة صدرت من النبي لوالده، وإليكم موعظة نافعة ومحاجَّة رائعة تجدونها في خطاب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه المشركين العابدين للأصنام والكواكب.

يخاطب نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أباه، وينكر عليه وعلى قومه أن يعبدوا الأصنام من دون الله، ويزجره وينهاه عن اتخاذها شريكة مع الخالق لعله ينتهي، ويخاطبه بلغة صريحة بينة هادفة إلى هدايته وإحياء قلبه الميت، ويقول له: إنك وقومك في طريق بعيد عن الهداية والسعادة، وإنكم اتخذتم طريق أهل الخسران والضلال عن الحق، وتركتم توحيد الله الخالق العظيم الذي خلقكم وخلق كل شيء، وتألهتم لأصنام أنتم من صنعها ونصبها وجعلها آلهة، وعشتم في حيرة وجهل وتيه وابتعاد عن الهدى، وإن هذا لهو الضلال المبين الواضح الذي لا يخفى على كل ذي عقل صحيح.

يذكر القرآن اسم والد إبراهيم، وهو آزر، مع أنه لا يذكر أسماء من كفروا إلا قليلًا، لا يذكرهم إلا لنفع، ولعل ذلك لكثرة مواقف سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع أبيه، ولأن العرب في الجاهلية كانوا يزعمون أنهم منتسبون لأبيهم إبراهيم، فناسب أن يبين حاله مع أبيه الذي كان مشركًا.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن اسم (آزر) يعود لصنم، وأنه أُطلق على والد إبراهيم من شدة خدمته لذلك الصنم، وأن اسم والده الحقيقي هو تَارِح، ولكن ظاهر القرآن يقول: إن اسمه كان آزر، وكذلك جاء في السنة أنه اسْمُه، كما أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ (يعني: غبرة معها سواد)، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي ؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ

وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ (أي: الأبعد عني في المكانة والمرتبة) ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ (هو ذكر الضبع كثير الشعر) مُلْتَطِخٍ (أي: متلطخ بقذارة أو نجاسة أو دم)، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ". والحكمة من ذلك أن تنفرَ منه نفس إبراهيم وتنكرَه.

جاءت الآية تطلب من نبينا ﷺ أن يقيم الحجة على من يعبدون الأصنام في زمانه، زاعمين أنهم على دين سيدنا إبراهيم وعلى حَجِّه وصلاته وشريعته، جاءت لتبطل كلامهم وتبين كذبهم في دعواهم.

وجاءت كذلك تنصره في دعوته لقومه، وتعلمه ملة هذا النبي العظيم ودعوته المباركة ليتبعها، بأبي هو وأمي صلى الله عليه وعلى أنبياء الله جميعًا وسلم. قال الله تعالى عن هذا النبي العظيم: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأَنْعَام: ١٦١]، وقال مخاطبًا نبيه كذلك: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحْل: ١٢٣].

ويظهر من هذه اللغة العالية في خطابه لأبيه، أنه قال هذه الموعظة المختصرة بعد أن استفرغ وسعه في هدايته، وبعد خطاباته التي تعددت راجية منه أن يشهد شهادة التوحيد، ولقد ذكر لنا كتاب ربنا عددًا من حواراته مع أبيه ومع قومه، وفيها من كلام التودد والترغيب والرفق ما لا يخفى. قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

وهذا ينفعنا في دعوتنا التي قد نستعمل فيها كلامًا يكون فيه الرفق والموعظة الحسنة، وذلك في مواطن، كما قال ربنا: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ﴾ [النَّحْل: ١٢٥]، وقد نستعمل كلامًا غليظًا إذا لزم الأمر في مواطن أخرى، كما في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التَّوْبَة: ٧٣].

والأصنام جمع صنم، وهي التماثيل التي تكون من حجر أو خشب أو غير ذلك، وتكون على شكل إنسان أو حيوان، وتأملوا كيف جاءت بصيغة الجمع في الآية، فهذا يدل على أن قومه وأباه قد أفسدوا عقولهم وارتكبوا حماقاتٍ متعددةً في عقيدتهم الفاسدة، كما هو حال القوم الذين بدأ فيهم نبينا ﷺ دعوته.

كان سيدنا إبراهيم يستغفر لأبيه في حياته، أي: يدعو له بالهداية حتى مات على الكفر، فلما تبين له أن أباه مات عدوًّا لله وللدين، أعلن براءته منه وتوقف عن الاستغفار له. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التَّوْبَة: ١١٤].

ومعلوم لديكم أن الكافر إذا مات على كفره، فإنه في أحكام الدنيا بالنسبة إلينا لا نغسله ولا نصلي عليه، ولا ندفنه في مقابر المسلمين، ولا ندعو له بالمغفرة أو الرحمة. قال الله تعالى عن رحمته: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يدعو كتاب الله دومًا من يقرؤه إلى أن يطلق ناظره في هذا الكون وما فيه من آلاءٍ تدل على الواحد الأحد، وتوصل من استجاب لفطرته ونداء الحق في داخله إلى عظمة الخالق ووحدانيته وجبروته وملكوته وسلطانه. قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يُونُس: ١٠١].

تأتينا الآية لتدعونا إلى ذلك، وتخبرنا أن نبي الله إبراهيم وصل إلى اليقين العظيم بالخالق العظيم، وعلم علمًا راسخًا أنه المتصرف بهذا الكون المُدبرُ لأمره، وذلك لما ألهمه الله ووفقه لأن يطلق بصره في ملكوت السماوات والأرض، ملكوت السماوات من التفكر في خلق الشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض من التفكر في خلق الجبال والشجر والبحار.

والملكوت: هو المِلك مع زيادة حرف الواو وحرف التاء للمبالغة، يعني: هو صاحب المِلكِ القويِّ الشديدِ، وصاحب المِلك العظيم والعزِّ والسلطان، سبحانه.

وقال بعض أهل التفسير: إن الله تعالىٰ أطلع سيدنا إبراهيم علىٰ شيء من خلقه وملكه في السماء بعد أن فتحها له، حتىٰ رأىٰ الجنة والعرش، وكذا علىٰ شيء من خلقه وملكه في الأَرَضِين بعد أن فتحها له.

وصل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ قلب يحمل اعتقادًا جازمًا لا شك فيه، اعتقادًا ينفعه في مواجهة قومه، وينفعه في البلاء القادم من الأمر بذبح الولد، بعد تَرْكه مع أمه في أرض قاحلة، وبعد أن ألقاه قومه في النار، وغير ذلك.

إليكم في قادم الآيات موطنٌ من مواطن استجابة نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لربه بتبليغ الرسالة لقومه، وهو النبي الذي جعل الله تعالىٰ النبوة في ذريته كما جعلها في ذرية سيدنا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من قبله، فكما أن جميع الأنبياء قبل سيدنا إبراهيم كانوا من ذرية نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فكذا كان جميع الأنبياء بعد سيدنا إبراهيم من ذريته عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، وقد أجمع علىٰ فضله وإمامته جميع أهل الكتب السماوية بعده.

وصف الله تعالىٰ نبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في كتابة بأنه أُمَّةٌ بأكملها، وأنه قَامَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ بِهِ، ووفَّىٰ كُلَّ مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَشْغَلُهُ أَمْرٌ عن التعبد لله تعالىٰ في نيته وجميع أحواله.

ويكفيه أن الله تعالىٰ اتخذه خليلًا ورفعه إلىٰ أعلىٰ درجات المحبة كما اتخذ نبيَّنَا محمدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خليلًا.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

جَنَّ عليه الليل، أي: تغشَّاه وستره، ولفظة الآفلين تعني الزائلين الغائبين.

والمقصود أن نبي الله إبراهيم بدأ بمجاراة قومه في التفكير علىٰ سبيل الجدل وسبيل بيان الفهم الصحيح، وأنه بدأ مع الكوكب أو النجم الذي نراه في السماء، فأعلن أمام قومه وهم ينظرون إليه أن هذا الكوكب عظيم ومضيء جدًا ومتميز عن غيره، وأنه سيتخذه ربًّا خالقًا مدبرًا وليًّا، ثم إن هذا الكوكب اختفىٰ لما تنفس الصبح، فأعلن أمامهم براءته من العبودية لهذا الخالق المزعوم الذي يأفل ويختفي، ولا يظهر أنه حيٌّ قيّوم، وأعلن أنه لا يحب من يغيب عن خلقه، وأنه لا رغبة في قلبه ولا رهبة لمن يختفي ويحتجب عن العباد ولا نرىٰ له أثرًا في الخلق والملك والتدبير.

كان قوم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعبدون الكواكب ويصورون لها أصنامًا، ويجعلون لكل كوكب منها صنمًا يخصها بحسب أساطيرهم وتخُّيلاتهم، فأراد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يعيبَ عليهم ويُبْكتهم، ويلجئهم إلىٰ الاعتراف بفساد معتقدهم والرجوع عنه، وأراد أن يجادلهم ويستدرجهم ليوصلهم إلىٰ التوحيد دون أن يستنفرهم ويستفزهم، فأخبر قومه أنه سيعبد هذا الكوكب جرْيًا علىٰ معتقدهم، وكأنه يريد أن يثيرَ ما في داخلهم ويجعلَهم يتساءلون: هل يستحق هذا الكوكب الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل علىٰ ذلك؟

ومن أهل العلم من قال: إن سيدنا إبراهيم كان في هذه الآيات ناظرًا ومستدلًّا لخاصة نفسه لا مناظرًا لقومه، أي: كان جاهلًا بربه أيام صباه قبل أن ينزل عليه الوحي بالرسالة، وأنه نظر حقيقة ليصل إلىٰ خالقه وإلهه الذي لا يستحق العبادة غيره، ولم يفعل ذلك لإقامة الحجة علىٰ قومه، وهو قول له وجه.

ولقائل أن يقول: ولماذا جعل سيدنا إبراهيم إيمانه مرتبطًا بفكرة الحضور الظاهر والغياب، فإن الله سبحانه لا يراه عباده في الدنيا ؟

والجواب أنه جرىٰ علىٰ طريقة قومه في الاستدلال علىٰ باطلهم، وأنه أراد أن يوصلهم إلىٰ أن هذه الكواكب لا تعدو أن تكون مخلوقات تظهر وتختفي دون أن نجد أثرًا واحدًا يدل علىٰ أنها تتصرف في هذا الملكوت، وأن هذه الأصنام لم تكن آلهة إلا بجعلهم إياها آلهة، وأراد أن يوصلهم إلىٰ أن ثمة ما هو أعظم منها، ممن نرىٰ تدبيره وعلمه وحكمته في كل ما نراه ونسمعه، ونعلم حياته وقيوميته علىٰ خلقه من تصريف الأحوال في كل ما يحيط بنا، ونوقن أنه لا يغيب ولا يأفل، ولا ينسىٰ ولا يذهل، وأنه سميع قريب مجيب. قال نبي الله تعالىٰ لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يتدرج مع قومه في طرائق تفكيرهم وبنائهم الذي قادهم إلىٰ العبودية لغير الله، ويُمْعن في تهيئة نفوسهم لقبول الحق عن طريق إدخال الشك إليها فيما يعتقدون، وذلك علىٰ تفسير الجمهور بأن المقام كان مقام إقامة للحجة علىٰ قومه وليس مقام نظر منه لنفسه.

يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لهم لما رأىٰ القمر بازغًا وظاهرًا أمامهم: أنا سأعبد القمر لعله لا يغيب فيكون مستحقًّا للعبادة، ولكنه غاب، فأعلنها مرة ثانية أمامهم، مستعينًا بالله ومفتقرًا إليه قائلًا: إذا لم يرشدني ربي إلىٰ الطريق الصحيح، ولم يشرح صدري لما يحبه ويرضاه لأكونن من الذين ضلوا عن طريق النجاة، ولم يهتدوا إلىٰ الصراط المستيقم.

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يمضي في بيانه ومحاكاة قومه فيما يقولون ويفعلون، ويزعم أمامهم أنه سيعبد الشمس لأنها أكبر من الكوكب والقمر، وأشدُّ إضاءة ونورًا، ولعل هذا يدل علىٰ أنها الإله الذي يستحق العبودية.

ولكن الشمس كغيرها من مخلوقات الله جميعًا أَفَلَت وذهبت وغابت، فأطلق بينهم علىٰ مسمع منهم نداء الدعوة إلىٰ التوحيد، وبدأ هذا النداء بقطع الصلة بينه وبين الآلهة الباطلة، والتبرؤ من عبادة غير الله، والتبرؤ من معبوداتهم التي يظنون فيها ما يظنون، والتبرؤ من موالاتها واللجوء إليها في الرغبة والرهبة.

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

يقول لهم: أخلصت ديني لمن بيده ملكوت كل شيء، وأفردت عبادتي للحي القيوم الذي أرىٰ ربوبيته وألوهيته وأسماءَه وصفاتِه في كل ما حولي، أراها في خلق السماوات والأرض وإيجادهما علىٰ غير مثال سابق. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

يقول لهم: فررت إلىٰ عقيدة التوحيد ﴿حَنِيفًا﴾، أي: مائلًا عن الشرك وطرائقه إلىٰ عبادة الواحد الأحد، الفرد الصمد، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لن أكون مثلكم تعتقدون أن الله هو خالق السماوات والأرض ثم تشركون معه الأصنام والكواكب.

أظهر لقومه أنه يخالفهم فيما يعتقدون، وأن كلمة الحق لا بد أن تُقالَ لهم ليتوبوا، وأن المرء إذا حمل دعوة الخير وقدَّمها في قالبها الذي يليق بها، فإنه لا ينبغي أن تأخذه في دعوته لومةُ لائم، ولا عناد جاحد ومكابر. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

جادل قوم إبراهيم نبي الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أولَ الأمر، وجعلوا يأتون بأدلة تثبت ما هم عليه، وظنوا أن حجتهم في عقيدتهم دامغةٌ وقويةٌ، وظنوا أن باطلهم سيهزم الحق ويخيف أصحابه وحامليه.

والمتتبع لحججهم في كتاب الله يجد أنها لا تتجاوز فكرة تقليد الآباء في ذلك، وأنه دين ورثوه منهم ولن يتخلوا عنه، كما قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٥]، وقال سبحانه: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤].

ناظروه في عقيدة التوحيد، فقال لهم: كيف وصلتم إلىٰ مرحلة تجادلون فيها في كلمة لا إله إلا الله ؟ كيف وقد هداني الله إليها وشرح صدري حتىٰ اطمأن بها، وعلمت أنها الحق الذي لا يكون غيره ؟ كيف ألتفت إلىٰ شبهكم الفاسدة وأقوالكم الزائفة وأترك عقيدة توافق العقل والفطرة؟

وتأملوا كيف أغلق نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ محاجتهم وختمها وأنهاها، وأوصلهم إلىٰ مرحلة اليأس من رجوعه إلىٰ الباطل، وقال لهم كيف تفعلون ذلك، ولعل السبب فيما فعل هو أنه لا حجة عندهم إلا أنهم مقلدون ناعقون كما ينعق غيرهم، وأنهم يظهرون عبارات تدل علىٰ أنهم غير صادقين في البحث عن الحق، وغير متجردين عن الهوىٰ والتقليد، فالنقاش مع أمثالهم لا ينفع ولا ثمرة له، ولذلك خاطب الله نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مرشدًا له بخصوص دعوته لأمثال هؤلاء: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠].

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ يظهر من قول الله تعالىٰ هنا أنهم جعلوا يخوفونه من أن تمسه آلهتهم بسوء، ويخوفونه من أن يبطشوا به، فوقف أمامهم بعزة نفس وقوة وثقة قائلًا: إليكم دليلٌ عظيمٌ علىٰ بطلان ما أنتم عليه، وهو أن آلهتكم التي تعبدون لا حول لها ولا قوة، ولا تملك أن تضرني بشيء ولو يسيرًا، فكيف أخافها وأرهبها من دون الله ؟

قال الله تعالىٰ عنهم وعن تخويفهم: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩١-٩٨].

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ يعلمهم أن النفع لا يقع لأحد، وأن الضر لا يقع عليه إلا أن يشاء الله وقوعه، الله الذي لا أخاف غيرَه، ولا أرجوغيرَه، فانظروا في أمركم واسلكوا سبيل الرشاد.

﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أحاط علم خالقي وسيدي ومولاي بجميع الأشياء، فهو الذي لا تخفىٰ عليه خافية، وهو الذي دبَّر أمر الكون وما فيه، وهو الذي يقدر الخير والمكروه بحسب حكمته، وليس كالآلهة التي لا تملك من الأمر شيئًا.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ينكر عليهم إغلاقهم لعقولهم عن الكلام الذي لا يصح غيره، ويزجرهم لإصرارهم علىٰ الباطل، ويطلب منهم أن يعتبروا مما يقوله لهم ليعلنوا علىٰ الملأ بطلان آلهتهم. قال الله تعالىٰ عن دعوة هود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: ٥٣ -٥٦].

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

ومن تمام خطابه وتوجيهه أنه رد الحجة عليهم وقلبها، وقال منكرًا ومتعجبًا: هل يليق بصاحب الطاعة والعبودية أن ينكس رأسه ؟ هل يليق به أن يخاف من أصنام من حجر ؟ ومن كواكب سيارة لا تعقل شيئًا ؟ ولماذا ترفعون أنتم رؤوسكم وتجاهرون بعقيدة فاسدة ؟ ولماذا تكون الكلمة العليا لكم وأنتم مقيمون علىٰ باطل ظاهر ؟ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ﴾ [النَّجْم: ٢٣].

يقول لهم: ليس لعقيدتكم أي سلطان أو حجة أو دليل أو برهان، وليس في كلامكم ما يوافق العقل ويقنع.

سبحان الله، كيف نرى ظلال هذه الآية في حياتنا، يوم يرفع أرباب المنكرات والفواحش رؤوسهم بين الناس، ويستميتون في الدفاع عن الحرام وينصرونه وينصرون أهله، ثم نرى عددًا ممن يحملون الحق يفرون من الميدان، ويطأطؤون رؤوسهم ويخافون.

سبحان الله، ما أحوجنا لأن نرفع رؤوسنا بهذه الدين، ونمضي لنشره في العالمين، عن علم وحكمة ويقين، وقلوبنا معلقة بالخالق العظيم.

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فأي الطائفتين أحق بالأمن من عذاب الله في الآخرة وعقوبته في الدنيا ؟ أهل الحق والدليل الساطع أم أهل الباطل واتباع الهوى ؟ والمطلوب: اعلموا أن الأمان لا يكون إلا بالله جل وعلا، وأن النجاة لا تكون إلا لمن اهتدى، وأن طريقكم الذي تسيرون فيه لا يزيدكم إلا شقاء وضنكًا.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۖ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يظهر من السياق القرآني أن هذا الكلام من كلام سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكأنه يجيب على نفسه بنفسه لما قال لقومه: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ؟ وهذا أمر معهود في العلماء والدعاة أنهم يسألون على طريقتهم ويجيبون حرصًا على الأنفع، وطردًا للملل بتنويع الخطاب، وكأنَّ سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هنا يلجمهم ويقول لهم: لا يصلح غير هذا الجواب على سؤالي.

والقول بأنه من كلام سيدنا إبراهيم هو كلام كثير من أهل التفسير.

ومن أهل العلم من قال: بل هذا من كلام ربنا يفصل فيه بين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبين قومه.

أقول في موعظة هذه الآية: يغفل أكثر الناس عن حقيقة ما ينتظرهم بعد موتهم من أهوال مفزعة، كما يغفلون عن سبيل الهداية والأمن في الدنيا.

ما أجملها كلمة (الأمن) التي تطير بنا إلى راحة البال وسعادة النفس وطمأنينة القلب، والتي يكون صاحبها متصالحًا مع نفسه متَّزنًا، لا يهتز إيمانه مع مصيبة، ولا يأخذ من متع هذه الحياة إلا ما يحتاجه، وعلى النحو الذي يرضي ربنا.

وما أجملها يوم تطير بنا إلى حفظ الدين علينا وعلى أبنائنا، وحفظ أنفسنا من القتل والاعتداء، وحفظ أموالنا من الحرام تحصيلًا وإنفاقًا، وحفظ أعراضنا من العبث، وحفظ عقولنا وعقول أبنائنا من أهل الأهواء والضلال.

وما أجمل قول الله في ختام الآية ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، فإنه يعطي قارئه ومتدبره مفتاح الثبات حتى الممات، وهو الهداية من الله، أي: هداية إلى الطريق المستقيم، ثم هداية فيه، وربط على القلب، وإقبال على الجنة بدون التفات.

تؤكد الآية الكريمة أن هداية الله تعالى لا تكون إلا لمن صدقه في إخلاص العبادة والتوحيد، وأن الأمن المتيقن في الآخرة لا يكون إلا لمن أخلص إيمانه، ولم يخلطه بما يشوبه، ولم يقترب من الشرك وطرائقه.

والمقصود بالظلم هنا في الآية هو الشرك بالله وليس مطلق الظلم، لأن العبد منا لا يخلو حاله من سقطة في حق أحدهم يظلمه فيها، ولذلك شقت هذه الآية على أصحاب النبي ﷺ لما نزلت، وخافوا من تبعاتها وسألوا عن معناها، فنزلت آيات سورة لقمان بردًا وسكينة على قلوبهم توضح لهم مقصود الآية الكريمة هنا، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

وقد جاء في حديث أخرجه أحمد وغيره بسند حسَّنه بعض أهل العلم بمجموع طرقه، أن رجلًا جاء للنبي ﷺ فأراد أن يقاتل معه، فطلب منه ﷺ أن يسلم أولًا ثم يقاتل، ففعل الرجل، فقاتل فمات في سبيل الله، فقال ﷺ: "أَمَا رَأَيْتُمَا إِعْرَاضِي عَنِ الرَّجُلِ، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَلَكَيْنِ يَدُسَّانِ فِي فِيهِ (يعني: فمه) مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَاتَ جَائِعًا" ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "هَذَا وَاللهِ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾" الحديث.

أقول: وكم من عبد صدق مع الله في إيمانه وأيقن أنَّ مَرَدَّ الأمر إليه أولًا وآخرًا، فعلم أن الرزق بيده، وأن النفع والضر بيده، وأن الموت والحياة بيده، وأن السحر والتطير والتمائم ليست سببًا لدفع ضر أو جلب منفعة، وأن أصنام البشر والحجر ليسوا بشيء، وأن صاحب القبر لا يملك أن يستجيب له دعاءً، وأن الكهانة والعرافة من عمل الشياطين، وأن العبادات والطاعات لا ينبغي أن يقصد المرء بها مدح الناس وثناءهم، ولا ينبغي أن يستأكل بها، أقول: صدق الله في توحيده فأخلص، فكتبه الله عنده في ديوان المقبولين المخلَصين.

ومعلوم لديكم أن الشرك أكبر الظلم وأعظمُه، لأن فيه اعتداءً على حقوق الرب جل وعلا، ومن حقه إفراده بالعبادة اعتقادًا وقولًا وعملًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومعلوم لديكم أن الظلم ظلمات يوم القيامة وإن قلَّ، فلا يظنَّنَّ ظانٌّ أن انصراف الظلم هنا إلى الشرك فيه تهوين لأمر ظلم الناس والاعتداء على أعراضهم وأموالهم وحقوقهم، بل هي المَهلكة وربي، ولكن الآية جاءت في معرض الردِّ على من يعبدون الأصنام فنبَّهتهم إلى أن الأمن التام بعيد عنهم وأنهم ليسوا أهله.

﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾

جاء في الآيات السابقة أن نبي الله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حاجَّ قومه وقال لهم كلامًا كثيرًا، وكان مما قاله: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، فكانت كلماته قاصمة للشرك وأهله.

تأتي الآية هنا لتقول لنا: إن الله تعالى صدَّق إبراهيم في حجته هذه، وفي خطابه هذا، وقد وجَّهه فيه وأعانه عليه وألهمه إياه وأنطقه به، وجعل حجته قاطعة لكلامهم مستعلية عليهم.

وتعالوا نقرُّ في أنفسنا ونحن نمضي في دعوتنا ونقول: لولا عون الله لنا وتثبيته لكان ما كان، ولولا حفظه وتأييده لتسلط علينا أعداؤنا وفتنتنا الدنيا، وتعالوا نقول: المِنَّة فيما نحن فيه من سداد في القول والعمل، ومن نجاح وقبول بين الناس، لله وحده لا شريك له. قال الله تعالى لخير داعية عرفته البشرية: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ رفع الله درجة سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في العالمين، وأعلىٰ ذِكره بين الناس، واصطفاه وأكرمه وأنعم عليه بما أنعم.

وليست هذه لسيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فقط، وإنما هي لكل من شاء ربنا أن يصطفيه للتوحيد والعبودية، ولكل من شرح له صدره، ويسَّر له أمره، وكتبه في ديوان أهل الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نسأل الله أن نكون جميعًا منهم. قال الله تعالىٰ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ وربنا إذا قدَّر اصطفاء أحد وأعانه، وإذا قدر حصول البلاء معه، وإذا وسَّع عليه أو ضيَّق، فإنما يكون ذلك لحكمة، فهو سبحانه الحكيم في أفعاله وأقواله، وهو الذي يعلم ما الذي يصلح العبد وييسر له طرائق الفوز بجنته.

وهو سبحانه عليم بمن يستحق هدايته ممن حقت عليه الضلالة، وهو عليم بمن يستحق أن يرفعه في العالمين من غيره، وهو العليم بخفايا الأمور وما وراءها. قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وتأملوا كيف جاء الخطاب هنا موجهًا للنبي ﷺ بلفظة ﴿رَبَّكَ﴾، أي: إن ربك الذي نصر إبراهيم علىٰ قومه، وأيده وأنطقه بالحق، حكيم عليم فيما يَسَّره لخليله، ومن حكمته وعلمه أنه سيحفظك كما حفظه، وسينصرك كما نصره، وسيؤتيك من واسع فضله الشيء العظيم، فإنه الحكيم العليم.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحٗا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤﴾

أكرم الله نبيه إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقدَّر لزوجته "سارَّة" أن تنجب سيدنا إسحاق بعد أن كبرت سنهما وأيسا من إنجاب الولد، وقد بشرته الملائكة بذلك وهم ذاهبون إلىٰ مدائن قوم لوط ليَقْلبوها علىٰ رؤوسهم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصَّافَّات: ١١٢].

وسيدنا إسحاق نبي من أنبياء الله، جعل الله جميع الأنبياء مِنْ بعده من ذريته إلا محمدًا فإنه كان من ذرية إسماعيل عليهم الصلاة والسلام.

وإسحاق هو ولد سيدنا إبراهيم الثاني بعد سيدنا إسماعيل، وهو والد سيدنا يعقوب وجَدُّ سيدنا يوسفَ عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه.

وصفه القرآن العظيم بأنه غلام عليم، وأنه من المُصْطَفَين الأخيار، وأنه من أولي الأيدي والأبصار، أي: كان قويًّا في عبادته وطاعته، صاحبَ عقل راجح بصيرٍ بأحكام الله وشريعته.

أمَّا سيدنا يعقوب فهو حفيد سيدنا إبراهيم وولد سيدنا إسحاق عليهم صلوات ربي وسلامه، وهو إسرائيل الذي خاطب القرآن ذريته ونسبهم إليه في عدد من الآيات بقوله: "يا بني إسرائيل"، وهو الذي جاء فيه قول الله تعالىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وسيدنا يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد بشر الله به إبراهيم وزوجه عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ بعد أن بشرهما بإسحاق، كما دل علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هُودٍ: ٧١]، ومعلوم لديكم أن الفرح بولد الولد لا يقل شأنًا عن الفرح بالولد، لضمان صاحبه بقاء اسمه وذكره في الناس، وهذا مما فُطر عليه الناس وأحبوه.

وكأن الله تعالىٰ جازىٰ سيدنا إبراهيم علىٰ صلابته في دعوته، وثباته علىٰ المبادئ والعقيده، وهجرانه لقومه الذين أعلنوا صدودهم، وهجرته إلىٰ بلاد أخرىٰ ليعبد الله في الأرض وينشر دعوته، وكأن الله عوَّضه عن قومه المشركين بأبناء صالحين مصلحين، وبذرية طيبة مباركة يهتدي بها العاملون. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٤٩].

وسيدنا يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي جاء ذكر صبرِهِ القائم علىٰ تعلقه بالواحد الأحد، وصبره الذي لا يبث شكواه فيه ولا يُظهر حُزْنه إلا إليه، والذي طال فيه لقاؤه بأحب ولده إليه، وعَظُم فيه شوقه حتىٰ عَمِيَ بصرُه، وإليكم شيئًا من معاني التوكُّلِ علىٰ الله وحسنِ الظن به، مما قاله لأولاده مُربِّيًا ومعلِّمًا في قصة سيدنا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، وقال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وتأملوا كيف أخبرت الآية التي معنا هنا بأن الله هداهما إلى ما يحب ويرضى، ما أجملها يوم يكرم الله الأبناء بالهداية، ويحفظهم من الضلال، ويبارك لوالديهم فيهم ببركة صلاح هؤلاء الآباء وإقبالهم على الله.

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أكرم الله نبيه نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بالهداية والتوفيق والإعانة كما أكرم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولقد أرسله ربنا إلى قومه قبل أن يرسلهم بمدة زمنية طويلة، ولقد وهب الله له ذرية طيبة جعل فيها النبوة والدعوة كما جعلها في ذرية إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الْحَدِيدِ: ٢٦].

ونبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أول رسل الله سبحانه وتعالى، أرسله الله ليدعوَ قومه إلى التوحيد بعد أن أشربت قلوبهم حُبَّ الأصنام وعبادتَها، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفيه جاءت سورة كاملة في كتاب الله تعالى تذكر عطاءه الذي لم ينقطع في إرجاع قومه إلى عبودية الرب جل وعلا، وتذكر استفراغه لوسعه في بذل أسبابِ الدعوة وأساليبها فيهم لعلهم يهتدون.

كَفَرَ قوم سيدنا نوح بالله العظيم، ولم يستجبْ لدعوة نبيهم إلا قليلٌ منهم، ولمَّا أيِسَ من دعوتهم بعد أن هدَّدوه بالقتل دعا عليهم، فأغرقهم الله تعالى بالطوفان، وأغرق معهم زوجته وولده اللَّذَيْن سارعا في الكفر وماتا عليه، وما أعظمه من بلاء.

أخرجَ ابنُ حبّان عن أَبي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أنبيٌّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: "نَعَمْ مكلَّمٌ". قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وبين نوح؟ قال: "عَشَرَةُ قُرُونٍ".

وأخرجَ الحاكمُ في مستدرَكِه عن ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: "كان بينَ نوحٍ وآدَم عشرةُ قرونٍ، كلُّهُم على شريعةٍ من الحقِّ، فاختَلَفُوا؛ فبَعَثَ اللهُ النّبيِّينَ مبَشّرينَ ومُنْذِرينَ".

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: ومن ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء أنبياء الله المذكورون هنا وفي الآيات بعدها.

ورجوع الضمير هنا إلى سيدنا نوح لأنه أقرب مذكور في الآية، ولأن سيدنا يونس وسيدنا لوط من ذرية نوح وليسا من ذرية إبراهيم عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، وذلك على قول عند أهل العلم.

ولست أدري إن كنتم تستحضرون معي عظم هذه النعمة التي لا يدركها إلا من عاش شيئًا منها، أعني: أن يهب الله لك في ذريتك من يدعو إلى الله ويقوم بقائمة هذا الدين، وأن يكرمك بصلاح عيالك وهدايتهم واستقامتهم، فإنه من عاش ظلال هذه النعمة في حياته فهم عن الله تعالى مراده من التذكير بنعمه على أنبيائه.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ نبي الله داود هو الذي قتل جبَّارًا من جبابرة الأرض، فقد قتل جالوتَ يوم كان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جنديًّا في جيش طالوت.

وَصَفه القرآن الكريم بأنه أوَّاب، أي: رجّاع إلى الله كثيرُ التوبة والإنابة والخشية، وأرشد نبيَّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى الاقتداء به في الصبر على إيذاء أعدائه وكلامهم، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. وعبارة: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ تدل على القوة والشدة في العلم والعمل، وفيما فيه طاعة لله تعالى.

أخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللَّهِ صَلاَةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ». وفي رواية: "وَلاَ يَفِرُّ إِذَا لاَقَى".

سَخَّرَ الله معه الجبال يُسَبِّحْنَ، وكذا الطيرَ تشاركه تسبيحًا وطاعة، وألَان الله له الحديد، وعلمه صنعة الدروع واللباس، وجعل له هَيْبة في بني إسرائيل ومُلْكًا قويًّا سالمًا من غلبة الأعداء، وآتاه الفهم والفطنة والحكمة، والإصابة في القول والرأي. خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

ولقد آتاه الله زبورًا، والزبور بمعنى المَزْبور، أي: المكتوب، وهو لفظ يُطلق على أقوال سيدنا داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مما أوحاه الله إليه، ومما ألهمه إياه من الدعوات والمناجاة والحمد والتعظيم.

﴿وَسُلَيْمَٰنَ﴾ نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو ابن نبي الله داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو الذي بَرَّأه الله في كتابه مِمَّا نسبه إليه اليهود من الكفر واتباع السحر، وهو الذي كتب الله على يديه هداية ملكة سبأ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

كان بلاؤه عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنعم، فقد كان نبيًّا وملكًا من ملوك مملكة بني إسرائيل، وسخر الله له الجِنَّ والريح لخدمته وطاعته، وكان يفهم لغة الطير والنمل، وآتاه من المال والخيل الكثير الكثير، وهو الذي سأل الله تعالىٰ أن يكون قضاؤه وحكمه بين المتخاصمين صائبًا، وأن يؤتيه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب الله له الدعوتين.

﴿وَأَيُّوبَ﴾ هذا النبي قدوة عظيمة في الصبر علىٰ المرض، فقد ابتلاه الله به ثمانية عشر عامًا ليرفع قدره وينال بتسليمه الدرجات العلا، وليكون قدوة لغيره من العالمين.

وكان من عجيب بلائه أنه ابتلي في نفسه وأهله وماله، ولم يَدْعُ الله تعالىٰ إلا بعد كل هذه الأعوام، وكان دعاؤه تعظيمًا لله وتوحيدًا، ولم يقل: يا رب، ارفع عني البلاء، وإنما قال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

نادىٰ نبيُّ الله أيوبُ رَبَّه متوسِّلًا برحمته أن يعافيَه مما هو فيه، فاستجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يضرب الأرض برجله ففعل، فنبعت عينٌ من الأرض بأمر الله، وأمره أن يغتسل منها فَاغْتَسَلَ، فَزَالَ كُلُّ مَا بِظَاهِرِ بَدَنِهِ مِنَ الضُّرِّ.

ثم إن الله تعالىٰ أبقىٰ له أهله ولم يُصَب فيهم بمكروه، وزاده بعد ذلك بنين وحفدة علىٰ قول عند أهل العلم في التفسير.

﴿وَيُوسُفَ﴾ نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هو النبيُّ ابنُ النبيِّ ابنِ النبيِّ ابنِ النبيِّ، فأبوه سيدنا يعقوب، وجده سيدنا إسحق، ووالدُ جدِّه هو أبو الأنبياء سيدنا إبراهيمُ عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه. أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الكَرِيمُ، ابْنُ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ».

لقيه نبينا ﷺ في السماء الثالثة في قصة المعراج إلىٰ سدرة المنتهىٰ، كما دل علىٰ ذلك ما أخرجه مسلم، قال ﷺ: "ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ، إِذَا هُوَ قَد أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ" الحديث.

والعلماء في تفسير الحديث على رأيين:

الأول: أنه أوتي نصف الجمال وأوتي سائر الخَلْقِ النصف الآخر، ومنهم من قصره على الناس من أهل زمانه.

والثاني: جعلوا لفظة الشَّطر للمبالغة، أي: أعطي حظًّا عظيمًا من حُسْن أهل الدنيا وجمالِهم لأنَّ الشطر يُطلق ويراد به الجزء من الشيء. وقد جاء عند الحاكم وأبي يعلى عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الْحُسْنِ». والمقصود بأمه هنا جدَّة أبيه، وهي سارَّةُ زوجُ نبي الله إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقد كانت موصوفة بجمالها.

ولقد أشار القرآن العظيم إلى جماله في سورة يوسف في قصة النسوة اللاتي قطعن أيديهن لما خرج عليهن ورأينه، ووصَفْنه بأنك مَلَك من الملائكة وليس بشرًا.

ومما امتن الله به على أهل الجنة أن صورتهم فيها تكون كصورة نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما دلَّ على ذلك ما أخرجه الطبراني بسند فيه كلام عن الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ سِقْطًا وَلَا هَرِمًا - وَإِنَّمَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ - إِلَّا بُعِثَ ابْنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَانَ عَلَى مَسْحَةِ آدَمَ، وصُورَةِ يُوسُفَ، وَقَلْبِ أَيُّوبَ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عُظِّمُوا وَفُخِّمُوا كَالْجِبَالِ».

عاش عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بداية حياته في الشام، ثم انتقل إلى مصر وكان رسولًا إلى أهلها، كما دل على ذلك كلام مؤمن آل فرعون في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

ذكرَ القرآن الكريم اسمَ سيِّدِنا يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّتين، وكانتا في سورتَيْ الأنعام وغافر، ثم أفاضت آيات كتاب ربنا فيما يَقْرُبُ من مائة آية متتابعة في سورة يوسف ببيان حال هذا النبيِّ الذي كان بلاؤه مختلفًا عن غيره من إخوانه الأنبياء، فهو لم يواجه عدوًا يهدده باستئصال دعوته والقضاء على الدين وأهله، ولكنه عايش أنواعًا أخرى من الآلام التي قطف ثمرة الصبر عليها مع شدتها وصعوبتها.

يحسد إخوة سيدنا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخاهم على قربه من قلب أبيه، فيكيدون له ويلقونه في البئر، ويزعمون أن الذئب أكله، ثم يجده تجار راحلون إلى مصر فيأخذونه ويبيعونه لعزيز مصر بدراهم قليلة، وينشأ ويكبر في حياة الرغد والراحة، وتراوده زوجة العزيز عن نفسه ليقع في الفاحشة معها فيأبى، ويُلقى في السجن بضع سنين، ثم يخرج من السجن بفضل تأويله للرؤيا وظهور براءته بعد سؤال النسوة عنه وإقرار امرأة العزيز، ثم يستعمله الملك على أموال مصر فيُحْسن فيها، ويجتمع أخيرًا بأهله جميعًا في مصر.

تجدون في قصة هذا النبي رفعًا لشعار الطُّهر والعفة في أرقى الصور وأجمَلِها، وصبرًا عن معصية الله التي اقتربت كثيرًا، وتسليةً لكل من أصابه همٌّ أو أذى بسبب قرابة أو غيرها، ووصفًا لما كانت عليه الأمم قديمًا، وغيرَ ذلك مما يلزمنا في طريق عبوديتنا ودعوتنا واستخلافنا في هذه الأرض.

آيات قصة سيدنا يوسف لا ينتفع بها إلا من فتح قلبه لها، واستسلمت جوارحه لرقيِّها وعظمتها، فإن فيها صبرًا عظيمًا على البلاء الذي تنوع وتعدد، وفيها قطفٌ لثمرة هذا الصبر في الدنيا، فضْلًا عما ينتظر أهله في الآخرة، وفيها بيانٌ نافعٌ للحسد وعواقبه وفقه التعامل معه، وفيها بيان كرم الله الذي يأتي بعد الثبات أمام البلاء، فلقد كان حسد إخوانه له وإلقائه في الجب سببًا لأن يتبوأ الغلام مكانة عزيز مصر، وكان دخوله إلى السجن سببًا في معرفة علمه وأمانته وقوته، وكانت مراودة زوجة العزيز له سببًا لإظهار عفته التي لم يساوم عليها لحظة، وكان دوام اعتصامه بالله ولجوئه إليه ونسبة الفضل له وحده سبحانه مفتاح ثباته وَفَلاحِه، وكانت رياسته لمصر فرجًا على إخوانه وعونًا لهم على صعوبة الحياة، وقيسوا على ذلك لتفقهوا حياتكم على الوجه الصحيح والمعقول.

﴿وَمُوسَىٰ﴾ النبي العظيم الذي أرسله الله إلى فرعون الذي كان يحكم مصر، ويقول للناس: أنا ربكم الأعلى، ويقول لهم: ما علمت لكم من إله غيري، ويطلب من هامان أن يبني له بناء يصعد فيه إلى الأعلى ليقابل ربنا جل جلاله، وكان مستعبِدًا لبني إسرائيل فيها، يعذبهم، ويذبح أبناءهم، ويستخدم نساءهم في أرذل المهن ويمتهن كرامتهن.

ألقت أم موسى به في البحر وهو رضيع خشية أن يقتله فرعون، فيشاء الله أن يلتقطه آل فرعون وينشأ عندهم في قصرهم، ثم أكرمه الله بالحكمة والعلم، وأعطاه القوة، فوكز رجلًا من قوم فرعون فقتله بالخطأ، فخرج هاربًا من مصر إلى أرض مَدْين، وتزوج من بنت الرجل الصالح بعد أن أمْهَرها عشر سنين خدمة عند أبيها.

خرج موسى بأهله فضَلَّ الطريق، فرأى نارًا فجاءها لينتفع منها ويأخذ حاجته من الإضاءة والتدفئة، وهناك: اصطفاه الله بكلماته ومعجزاته، وأمره بأن يسير إلى فرعون ليدعوه إلى شهادة التوحيد، فخشي أول الأمر ثم ربط الله على قلبه وسار إلى فرعون داعيًا ومذكرًا وواعظًا. قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥].

دعا نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فرعون بالقول اللين، وأراه المعجزات والآيات التي كثرت وتنوعت، فقابله بالجحود والكفران والطغيان وتعذيب المؤمنين، حتى وصل إلى قرار التخلص منه وممن معه وقتلهم، ففر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه من المؤمنين، فأدركهم فرعون بجنوده فأغرقهم الله. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٦٠-٦٨].

بدأت بعد ذلك معاناته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع بني إسرائيل الذين رأوا عجائب قدرة الله بأعينهم، فطلبوا منه اتخاذ صنم ليعبدوه، وتذمروا لقلة الطعام والماء وحرارة الشمس، فأكرمهم ربهم بما أرادوا، ثم عبدوا العجل لما ذهب موسى إلى لقاء ربه، ولم يؤمنوا بالتوراة حق الإيمان، وجبنوا عن دخول الأرض المقدسة، وهي بيت المقدس، فدعا عليهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وعاقبهم ربهم بالتيه في سيناء مصر.

عاش عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حياة مليئة بالبلاء، وكان فيها قويًّا أمينا، قويًّا في بدنه وقويًّا في دعوته، أمينًا على رسالته وعلى أعراض الناس وعقولها، وكان عالمًا حسن التوكل على الله والثقة به، داعيًا ربه مستعينًا به في جميع أحواله.

رآه ﷺ في رحلة المعراج في السماء السادسة، وأخبر عن بعض صفاته في خلقته، وكذلك طلب من النبي ﷺ أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف لما فُرضت الصلاة خمسين مرة في اليوم والليلة، ولا زال ﷺ يراجع ربه بمشورة نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتى صارت خمسًا في

الأداء وخمسين في الثواب. أخرج البخاري عن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَىٰ رَجُلًا آدَمَ طُوَالًا (طويلًا) جَعْدًا (شعره فيه التواء وتقبض وليس مسترسلًا وناعمًا) كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ» وشنوءة هذه اسم قبيلة كان لها صفات معروفة عند الصحابة.

وأخرج البخاري ومسلم في قصة المعراج: "فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَىٰ، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كل يوم وليلة، فنزلتُ إلىٰ موسىٰ ﷺ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ! خَفِّفْ عَلَىٰ أُمَّتِي، فحَطّ عَنِّي خَمْسًا. فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. قَالَ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَبَيْنَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّىٰ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً" الحديث.

﴿وَهَٰرُونَ﴾ هو الأخ الذي رحم الله به نبيَّه موسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كما في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]، تميَّز بالرفق، وكان يتحلىٰ بالحكمة والصبر.

عاش مع أخيه نبي الله موسىٰ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ في مصر، وجاء ذكره في القرآن أكثر من عشرين مرة، يشد علىٰ يد أخيه في الدعوة إلىٰ الله أمام أكبر طاغية عرفته الأرض، ويتكلم بلسان فصيح يبين عظمةَ الخالق ووحدانيتَه وحقَّه علىٰ العباد.

جاء الثناء عليه في كتاب الله لإنكاره علىٰ بني إسرائيل الذين سارعوا في الكفر والردة بعد أن أُشربت قلوبهم حب العجل، وذلك لما ذهب موسىٰ لميقات ربنا يكلمه وترك معهم أخاه هارون.

لَقِيَه نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في رحلة المعراج في السماء الخامسة، كما أخرج البخاري عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ، وجاء في ذلك: "حَتَّىٰ أَتَىٰ السَّمَاءَ الخَامِسَةَ، فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ (أي: جبريل): هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ".

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ انظروا في جزاء من أحسن في عقيدته وعبادته ودعوته، واعلموا أن هذا الإكرام والإنعام الذي أعطاه الله لأنبيائه ورسله ينال كل محسن من الناس إلا في النبوة، فإنها انقطعت ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

ولعلكم تلحظون أن الأنبياء المذكورين هنا قد ابتلوا بالحُكْم في أقوامهم والرياسة فيهم بشكل من الأشكال، ولعل تزكيتهم هنا ووصفهم بالإحسان إنما كان لصبرهم على دعوة أقوامهم وإحسانهم في نعم الله التي لم تصرفهم عن الجادة والصراط المستقيم، فهؤلاء أحسنوا في أمور دنياهم وإدارتها، وأحسنوا بثبات قلوبهم على تعلقها بالواحد الأحد لا إله إلا هو.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾

سيدنا زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي كفل أمنا مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ بتقدير من الله، وذلك بعد أن استهموا وكانت القرعة بينهم على من يكفلها، فكفلها بالقيام على شؤونها ورعايتها وتعليمها والإنفاق عليها، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه زوج أختها، ولذلك كان سيدنا يحيى وسيدنا عيسى ابنَي خالة، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم في حديث المعراج، واللفظ لمسلم، أنه ﷺ قال: "فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ".

وسبب كفالة زكريا لها، أن أمها نذرتها لله، وأبوها عمران مات قبل ولادتها كما ذكر أهل التفسير، فدفعتها أمها لصالحي بني إسرائيل ليكفلها أحدهم في بيته ويشرف على تربيتها.

وقد كانت كفالته لها، بعد أن تنازعها وتخاصم فيها وتسابق عليها عدد من أحبار بني إسرائيل وصالحيهم، فكانت القرعة لسيدنا زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

كان نبيًّا إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى التوحيد، ولقد ابتلاه الله بعدم إنجاب الولد حتى كبرت سنه وأصبحت زوجته عقيمًا لا يلد أمثالها، فلما رأى عجائب قدرة الله في كفالته لأمنا مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، دعا ربه دعاء موقن متذلل للرب العظيم بأن يرزقه الله ذرية، ويصلح له زوجه لتكون قادرة على الحمل والولادة، فاستجاب الله له وبشرته الملائكة وهو قائم في المحراب يصلي بولد سماه الله له، وهو يحيى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكان اسم يحيى جديدًا في العالمين، فقد أحياه الله من بين شيخ كبير وعجوز عاقر.

قال الله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

فلما جاءته البشرى بالولد طلب من الله تعالى آية على أن هذه بشرى من الله وستكون، وأن حمل الزوجة حاصل، فكانت تلك الآية والعلامة في أنّ الله تعالى منعه من القدرة على الكلام، وحبس لسانه عن النُّطق لمدة ثلاثة أيام، فكان لا يكلم الناس إلا بالإشارة باليد أو الرأس، كما جاء ذلك أيضاً في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مَرْيَمَ: ١٠]. وسويًّا، أي: إن لسانه سويٌّ صحيح ليس به مرض أو علة أو خرس، ومع ذلك لا يستطيع الكلام لأن الله تعالى أوقفه.

﴿وَيَحۡيَىٰ﴾ وهو ابن نبي الله زكريا عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، ومن كرامته عند الله أن سمَّاه بنفسه وكان أول من أعطاه الاسم، وأرسله نبيًّا إلى بني إسرائيل، ولقد اصطفاه ربنا بالنبوة، وآتاه الفهم في الكتاب، وآتاه القدرة على الحكم وهو صبي، فكان يدعو إلى الله ويأمر وينهى وهو صغير.

أكرمه الله رحمة منه بالعناية وتزكية النفس والتقوى، وأعانه وحفظه، وأثنى عليه كتاب ربنا ووصفه بأنه كان بارًّا بوالديه ورحيمًا بهما ولا يؤذيهما، وأنه لم يكن جبارًا ولا عصيًّا، أي: لم يكن يضرب ويقتل ويؤذي عند الغضب، ولا مالت نفسه إلى معصية، بل كان مقبلًا على الله معرضًا عما سواه.

أمره الله تعالى أن يأخذ الكتاب بقوة، أي: أن يكون جادًّا في فهمه وبيانه والحكم به، وأن لا يصده الصادون عن دعوته وتبليغه، فكان كما أراد الله، فأكرمه بالثناء العظيم عليه في العالمين، وسلّم عليه يوم مات كما سلَّم عليه يوم ولد، وله كرامة بذلك يوم يبعثه الله حيًّا. قال الله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٢-١٥].

ومن عجيب وصفه في كتاب الله قوله سبحانه في بشرى الملائكة لنبي الله زكريا: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، فسيدنا يحيى كان مسارعًا بتصديق سيدنا عيسى بن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الذي خُلق بكلمة الله، وكان مسارعًا للإيمان به لمَّا خرج بدعوته ورسالته، وكان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ سيِّدًا، أي: قُدوة في الرأي والعلم والعبادة والخُلق، وهذا يدل على أنه سيفوق قومه في الخصال والصفات الحميدة حتى يقدموه على أنفسهم.

وكان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حصورًا، أي: لا يقدر على إتيان النساء وجماعهن، بل حُصِر عن ذلك، فلا يأتيه أولاد.

وقد أورد أهل العلم سؤالًا هنا وأجابوا عنه، فقالوا: أين المِنَّة والإنعام في كونه حصورًا لا يأتي النساء، مع أن عدم القدرة على النكاح تُعدُّ نقصًا في الرجال؟

وأجابوا عن ذلك بأنَّ وجه الفضل والإنعام يكمن في عصمة نبي الله يحيى عن إتيان الذنوب المتعلقة بذلك، ثم في حفظ الله تعالى له من ذلك، ثم في تفريغ قلبه للعبودية وقطع أكثر ما يشغله عن ذلك.

ومن أهل العلم من لم يرتض هذا المعنى، بل ردّه وبيّن أن سيدنا يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يُحرم الأبناء والقدرة على الجماع والإنجاب، وإنما حصر الله تعالى نبيَّه عن الفواحش وعن الرغبة في النساء والفتنة بهن، وحفظه من ذلك، واستأنسوا لتفسيرهم هذا بسؤال ودعاء زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربه بأن يعطيه ويهبه ذرية طيبة، والذرية تشمل الأبناء وأبناءهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بني إسرائيل قتلوا سيدنا زكريا وسيدنا يحيى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، كما جاء في بعض الآثار عن الصحابة والتابعين، ولكنه لم يصح شيء في ذلك من الكتاب أو السنة، ولكن جاءت الآيات المتعددة بأن بني إسرائيل كانوا يقتلون الأنبياء ويكفرون بالله.

﴿وَعِيسَىٰ﴾ هو نبي الله ورسوله الذي أرسله إلى بني إسرائيل كذلك، وقد جاءهم بالإنجيل الذي نسخ بعض أحكام التوراة، وبشر بمبعث محمد ﷺ رسولًا للعالمين، ثم انقطع من بعده إرسال الرسل والأنبياء حتى جاء الرحمة المهداة نبيُّ هذه الأمة ﷺ.

وسيدنا عيسى هو ابن سيدتنا مريم وحفيد الرجل الصالح عمران عليهم جميعًا سلام ربي، وهو الذي خلقه الله بكلمة كُنْ دون أن يكون له أب، وآتاه من المعجزات الكثير ككلامه في المهد وهو صغير، وكإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وكالنفخ في الطين ليكون طيرًا، كل ذلك بإذن الله. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦].

رآه ﷺ في رحلة المعراج وأخبر عن بعض صفاته في خِلْقته، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري عن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعًا (ليس قصيرًا ولا طويلًا) مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ (معتدل الخِلقة و لون البشرة) سَبِطَ الرَّأْسِ".

وأخرج البخاري ومسلم عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: "بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ (يميل إلى السمرة وليس أسمرًا) سَبِطُ الشَّعْرِ (مسترسل غير متجعد) بَيْنَ رَجُلَيْنِ، يَنْطِفُ رَأْسُهُ مَاءً (يقطر)، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا ابْنُ مَرْيَمَ".

بعث الله سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بني إسرائيل، ودعاهم بدعوة سيدنا موسى والأنبياء جميعًا من قبله، وجاءهم بمعجزة إبراء الأعمى والأبرص والأخرس، وإحياء الموتى بإذن الله، وشكَّل الطين على هيئة الطير ثم نفخ فيه فكان طيرًا بإذن الله، كل ذلك دلالة على أنه رسول من عند الله، وَمَعَ هَذَا كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وسَعَوا في إيذائه أولًا، ثم أرادوا التخلص منه لمخالفته بعض ما هم عليه، فذهبوا إلى ملك ذلك الزمان وأخبروه أن هناك رجلًا يَفْتِن الناس ويضلُّهُم، وأنه يفسد الرعايا على الملك، يقصدون بذلك سيدنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

كتب هذا الملك إلى نائبه في القدس وطلب منه أن يقتل سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويصلبَهُ ويريحَ الناس منه، فامتثل النائب لأمر الملك، وذهب هو واليهود إلى المنزل الذي فيه سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فألقى الله شبَهه على رجل آخر غيره، فأخذوه وصلبوه.

واليهود لم تقتصر دعواهم على قتله، ولكنها امتدت إلى زعمهم بأنهم صلبوه، والصلب هو أن يُرْبط الشخصُ على خشبةٍ، وتمدُّ يداه جانبًا، وهذا الصلب قد يكون قبل القتل أو بعده.

عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يقتل ولم يصلب، ولكن صورته وقعت على غيره فظنوه هو، فكان كلامهم في ذلك كلامَ كذب وافتراء وزور وبهتان.

لم يكن الجنود الذين جاؤوا لأخذه يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية، ولذلك استعانوا بغيرهم ليدلهم عليه.

لقد ضل النصارى في دينهم بسبب غلوهم في عيسى عيه السلام، فزعموا أنه ابن إله أو إله أو ثالث ثلاثة، ونسبت طوائف منهم لأمه الألوهية فضلوا ضلالًا بعيدًا.

﴿وَإِلْيَاسَ﴾ إليكم قصته التي جاءت في كتاب الله، والتي قال الله تعالى فيها: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣-١٣٢].

دلت الآيات على أنه دعا قومه لترك عبادة الصنم الذي كانوا يسمونه (بعلًا)، ودعاهم إلى عبادة الله وحده رب الناس كلِّهم، فكذبوه إلا عددًا منهم كانوا ممن أخلصوا دينهم لله فاصطفاهم ربنا وثبَّتهم.

بلغ من قَدْره عند الله أن جعل الله له سلامًا منه سبحانه، ووصفته الآيات بأنه أحسن في عقيدته وعبادته ودعوته لقومه، وأنه كان من الذين صدقوا في إيمانهم وأخلصوا.

﴿ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ شهادة من الله تعالى لأنبيائه ورسله الذين رفع لهم ذكرهم في العالمين، شهادة تكفيهم لتقرَّ أعينهم في الدنيا والآخرة، وتكفينا لنقتفيَ آثارهم ونتبع خطاهم، سائلين الله تعالى الثبات حتى الممات.

كل ما تكلمنا فيه من مختصر سيرتهم استحضروا معه هذه التزكية الربانية لهم، وكفى بها من تزكية.

واستحضروا أن السير على خطاهم سببٌ من أسباب تزكية الله لنا وحفظنا وتثبيتنا وهدايتنا، اللهم بلغنا درجاتهم.

ولعلكم تلحظون أن الأنبياء المذكورين هنا تجمعهم صفات الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها، والرغبة عن جاهها وسلطانها، ولذلك اقتصر وصفهم على الصلاح في حق أنفسهم وكذا في حق دعوتهم.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

نبيُّ الله إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الرضيع الذي كان مع أمه هاجر في مكة يوم بحثت له عن ماء، وهو الذي كبر وأصبح شابًّا ورفع قواعد الكعبة مع أبيه سيدنا إبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ لما أمرهما الله بذلك.

ابتلاه ربنا ببلاء عجيب إذ أمر والده أن يذبحه بسكين، فلما أخبره والدُه بالرؤيا التي رأى فيها أنه يذبحه طلب إلى والده أن يبادر بالاستجابة لأمر الخالق المنان الكريم، فأكرمه الله وحفظه من القتل، وفداه بكَبْش عظيم.

مدحه كتاب ربنا بأنه غلام حليم، وأنه كان صِديقًا في عقيدته ودينه، وصادقًا في وعده، وجاء الثناء عليه بأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وأن الله تعالى رضي عنه، ولم يكن من ذريته أنبياء إلا نبيًّا واحدًا هو محمد ﷺ.

جاء وصفه في القرآن بأنه رسول ونبيٌّ، كما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

قال أهل العلم: كان داعية إلىٰ قبائل جُرْهم التي أقامت في مكة، وكذا إلىٰ قبائل العماليق وأهل اليمن.

﴿وَٱلۡيَسَعَ﴾ وصفه ربنا جل وعلا بالخيرية في قوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: ٤٨]، ووصفه هنا بأنه من أنبياء الله الذين فضلهم علىٰ العالمين، وهذا إن دلَّك علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ عظم مكانة هذا النبي وعظم دعوته، بل عظم صبره وثباته علىٰ الحق، بل عظم إيمانه بالله وعبادته.

أوجز القرآن العظيم بذكره، ونقف في بيان دعوته مع ما وقف عليه كتاب ربنا.

﴿وَيُونُسَ﴾ نبي الله يونسُ بن متَّىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الذي سُمِّيت سورةٌ كاملة باسمه في القرآن العظيم، وهو النبي الذي بعثه الله تعالىٰ في أهل نَيْنَوىٰ في العراق، فأعرضوا في أول أمرهم عن دعوته ولبثوا عاكفين علىٰ أصنامهم، فغضب منهم وخرج من ديارهم بعد أن استفرغ وسعه في دعوتهم وتذكيرهم، خرج قبل أن يأذن الله له في ذلك، فركب في سفينة ثقلت بأهلها فكانت القرعة بينهم ليُخَففوا الحِمْل بإلقاء أحدهم في البحر، فوقعت القرعة عليه، فابتلعه الحوت وأحياه الله في بطنه، ثم دعا دعوته التي تطير بها قلوب المحبين وتلهج بها ألسنة الذاكرين، قال سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

أخرج أحمد والترمذي وغيرهما عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ".

أكرم الله نبيه يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأصلح له قومه وهداهم، وأخرجه من بطن الحوت، وأنبت له شجرة من يقطين يستعين بها علىٰ صعوبة الحال، ثم أرجعه إليهم ليعيش بينهم مُعلمًا وهاديًا، فتأملوا كيف كان تسبيحُه مفتاحًا لنجاته، وتأملوا جمال التعقيب القرآني لكل المؤمنين في قوله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

﴿وَلُوطًا﴾ تكررت قصة هذا النبي العظيم مع قومه في مواطن متعددة من القرآن الكريم، ومعلوم لديكم أنه آمن مع سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكان ابن أخيه كما ذكر عدد من المؤرخين، وهاجر معه إلى الشام، وكان قومه الذين أُرسل إليهم يمارسون فاحشة تدل على فساد طبائعهم وانصرافهم عن الهدى، وذلك بعد أن كفروا بالله العظيم وصدوا عن سبيله.

يدعوهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى عبادة الله وترك إتيان الذكور من دون النساء، وأرشدهم إلى الزواج الذي هو فطرة الله في خلقه، وتوعدهم على سوء صنيعهم إن لم يتوبوا ويستجيبوا، فما قابلوا دعوته إلا بالاستهزاء والاستخفاف بوعيد الله، وبمعاداته ومن معه.

وكان من بلائه أن امرأته كانت تدل قومه على أضيافه دون علمه، فكانت بذلك من الخائنين لزوجها، فأرسل الله ملائكة إلى سيدنا لوط ليطمئن بحفظ الله له، وقلبت الملائكة الأرض التي كانوا فيها على رؤوسهم مع زوجته، وجعلت عاليها سافلها، وأمطرت السماء عليهم حجارة مخلوطة بالطين مُعلَّمة ومخصَّصة للعذاب، ونجَّى الله لوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه برحمة منه وفضل.

قصةٌ تحوي عجائب من المواعظ والهدايات لمن تأملها وتبصرها، كباقي قصص رسل الله وأنبيائه. قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كرمٌ متتابعٌ من الله على خيرة خلقه، وتفضيل لهم على سائر البشر بالنبوة والوحي والرسالة والمعية الخاصة، فضلًا عن الهداية والثبات على الدعوة والعلم.

فَضَّل الله الأنبياء المذكورين هنا على أهل زمانهم ممن أرسلوا إليهم، ولا زال التفاضل سنة من سنن الله الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل، حتى بين أنبياء الله، جمعنا الله بهم جميعًا في أعالي الجنان.

واعلموا أن الله تعالى ذكر في هذه الآيات ثمانية عشر نبيًّا من جملة خمسةٍ وعشرين مذكورين في القرآن، والمتبقون هم آدم وإدريس وهود، وصالح وشعيب وذو الكفل ومحمد، عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

وهذا من تمام النعمة على أنبياء الله تعالى الذين أكرمهم ربنا بصلاح أهليهم من الآباء والأبناء والإخوان والأخوات، وهذا على غالب أحوالهم، فقد وجد من أهليهم من كان عدوًّا لرسالتهم كما هو حال ابن سيدنا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وزوجته، وكذلك زوجة نبي الله لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكذا والد سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

اجتباهم ربنا، أي: خصَّهم بواسع فضله وهدايته، فشرح الله صدروهم للتقوى، وأرشدهم إلى الصراط الصحيح الذي يُرْضي الله عنهم، وأعانهم وسددهم في طريق سيرهم فيه.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم من يستحق هدايته وتوفيقه ممن لا يستحق، وهو صاحب الفضل والإنعام في كل ما نجده في صدورنا من نور وهداية، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

ربنا علم إقبال أنبيائه عليه، وتجردهم للحق، وتركهم المكابرة والعناد، وطلبهم للخير والهدى، فأعطاهم ربي وأرضاهم، ونسأله سبحانه أن يكرمنا جميعًا بما هو أهله.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذه قاعدة عظيمة من قواعد القبول عند الله تعالى، والفوز بمرضاته والجنة، وهي أن الأعمال الصالحة لا تقبل عند الله تعالى بدون توحيد صحيح، فإن وجدت وكان صاحبها متلبسًا بالشرك فلا ينتفع منها بشيء، ولن يُغفر الشركُ لأحد وإن كان من كان. قال الله تعالى مخاطبًا نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

تخبرنا الآية أن الله تعالى جعل فيمن ذكرتهم الآيات السابقة النبوة، وآتاهم كتابًا فيه أوامر الله ونواهيه، ومنهم من جعله يحكم بالكتب التي أنزلت على الرسل من قبلهم، كل ذلك رحمة منه بالعباد ولطفًا بالخليقة سبحانه.

وأخبرت الآية أن الله تعالىٰ آتاهم الحكم، أي: القدرة علىٰ الفصل في الأحوال والأقضية التي تأتيهم، يفصلون فيها علىٰ حكم الله تعالىٰ ومنهاجه.

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وعيد من الله لأهل مكة إذا كفروا بالكتاب والحكم والنبوة، وعلىٰ رأسها نبوة محمد ﷺ والقرآن، فلفظة ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ ترجع علىٰ أهل مكة، ويكون تمام هذا الوعيد أنهم إذا كذبوا بالرسالة فلن يجعل عزَّهم فيها، بل سيجعلها في قوم آخرين يستجيبون فور دعوتهم، وقد جعلها الله في المهاجرين والأنصار الذين أقبلوا علىٰ الإيمان وسارعوا فيه، وحملوا هذا الدين علىٰ أكتافهم للعالمين، ما أعظمها من تسلية لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولنا.

وقد سار علىٰ نهج المهاجرين والأنصار أقوام من التابعين وممن تبعهم علىٰ الخير والهدىٰ إلىٰ أيامنا هذه، بل إلىٰ يوم الدين، آمنوا وصدقوا ولم يجحدوا شيئًا من عقيدتهم وشريعتهم، ولم يردُّوا حرفًا واحدًا علىٰ منزل الشريعة جل وعلا، ولا علىٰ مبلغها ﷺ.

واعلموا أن ذكر الأنبياء والرسل هنا في معرض محاجة أهل الشرك والكفر يحمل نداء لهم ويقول: كل من ذكرت الآيات هنا علىٰ خلاف عقيدتكم الباطلة، وكلهم كانوا دعاة إلىٰ التوحيد، وكلهم سيجزيهم ربهم بالدرجات العلا في الجنات.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

وصية عظيمة لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد ذكر أحوال أنبياء الله، وذكر منزلتهم عند خالق السماوات والأرض، وذكر هدايتهم التي شاءها لهم، وصية تأمره باتباعِ هديهم في دعوتهم وأخلاقهم وتزكية نفوسهم، واقتفاءِ أثرهم في محاجة أقوامهم ومدافعتهم، والانتفاعِ من قصصهم في الصبر والشكر، والشجاعة والحِلْم، والإيثار والزهد، والسخاء والبذل، والحكم بالعدل.

قال الله تعالىٰ كما مرَّ معنا في الآيات: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال جل وعلا: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وتقرأ في هذه الوصية الربانية العظيمة تثبيتًا لقلب النبي ﷺ بأنه ليس بِدْعًا من الرسل، وأنه امتدادٌ لخيرة خلق الله في أرضه وخاتمٌ لهم، وأنه ﷺ له مكانة عظمىٰ عند الخالق لمَّا أعطاه صفاتِهم وفِعالَهم لعلها تكون كلها فيه ﷺ، وقد كانت. قال الله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [النَّحل: ١٢٣].

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قل لقومك الذين قصصت عليهم قصص الأنبياء من قبلك، مما يعرفون صدقك فيه، قل لهم: لا أريد منكم منصبًا أو ملكًا أو مالًا علىٰ ما أقوله، وكل ما أقصده ببلاغي ودعوتي هو أن تتذكروا وتتعظوا وتحيا قلوبكم بالإيمان، وتفقهوا طريق أهل الجنان فتُقْبلوا، وتعلموا طريق أهل النار فتفروا، هذه رسالتي لكل العالمين من الإنس والجن.

وكأن ختام الآية يشير إلىٰ ما يلمز به أهل الكفر ورؤوس الفسق أهلَ الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنهم يطلقون ألسنتهم فيهم، ويتهمونهم علىٰ الدوام بأنهم طُلاب مناصب وتجار دين، وهذا ديدنهم في كل زمن، ولكن أهل البصيرة لا تهزهم مثل هذه العبارات ولا تثني عزائمهم، فيمضون ليكونوا أسياد العالم ليس لهم همٌّ إلا أن تسود الشريعة ويرضىٰ مُنزلها جل جلاله، وتقدست أسماؤه.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾

المكذبون لرسل الله أو لواحد منهم، لم يعظموا الله تعالىٰ حق التعظيم، ولم يقدروا لذي الجبروت والمكلوت والكبرياء والعظمة قَدْره، ولم يدركوا حكمة الله ورحمتَه ولطفَه بالخلق بإنزال الكتب وإرسال الرسل، فزعموا زورًا وبهتانًا أن الله تعالىٰ لم ينزل علىٰ محمد ﷺ شيئًا، وأن ما جاء به من القرآن والسنة إنما علمه إياه بشر، أو أنه يتعامل بالسحر والكهانة، بل وصل المقام بهم إلىٰ قولهم: إنه كذاب.

لقد تعجب أهل مكة من نزول الوحي علىٰ بشر منهم، فأنكروا الرسالة، ونصبوا راية العداء العجيبة لخير البشر عليه صلوات ربي وسلامه، مع أنهم كانوا يقولون: إنهم علىٰ دين أبيهم

إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويعلمون عن رسالة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى بني إسرائيل، والتي اشتهر أمرها في العرب وتواتر، وعلموها من اختلاطهم بيهود المدينة، ومن الوفود التي أرسلوها إليهم يسألونهم عن صدق نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. قال الله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يُونُس: ٢]، وَقَالَ سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الْإِسْرَاءِ: ٩٤].

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ قل يا محمد ﷺ لهؤلاء المعاندين الجاحدين، قل لهم مُشنِّعًا عليهم ومُبينًا لفساد ما يعتذرون به: من الذي أنزل التوراة على سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيها هداية للناس وبيان للحق من عند الله ؟ ومن الذي جعلها منارة للعلم والاهتداء ؟ ومن الذي دلكم على خالقكم عن طريق رسالة محمد ﷺ كما دل بني إسرائيل من قبل عن طريق أنبياء ورسل كثيرين ؟

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يذكر لهم سيِّدَنا إبراهيم مع أن معرفتهم به أكبر ، وإيمانَهم به أشد ؟ والجواب أن السياق القرآني هنا يبين معركة حامية يخوضها أهل الكفر حول القرآن، لأنهم يعلمون أن إسقاطَه وإنكارَ نزوله إسقاطٌ للدين واستئصالٌ له، ومعلوم لديكم أن ذِكر التوراة ألصق بالدفاع عن القرآن، ووجه ذلك أن صحف سيدنا إبراهيم لم تكن معلومة عند أهل مكة كعلمهم بتوراة موسى عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، فكانت إقامة الحجة عليهم بذكر التوراة أقوى وألزم. قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [سبأ: ٣١].

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ وقل لهم: إن الذين ائتمنهم الله على التوراة واستحفظهم على ما فيها، قد خانوا العهد وكذبوا على الله، وجعلوا هذه التوراة قراطيس محرفة، أي: قطعًا وصحفًا من الجلد والورق وما يكتبون عليه من أدوات، وكانوا ينقلون فيها عن التوراة الأصلية، ويُنْقصون منها ويزيدون عليها، ويبدلون ويتأولون بحسب أهوائهم، ويُظهرون منها صحفًا ويُخفون أخرى، يفعلون ذلك بقصد إضلال الناس عن الحق وإخفائه، لأن نسخ التوراة لم تكن بيد عوامهم، بل كانت عند أحبارهم فقط، وهذا دليل من أدلة تحريف التوراة التي نؤمن بأنها كتاب أنزل من عند الله.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ الْيَهُودَ جَاؤُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ

فِي شَأْنِ الرَّجْم. فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَام: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ، فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْم، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَام: ارْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْم، قَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَا، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَحْنِي عَلَى الْمَرْأَةِ، يَقِيهَا الْحِجَارَةَ".

ولا يفوتكم أن الله تعالىٰ ذكر أمرًا آخر حصل عند أحبارهم، وهو أنهم نسوا شيئًا من هذه التوراة بعد مدة من الزمن، كما قال ربنا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

ولقائل أن يقول: ولماذا أصبح الخطاب هنا موجهًا لليهود الذين جعلوا التوراة قراطيس وتلاعبوا بها، مع أن السياق يتكلم عن كفار مكة وصناديدها ؟

والجواب أن هذا أسلوب معروف في العربية، يستعمله أهلها، وهو أسلوب الإدماج، أي: الخروج من الخطاب إلىٰ غيره، فكأن الآيات تخاطب أهل الكفر في مكة، وتريد إيصال رسالة لليهود وإن لم يكونوا حاضرين.

أو يُقال: جاءت قراءة أخرىٰ صحيحة هنا بلفظ ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بلغة الإخبار لا الخطاب، فكان هذا إخبار من الله لأهل مكة عما فعله اليهود بتوراتهم يوم فرَّطوا في حفظها.

مع الإشارة إلىٰ أن عددًا من أهل العلم والتفسير -خلافًا لجمهورهم- ذهبوا إلىٰ أن السياق جميعه يتكلم عن اليهود لا عن أهل مكة، وأن هذه الآيات فقط من سورة الأنعام مدنية نزلت بعد الهجرة، بخلاف باقي السورة كما أسلفنا في أولها.

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وقل لهم: كيف تنكرون نزول شيء علىٰ رسول من البشر وهذا القرآن بين أيديكم سمعتم منه بعضه وعلمتم إعجازه ؟ ومن الذي أنزل هذا القرآن الذي حوىٰ علمًا لا تدرون عنه شيئًا، لا أنتم ولا آباؤكم ؟ ومن أنزل هذا الكتاب الذي حوىٰ علم الأولين والآخرين، وخفَّفَ عنكم وأرشدكم ودعاكم إلىٰ عِزِّكم ؟ قال الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ قل لهم جوابًا لا يسعهم غيره لو كانوا منصفين، قل لهم: إن الذي أنزل الكتابَيْن علىٰ الرسولَيْن كما أنزل غيرهما علىٰ غيرهما من الرسل هو الله رب العالمين جميعًا.

بيِّنْ لهم الحق ودافعْ عنه، وكن واثقًا به قويًّا في البلاغ، ثم اتركهم في جهلهم وضلالهم وما يخوضون فيه، واتركهم يستهزؤون ويسخرون، فإن لهم موعدًا بين يدي الله سيعلمون عنده أن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله تعالىٰ من ورائهم محيط، وهو لهم بالمرصاد.

والإعراض عنهم وعن اعتدائهم علىٰ الدين وخالقه ومنزله، كان مأمورًا به في مكة، بخلاف الأمر في المدينة بعد الهجرة، وبعد أن قويت شوكة المسلمين.

تأملوا كيف جاء السياق في بيان حال أهل الكفر مع الدين، وكيف اتخذوه لعبًا ولهوًا بعد أن تتابعت الحجج والبينات والمعجزات والدلائل،، وكيف خفَّ وزنه وقدره في قلوبهم، ثم تعالوا لننظر في أنفسنا نحن وفي حالنا، هل بلغت عظمة الله وعظمة دينه مبلغها من قلوبنا لئلا نكون مثلهم.

ولنا أن نسأل أنفسنا: كيف حالنا مع الصلاة والخشوع فيها ؟ وكيف حالنا مع مراقبة السنتنا وأسماعنا وأبصارنا ؟ وكيف حالنا مع أداء الحقوق إلىٰ أصحابها ؟ وكيف حالنا مع الانتصار لدين الله وشعائره والوقوف مع حملته والدعاة إليه ؟

إن الدعوة إلىٰ الله في أيامنا تمر بمرحلة عسيرة تتطلب منا أن نَقْدُرَ الله حقَّ قدره، ونعطيَ هذه الدعوة من أوقاتنا وأموالنا وأفكارنا ما تستحق، وما نبرأ فيه أمام الله ونَعْذر إليه.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

تتكلم الآية عن أعظم كلام يحبه أهل الإيمان ويأنسون به، وعن أعظم دستور نفديه بأرواحنا وما نملك، وعن كلام الله الذي رضيه للعالمين شِرْعة ومنهاجًا، ورضيَ عن حملته وقارئيه والعالمين به والعاملين بما فيه.

أنزل الله القرآن العظيم مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل لعل أهل الكتاب يؤمنون، فإنها جميعًا جاءت بعقيدة واحدة تدعو إلىٰ توحيد الله وإفراده بالعبادة، وجاءت تدعو للإيمان بالكتب والرسل جميعًا، وجاءت تدعو إلىٰ الإيمان باليوم الآخر وما فيه من أهوالٍ.

والكتب السماوية السابقة جاءت بأصول الشرائع، فأمرت بالصلاة والصيام والصدقات وغيرها من الطاعات، ونهت عن الفحشاء والمنكرات وسوء الأخلاق، والقرآن جاء بمثل ما جاءت به في ذلك.

والكتب السماوية صَدَّقت بالقرآن وبشرت به وبالنبي ﷺ، وصدَّقها القرآن بأنها من عند الله وليست افتراءً عليه، وهو ما تعنيه الآية هنا في قول الله تعالىٰ: ﴿مُصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

وأنزل الله القرآن لتنذر به يا محمد ﷺ أم القرىٰ، أي: مكة، والمراد أهلها والساكنون فيها، ولتنذر به ما حول مكة من بلاد العرب والعجم. قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأَعْرَافِ: ١٥٨]، وَقَالَ سبحانه: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأَنْعَامِ: ١٩]، وقال جل وعلا: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الْفُرْقَانِ: ١].

قال أهل العلم: "وإنما سُميت مكةُ أمَّ القرىٰ لأنها أقدم القرىٰ وأشهرها، وما تقرَّت القرىٰ في بلاد العرب إلا بعدها، فسماها العرب أم القرىٰ، وكان عرب الحجاز قبلها سكان خيام".

ومنهم من قال: سميت أم القرىٰ لأن أول بيت وضع للناس كان فيها.

ومنهم من قال: لأن الناس يقصدونها بالسفر ويجعلون وجهتهم دومًا إليها.

ومنهم من قال: لأنها كالأم في التعظيم عند الناس.

ولعلكم وقفتم مع وصف كتاب الله هنا بأنه مبارك، أي: باركه الله، وبركته هذه معلومة ومعهودة في حياة أهل القرآن، وبركته هذه لا تتوقف مع الدنيا بل هي ممتدة إلىٰ القبر، بل إلىٰ الدار الآخرة.

القرآن العظيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو شفاء للمؤمنين من أمراضهم في قلوبهم وأبدانهم، وهو رحمة لهم في الدَّارَيْن.

ومن بركته أن خيره كثير، وأجوره عظيمة ومضاعفة، ومنفعته دائمة وممتدة إلىٰ قيام الساعة، وأنه يُبشر ويَزجر، ويُرشد ويَهدي، ويُغني ويَرفع، وأنه لا عزة للأمة إلا به.

إن الذي يعيش مع القرآن تلاوة وتدبُّرًا ومنهاج حياة يعلم تمام العلم أن بركته تظهر في تفاصيل حياته، كما تظهر في مجملها، وأنه خير حافظ للمؤمن في هذا الزمن من الشهوات والشبهات.

انظروا في إقبال من سمعه علىٰ الإسلام لمجرد سماعه، وانظروا في نور وجه حملته وجمال قلوبهم، وانظروا في كرامة تلك العين التي بكت من خشية الله لما خلت بالرحمن تتلو كتابه، إنها البركة وربي. قال الله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ تربط الآية بين الإيمان باليوم الآخر وبين القرآن، وتشير إلى سرعة استجابة المؤمنين من أهل مكة وغيرها لما جاءهم من وحي السماء، ووجه ذلك أن إيمان العبد بهذا القرآن العظيم علامة على إيمانه بالبعث والحساب والجزاء، وعلامة على أنه يخاف في ذلك اليوم من سخط الله وعقوبته كما يرجو جنته ورحمته، وأنه لا انفكاك بينهما، فلا يُقبل إيمان أحدهم بالقرآن دون إيمانه باليوم الآخر، كما أنه لا يُقبل إيمانه باليوم الآخر مع جحوده بالقرآن.

﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ وأهل الإيمان باليوم الآخر وبالقرآن يحافظون على صلواتهم، فيُحسنون الاستعداد لها بالطهارة وجمال الثياب، وتفريغ القلب من الشواغل، ثم يقبلون على أداء أركانها وواجباتها وسننها على أتم وجه وأحسن حال، ويستحضرون أنهم يقفون فيها بين يدي الرب العظيم، وأنهم في ميدان يتسابق فيها أحباب الله ومن اصطفاهم.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾

الظلم درجات، أعظمها وأفحشها الافتراء على الله تعالى والكذب عليه، ولا يصل إلى هذه المرتبة إلا من استخف بالخالق جل وعلا وتجرأ عليه، ومن غفل عن الدار الآخرة وما فيها من أهوال عظام، ومن جهل مقام العلي العظيم، ولقد ذكرت الآية ثلاثة أصناف من هؤلاء:

الأول: أولئك الذين افتروا على الله كذبًا فزعموا أن له ولدًا، وأن له صاحبةً، وأن له شريكًا، وأدخلوا عبادة الأصنام على العرب، واتخذوها شفعاء لهم عند الله، وابتدعوا دينًا يخصهم في الأحكام والعقائد، وغير ذلك من ألوان الاختلاق والكذب.

الثاني: صنف من الناس يَدَّعي النبوة، وأن الله تعالى أوحى إليه وأمره بالبلاغ، كما فعل من السابقين مسيلمة الكذاب، والأسود العَنْسي، والمختار بن أبي عبيد الثقفي، وكما فعل في العصور المتأخرة غلام أحمد القادياني رأس الطائفة القاديانية الضالة التي تتسمى أحيانًا باسم الأحمدية، وغيرها.

أخرج أحمد وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ كَذَّابًا دجَّالًا، كُلُّهُمْ يَكْذِبُ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ". وفي رواية أبي داود والبيهقي: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ دَجَّالًا كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ تَعَالَى".

وأخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا، فَأُوحِيَ إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ أَنِ انْفُخْهُمَا فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا، فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ مِنْ بَعْدِي، فَكَانَ أَحَدُهُمَا الْعَنْسِيَّ صَاحِبَ صَنْعَاءَ، وَالْآخَرُ مُسَيْلِمَةَ صَاحِبَ الْيَمَامَةِ».

الثالث: من زعم أنه قادر على تأليف كلام مشابه لكلام الله في فصاحته وبلاغته، وفي علومه وهدايته، وهذا الزعم منه إنما هو للانتقاص من قدر القرآن وإسقاط هيبته من القلوب، وإن كان صاحبه أعجز عن أن يأتي بشيء يُذكر. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

ومعلوم لديكم أن الله تعالى تحدى العرب بالقرآن، بأن يأتوا بأي شيء يضاهيه أو يساويه ويماثله في النظم والبلاغة، فتحداهم بأن يأتوا بمثله أولًا، ثم بعشر سور، ثم بسورة واحدة، ولكنهم عجزوا قديمًا ولا زالوا عاجزين، وسيبقون كذلك.

هذه ثلاثة أصناف اعتدت على مقام الألوهية والربوبية، وتنوعت مقالاتها بحسب الزمان الذي قيلت فيه، فتارة ينفون الرسالة، وتارة يزعمون أنهم أهلها، وتارة يدَّعون أن عندهم دستورًا كالقرآن، وهذا التخبط علامة على فراغهم من كل شيء إلا من العناد والبغضاء والحقد. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٥-١٧].

ولا يفوتنا في معرض بيان افترائهم على الله، أن نأخذ موعظتنا من إنكار الله عليهم ووعيده لهم، وهذه الموعظة تخص من يتجرأ على القرآن في بيان أحكامه وتفسيره بدون علم، ومن يتجرأ على أحكام الشريعة ويتصدر للناس فيفتي يمنة ويسرة بدون أهلية، ومن يتجرأ على الشريعة ويكتم بعض أحكامها إرضاء لشهوة حاكم أو حرصًا على مكانة ومنصب، أو غير ذلك؛ أقول: نخشى على أمثال هؤلاء وربي، ونسأله السلامة والعافية في ديننا وعملنا.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ خطاب للنبي ﷺ يحمل تسلية له مما يقولون، وليذهب حزنه الشديد على حال قومه الذين تفننوا في الكفر وطرائقه، وليعلم أن القوة لله جميعًا، وأن الله شديد العقاب.

والخطاب يحمل وعيدًا عجيبًا لهؤلاء الظالمين لأنفسهم بما قالوا وزعموا، لعلهم يستفيقون من غيِّهم وسكرتهم قبل أن يفجأهم الموت، وتبدأ معهم سكراته وكُرُباتُه ونَزَعاتُه. قال الله تعالى عن تلكم اللحظات التي سماها (غمرات الموت):

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ تبسط الملائكة التي جاءت لقبض الروح أيْديَها لتقبض أرواحهم، وتمد أيديها لتضرب أبدانهم وتنكل بهم وتعنفهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ تقول الملائكة لأرواحهم وهي تخرج مع الضرب والشدة: اخرجي أيتها النفس إلى سخط من الله وغضب، واعلمي أن ما ينتظرك من العذاب والأغلال والسلاسل شيء مهول وعظيم، فتأبى هذه الروح أن تخرج، ثم تتفرق في البدن، ثم تخرج بعد أن تضربَهم الملائكة، وتنتزع أرواحهم نزعًا شديدًا مؤلمًا كما ثبت في الحديث، وتقولَ لهم:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ لقد كنتم في الدنيا تتبجحون بكفركم، وتظنون أنكم ناجون من جزاء صنيعكم، وتسخرون من المؤمنين وتوجهون كل إهانة لهم، تقول الملائكة لهم: لقد جاءكم عذاب الهوان والصغار والذلة جزاء لكفركم وافترائكم على الله بادعاء النبوة وطعنكم في القرآن، واستكباركم عن آيات الله الظاهرة البينة الواضحة، وإيذائكم لأوليائه وحملة دينه وشريعته.

ولقد جاء معنا في تفسير قول الله في السورة: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ مزيد بيان لحال الاحتضار عند أهل الكفر كما جاء في الأدلة الصحيحة.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

رجعوا إلى الله بعد ما أسرفوا على أنفسهم بالشرك والصد عن الدعوة، رجعوا فرادى بعد أن كان أعوانهم من الظلمة يلتفون حولهم في الدنيا ويفدونهم بالنفس والولد، وكانوا يحمونهم ويسارعون في الاستجابة لأوامر الظلم والطغيان التي تصدر منهم.

أقبلوا يوم القيامة على الله كما خلقهم ربنا أول مرة: بلا مال ولا أثاث ولا أهل ولا عيال، ولا جنود ولا خدم ولا حشم، حفاة عراة غُرلًا (أي: غير مختونين). قال الله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٤-٩٥].

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ تركتم أموالكم وأولادكم التي خولناكم إياها، أي: أعطيناكم إياها ووهبناها لكم من غير حول منكم ولا قوة.

ما أصعبها من لحظات يوم يرجعون إلى ربهم وقد تركوا خلفهم أعز شيء عليهم، تركوا ما كانوا يتباهون به ويفتخرون؛ أموالهم وأولادهم، وجاههم ومناصبهم، وكلمتهم التي كانت مسموعة فيمن حولهم، تركوها وقامت قيامتهم يوم ماتوا، وبدأت رحلتهم مع الدار الآخرة التي لا رجوع فيها للعمل، ولا يقبل الله منهم فدية ولا شفاعة، ولهم عذاب أليم.

هنا موعظة نافعة لنا معاشر أهل الإيمان، موعظة تنادي علينا وتقول لنا: إن كل واحد منا سيقبل على ربه فردًا، وستأتي لحظات في أرض المحشر يَفِرُّ الواحد من أمه وأبيه، وزوجته وبنيه، ولن ينفعه في تلك اللحظات إلا توحيده وصلاته وصدقته وأعماله الصالحة.

وتقول لنا: إن كل واحد منا إذا مات تكون قيامته قد قامت، وبدأ رحلته مع الدار الآخرة، فلينتبه لحقيقة الدنيا التي يعيش فيها، وليحرص على اجتناب ما يُسخط الرب، وليُطب مطعم أهله وولده، وليعلم أن النجاة لا تكون إلا مع التوحيد الخالص والعمل الصالح.

أخرج البخاري ومسلم عن أنسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عمله".

وأخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى (أي: تبرع لوجه الله فادخر ثوابه للآخرة)، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ".

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ ظنوا أن اللات والعزى وباقي أصنامهم ستشفع لهم وتنقذهم من أهوال الآخرة إذا جاءت، فصرفوا لها عبادتهم وأعمالهم، وهذا عند من يؤمن منهم بالآخرة، وهكذا حال كل من اتخذ مع الله أندادًا من البشر أو من الحجر أو من الكواكب والنجوم، أو من النار وغيرها، كلهم يظنون أن عبادتهم هذه نافعة لهم، وأنها ستكون ذخرًا لهم بعد الموت. قال الله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٩١-٩٤].

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في يوم القيامة تقطعت الأسباب كلها، وضلت عنكم أصنامكم وكثرة أولادكم وأموالكم، وذهب عنكم أتباعكم وأذنابكم، وبطل زعمكم بأنكم على الطريق الصحيح المستقيم، وتبرأتم من أسيادكم كما تبرؤوا منكم، وأصبحت العداوة بينكم هي لغة الخطاب بعد أن كنتم أولياء لبعضكم في الدنيا على السوء.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧] وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

ينطلق السياق القرآني بنا إلى عجائب خلق الله تعالى، ليزداد الذين آمنوا إيمانًا، ولتقوم الحجة على كل من أشرك مع الله غيرَه، ولعل من تجرَّد في طلب الهداية نالها بهذا الخطاب الذي هو مِمَّن خلق السماوات والأرض.

يحوي السياق القرآني هنا دلائل مختلفة على وحدانية الله وتدبيره لأمر الخلق وقيامه عليهم، وفيه مواعظُ لا يستغني عنها مسلم أو غير مسلم، وفيه ما يدل على أن هذا القرآن نزل من عند حكيم خبير، ولا يستطيع أحد أن يأتيَ بمثله.

نجد في كلام الله تعالى في القرآن الكريم خطاباتٍ متعددةً للهداية والإرشاد، فتارة تأخذنا الآيات إلى الجنة والنار، وتارة للحديث عن أقوام سابقين ودعوة أنبيائهم لهم، وتارة عن قصة الخلق وما ينتظرنا بعد الموت، وتارة عن آيات الله في الأنفس والآفاق، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن كلام الله تعالى يطرق كل الأبواب للدلالة على الهدى، وأن عقول الناس وقلوبَهم تختلف فيما يؤثر فيها، وأن الداعية إلى الله ينبغي له أن يُدرك احتياج من يدعوه، وأن يختار من الكلام ما يناسب عقله وقلبه.

أقول في تفسير الآية: من عظيم قدرة الله التي نَعجب من أقوام يقفلون عقولهم عنها، تلكم الحبةُ التي يضعها المزارع في التراب ويغطيها، وتلكم النواة التي يجعلها تحت التراب، بل تلكم الحبات التي تتناثر هنا وهناك دون أن يغرسها أحد، ثم يأذن الله تعالى لها بأن تنفلق، أي: يأذن للحبة أن تنشقَّ وتتفتحَ ليَنْبُت الزرع، ويأذن لكل ما يُغْرس مما له نواة أن ينشق فيخرج منه الشجر.

ولكم أن تتأملوا: التراب واحد، والماء واحد، والظروف المحيطة بهذه النواة وهذه الحبة واحدة، ولكن الحبوب والثمار التي تخرج تختلف في ألوانها وأشكالها وطعومها، وتصل إلى أصناف كثيرة جدًّا يحصل بها قوام العيش وتمامه وحلاوته.

والسؤال الذي ينبغي لكل عاقل أن يجيب عنه: من الذي شق النوى وفلق الحبة تحت التراب؟ ومن الذي أوصل الماء إليها لتنبت؟ ومن الذي أذن لهذه السيقان أن ترتفع وتشتدَّ لتأتيَ ثمرتُها على النحو الذي ينفع الإنسان والحيوان؟ هل يليق بكم يا أيها المشركون أن تُعظموا غير خالقكم؟! وهل يصلح أن تغفلوا عن ربوبيته فتفردوه بالتأليه والعبادة ؟!

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ ومن تمام قدرة الله وكمالها أنه يخلق الْأَشْيَاءَ وَأَضْدَادَهَا فيُخرج الحي من الميت، كالإنسان خلقه من تراب أو من نطفة، وكالنبات أخرجه من الحَبِّ والنَّوى، وكالفراخ أخرجه من البيضة، وهذا أمر يحصل دومًا ولا يأتي مصادفة أو موافقة. قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٦].

﴿وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ وهو سبحانه يخرج الميت من الحي، فيُخرج البيضة من الدجاجة، ويخرج نطفة المَنِيّ من الإنسان، ويخرج اللبن من الحيوان، ويخرج المسك من الغزال، وغير ذلك.

ولنا أن نستحضر مع تفسير هذه الآية مشهدًا من مشاهد الإحياء والإماتة وإن كان تفسير الآية لا يقصده بعينه، أقول فيه: سبحانه، كيف يحيي قلب الكافر بالإيمان فيجعله حيًّا بعد أن كان ميتًا، وكيف يضل قومًا بعد إذ هداهم، فيكون قد أماتهم بعد أن كانوا أحياء بالإيمان.

سبحانه، كيف يخرج من أصلاب أهل الكفر من يعبد الله وحده، ويقوم بقائمة هذا الدين، وكيف يبتلي أكرم خلقه عليه من الأنبياء والرسل بكفر أبنائهم وضلالهم.

سبحانه، كيف يخرج العالم من الجاهل، ويُنسي العالم علمه ويجعله يتيه. قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقيسوا علىٰ ذلك إخراجَ البارِّ من الفاجر، والصالح من الطالح، وعكسَ ذلك، اللهم ألهمنا رشدنا وقِنا شرور أنفسنا.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ يا أهل الغفلة: إن هذه الأشياء لا يقدر عليها أحد إلا ذو القدرة الكاملة والحكمة البالغة، وهو الله، فأقبلوا علىٰ دينه وعلىٰ نُصرة نبيه ﷺ، وعلىٰ حمل هذه الرسالة للعالمين.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي: ما أعجب حالَكم بعد كل هذا! كيف تُصْرَفُونَ عن الحق وتَعْدِلُونَ عنه إلىٰ الباطل فتعبدون مع الله غيره؟ وما الذي يصرفكم ويُبْعدكم عن الهدىٰ؟ هل هي وسوسة الشيطان أم كبراؤكم وأسيادكم أم اتباعكم للهوىٰ؟ ومتىٰ تأتي اللحظة التي تحيا فيها قلوبكم وتؤمنُ بعد أن كفرت وماتت، كما دبَّت الحياة في النواة وصارت ثمارًا يانعة جميلة؟ قال الله تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، وهذه الآية جاءت بعد قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، فكأنها تقول لأهل الكفر: أقبلوا ولا تتأخروا فالله قادر علىٰ أن يشرح صدوركم إذا صدقتكم في إقبالكم.

﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾

إليكم شيءٌ يسيرٌ من آيات الله في سمائه، كما أعطتكم الآية السابقة شيئًا يسيرًا من آياته في أرضه: الله سبحانه وتعالىٰ هو فالق الإصباح الذي ترونه كل يوم وتعيشونه، أي: هو الذي يشقُّ الصبح عن ظلمة الليل وسواده، وهو يَفْلِقُ ظلام الليل ويفصله عن الصباح شيئًا فشيئًا حتىٰ يذهب الليل، ويضيءَ الوجودُ، ويستنيرَ الأفُقُ، ويأتيَ النهار بضيائه ليخرج الناس إلىٰ معاشهم وحاجاتهم وعباداتهم، وليعيشوا فيه ما لا يُحصىٰ من نعم الله وحكمته في خلقه.

وتقلب الليل والنهار من المظاهر التي اعتنىٰ بها القرآن، وتكرَّرَ خطاب العقل به، فإن دلالته علىٰ عظمة الخالق ظاهرة جليَّة، كغيره من آيات الله في الأنفس والآفاق. قال الله تعالىٰ: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال جل وعلا: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ كما أنه فلق الصبح من شدة ظلام الليل، فهو سبحانه جعل الليل رحمةً للناس والدواب ليسكنوا فيه، ويأخذوا حظهم من النوم والراحة، ويرتاحوا بعد عناء النهار وكبَده. قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ [النبأ: ١٠-١١].

ومن أبعاد السكون في الليل، سكون النفس والفِكْر عن الخواطر والأفكار التي قد تُتْعب في بعض صورها أكثر من تعب الجسد، وهذا الهدوء إنما يكون لمن أغلق أبواب شرور فتحها علىٰ نفسه من علاقات لا ترضي الله ونحوِها، ولم يسترسل مع التفكير في الحرام، ويكون مع من تاب من أكل حقوق الناس وأرجعها إليهم، ويكون مع سليم الصدر الذي لا يتربص بأخ له ليسقط أو ليُفْضح، ونحوِ ذلك.

وبطريقة أخرىٰ: هل تخيلتم أن تكون حياتكم كلها نهارًا، أو كلها ليلًا؟ وهل تفكرتم في مخلوقاتكم التي أشركتم بعبادتها إذا كانت تملك من أمر ذلك شيئًا؟! قال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

واعلموا أن سكون الليل هذا يطلبه أهل القرآن وأهل الله وخاصته، الذين لا تسعد قلوبهم ولا تطمئن إلا بعبادة الخلوات بين يدي خالقهم وسيدهم ومولاهم وحبيبهم، ينامون ثلثي الليل ويقومون ثلثه ما بين استغفار وصلاة ودعاء وتلاوة للقرآن.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "وَأَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ".

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي: يجريان بحساب مقدَّر لا يتغير ولا يضطرب، وقد جعل الله لهما منازل في أيام السنة، فيختلف طولهما وقصرهما بحسب تلك المنازل، وبهذا الحسبان يعرف الناس أوقات الليل والنهار، والشهور والفصول والأعوام. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يُونُس: ٥]، وقال سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال عزَّ من قائل: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ جميع هذه المخلوقات تسير بتقدير العزيز الذي لا يُمانَع ولا يُخالف، والذي انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجَرَت مُذَلَّلة مُسَخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر.

وتجري بتقدير العليم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في السماوات ولا في الأرض، والذي أحاط علمه بما ظهر وما بطن. قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفُرْقَان: ٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

آيات الله تعالى في خلقه لا حصر لها، والنجوم واحدة منها، وفيها دلالة بينة على أن عقولنا قاصرة عن الإحاطة بعلم الله وحكمته وقدرته، وأن الإنسان مهما بلغ من العلم فإن علمه سيبقى محصورًا ويسيرًا.

واعلموا أن الأدلة الشرعية ذكرت عددًا من الحكم التي أرادها الله تعالى من هذه النجوم، فمنها:

١- أن الناس يهتدون بها في الظلمات، سواء كان سفرهم عن طريق البر أو عن طريق البحر، فالنجوم تعين السائرين في التخفيف من عتمة الليل، وتعينهم في كشف الجهة التي ينبغي لهم السير فيها ليصلوا إلى مقصودهم، وهو ما جاءت به الآية هنا.

والنجوم منها ما هو ثابت فيما يراه الناظر إلى السماء، ومنها ما يسير مع السائرين، وهذا يعلمه من اعتاد السفر في الليل واسترشد بعلامات السماء. قال الله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

٢- أن الله تعالى جعلها زينة للسماء، فتراها في الليل كاللآلئ بأعداد هائلة تُفرح الناظر إليها وتشعره بالسكينة. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦].

٣- أن الله تعالى جعلها رجومًا للشياطين إذا صعدت إلى السماء لتسترق الخبر من السماء، وتنقلَه إلى أوليائها من الإنس ليتظاهروا أمام الجاهلين بحالهم أنهم يعلمون الغيب، وهم الكهان الذين حذَّرتنا الشريعة من إتيانهم وتصديقهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗا وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ٦-١٠].

وقد كانت الشياطين تُكْثر من الصعود إلى السماء، وتسترق أمر الله وقَدَره النازل قبل مبعث نبينا ﷺ، ثم إن الله تعالى منعها من ذلك بمبعثه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما في قول الله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾ [الجن: ٨]، وذلك لئلا تلبس على الناس شيئًا من أمر الوحي والدين، ولئلا تفتنهم كما كانت تفعل.

ولكن قد يخطف أحد الشياطين خَطْفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء من الملائكة فيلقيها إلى الجنِّيِّ الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدرك الشهاب هذا الجنيَّ قبل أن يلقيها فيحرقه، وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب حتى تصل إلى الكاهن.

وبطريقة أخرى: قد يأذن الله لمن شاء منهم أن يسترقوا شيئًا من خبر السماء، ويُطلعهم عليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فيذهب هذا الجني إلى وليه من الإنس ويقرقر في أذنه المعلومة، فيأتي هذا العرَّاف وهذا الكاهن ويتظاهر أمام الناس أنه يعلم أشياء كثيرة، ويكذب ما شاء أن يكذب مع هذه المعلومة الصحيحة. أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عنها قَالَتْ: سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَاسٌ عَنِ الكهَّان، فَقَالَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ. فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثوننا أَحْيَانًا بِشَيْءٍ فَيَكُونُ حَقًّا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ، يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ، فيُقرُّها فِي أُذُنِ وليِّه، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ".

وجاء في حديث يُفصِّل ما يحصل مع خبر السماء، أخرجه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قَالَ: "إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ (يعني: كصوت السلسلة على الحجر الأملس)، فَإِذَا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟﴾ لِلَّذِي قَالَ: ﴿ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا، وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ، وَوَصَفَ سُفْيَانُ (أحد رواة الحديث) بِيَدِهِ وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَى، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَرْضِ فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ".

وقد كانت العرب قديمًا يظنون أن هذه النجوم فيها قوة تكشف عن علم الغيب والأقدار، وأن الكاهن يستطيع عن طريق النظر فيها أن يعرف ما في الغيب.

ولا زالت أقوام تعيش هذه الفكرة إلى زماننا، ويزعمون أن هناك علومًا مرتبطة بهذه النجوم، وأنهم يستطيعون عن طريقها أن يعرفوا المستقبل وما ينتظر البلاد والعباد، فنراهم يزعمون أن فلانًا ستكون حياته صعبة لأنه ولد لما كان النجم الفلاني في منزل كذا، أو يزعمون أن النجم الفلاني سبب لحصول الخير، وهذا مما جاء النهي عنه والتحذير منه بخلاف من يستدل بها على الجهات في السفر والحضر، أو على القبلة في الصلاة، فهذا مطلوب ومأذون به.

وقد حذَّرت الشريعة من إتيان هؤلاء العرافين والكُهَّان، ومن التعامل معهم، كالأبراج التي يتسلى بها كثير من الناس، وكعدد من البرامج التي يتصدر فيها هؤلاء ليخبروا متابعيهم عن

حظوظهم وعما ينتظرهم في المستقبل. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، وأخرج مسلم عَنْ صَفِيَّةَ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً".

ومعلوم لديكم أن الذين يذهبون إلى العرافين ويتابعون الأبراج لمعرفة طبائع الأشخاص وأمزجتهم وما سيحصل معهم، إما أن يكون قصدهم التسلية وتضييع الأوقات، فهذه معصية عظيمة والذهاب إليهم بسبب ذلك ومتابعة الأبراج لا ترضي الله تعالى.

وإما أن يكونوا معتقدين ومصدقين بأن هؤلاء يعلمون الغيب، وهذا تكذيب بالقرآن وبما جاءت به عقيدتنا، وهذا خطر عظيم على صاحبه.

وبعض الناس يذهب إليهم لأنه يكون مكروبًا لمصيبة حصلت معه، فيقصدهم لعله يرتاح، وهذا الصنف ترك اللجوء إلى من بيده النفع والضر، وذهب إلى العبد الضعيف العاجز الكاذب، وتعلق قلبه به والعياذ بالله.

والمطلوب: أن نَحْذر منهم، وأن نتوب إلى الله توبة نصوحًا نعاهده فيها على ترك هذا الأمر مع الندم، وأن ننشر الوعي والعلم فيمن حولنا لعلهم يتذكرون.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ هذا بيان للناس وتوضيح لما يحتاجونه في أمور عقيدتهم وعبادتهم، لعلهم يعرفون الحق فيتبعوه، ويعرفون الباطل فيجتنبوه، ولعلهم يعلمون فيؤمنون.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

هنا آية من آيات الله في الأنفس، بعد بيان الآية السابقة لشيء من آيات الله في السماوات والأرض، وهذا فيه إشارة إلى أن آيات الله لا حصر لها، وأنها لا تنقضي، وأن العلماء لا زالوا يبحثون فيها ويَخرجون لنا بالعجب العُجاب.

خلق الله البشر جميعًا من صلب آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو النفس الواحدة المقصودة بالآية هنا، فإن الله تعالى خلقه أولًا، ثم خلق من هذه النفس زوجها، وهي حوَّاء عَلَيْهَا السَّلَامُ، خُلقت من

ضِلَعه فأنس إليها وأنست إليه. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ (أحد عظام الصدر)، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ".

ثم إن الله تعالىٰ جعل من آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ كل هذا العدد الهائل من البشر إلىٰ زماننا، وإلىٰ ما بعده، وهذه آية من آيات الله في الخلق تدل علىٰ عظمة الخالق وعلمه وحكمته، كيف أخرج سبحانه من نفس واحدة كلَّ هذا التنوع والاختلافِ بين الناس، فلا إله إلا هو. قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النِّسَاء: ١].

﴿فَمُسۡتَقَرٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ هذه الأنفس التي خلقها الله من آدم وحواء منها ما هو مستَقر، أي: مستقرة في رحم المرأة وموجودة فيها يتهيأ للولادة.

ومنها ما هو مستودع، أي: لا زالت في صُلْب الرجل لم يكتب الله حتىٰ اللحظة لها أن تتلقح بالبويضة ليكون الولد. وهذا هو قول جمهور أهل التفسير.

ومن أهل العلم من قال: إن المقصود بالمستقر هنا هو استقرارها علىٰ الدنيا، بخلاف المستودع التي غادرت الدنيا بالموت وبدأت رحلتها مع الدار الآخرة.

ومنهم من عكسها فجعل المستقر الدار الآخرة، والمستودع الدنيا.

﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ كذلك نذكرهم بهذه الآيات التي تحتاج إلىٰ مزيد تدبّر وإعمالٍ للفكر، لعلهم يَعُون كلام الله تعالىٰ ويفقهون عنه ما يريده منهم في هذه الحياة الدنيا.

وتأملوا كيف جاء ختام الآية هنا برجاء فقههم، وجاء ختام الآية التي قبلها برجاء علمهم، وستأتي الآية التي بعدها برجاء إيمانهم، وكأن الذين أشركوا وأعرضوا لا يعلمون ولا يفقهون علىٰ وجه الحقيقة في ميزان الشرع، وإن كانوا في الدنيا من حملة الشهادات ومن أصحاب المناصب والأموال، بل وإن كانوا من أصحاب التخصص في علوم الأرض وعلوم الفلك فهؤلاء لا يزالون في دائرة الجهل بالله، ما لم يأخذ بهم علمهم إلىٰ التعرف علىٰ الله وإثبات قدرته وعظمته ووحدانيته.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىۡءٍ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرًا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنۡ أَعۡنَابٍ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالىٰ هو الذي ينزل عليكم المطر من السماء رِزْقًا للعباد كلهم، وإحياءً للخلائق كلهم، حتىٰ أخرج الله بهذا الماء جميع أنواع النبات التي يقتات منها الإنس والحيوان، سواء كانت زرعًا أو شجرًا، والتي تستعمل في ألوان من الغذاء والعلاج والتطبيب والصناعة وغير ذلك. قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَىۡءٍ حَيٍّۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرًا﴾ الخَضِر هو الزرع والشجر الأخضر الذي لولا نزول الماء ووصوله إليه ما خرج ولا نبت.

﴿نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ تنمو الأشجار والزروع، وتخرج الثمار، ويكون بعضها في شكله متراكبًا، أي: يركب بعضه فوق بعض، كسنابل القمح، وكالشعير والذرة والأرز، وغيرها. انظروا إلىٰ حُسْنها وانتظامها واتِّساقها في ركوبها فوق بعض.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ الطَّلْع هو وعاء عرجون التمر الذي يبدو في أول خروجه قبل أن يخرج القِنْو منه. والقنوان هو العَذْقُ الذي يكون عليه التمر والرطب، وهو الفرع الذي يخرج من ساق الشجرة، وهو كالعناقيد من العنب والسنابل من القمح، فهذا العذق يُخْرجه ربنا بحوله وقوته من طَلْع النخلة، ويكون هذا العذق متدليًا دانيًا قريبًا ليسهل علىٰ الناس الانتفاع بما عليه من التمر والرطب.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنۡ أَعۡنَابٍ﴾ مِننٌ من الله تعالىٰ لا تنقطع، وكلُّ مِنَّة منها تحمل عظمة جديدة وعجيبة، فهذه بساتين الأعناب الممتدة التي يفرح الناس بمنظرها، ويتلذذون بطعمها، وينتفعون منها في صحتهم وأبدانهم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ﴾ [النَّحل: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩].

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ وانظروا وتأملوا في الماء الذي نزل على التراب، وسقى بذرة صغيرة، كيف يخرج منها الزيتون الذي تعلمون منافعه، وكيف تخرج فاكهة الرمان الذي هو لذَّة لمن أكله.

وهذا العنب وهذا الزيتون وهذا الرمان وغيرها يكون مشتبهًا وغير متشابه، أي: يكون ورق الشجر متشابهًا في شكله وقريبًا في منظره ولونه، ولكنه غير متشابه في شكل الثمرة وفي طعمها وفي خصائصها، حتى في نفس الثمرة نجد الحلو والمُرَّ وما بينهما. قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرَّعْد: ٤].

﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ تفكَّروا أيها الناس في هذا الثمر إذا أثمر وصار يانعًا، أي: استوى ونضج وصار جاهزًا للأكل، تفكروا كيف يصلكم بعد أن كان عَدَمًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لا يتأخر أهل الإيمان عن الانتفاع بآيات الله، وترى قلوبهم تحب الخالق وتخافه وترجو عفوه وجنته، وتراهم يستدلون بهذه الآيات على خالقهم، ويُقْبلون على فعل أوامره واجتناب نواهيه.

وهذا بخلاف أهل الكفر الذين يسيرون في الأرض، وكل همِّهم أن يُشبعوا غرائزهم، ويرضوا أهواءهم، فلا يعرفون حقًّا من باطل، ولا ضلالة من هدىً، ولا ينتفعون.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

لقائل أن يقول: نزلت هذه الآيات في مكة وكان أهلها يعبدون الأصنام، فكيف عُبدت الجن وأشركوا مع الله بعبادتها ؟

والجواب أنهم لم يعبدوا الأصنام إلا بعد أن أمرتهم الجنُّ بذلك، واستحوذوا عليهم وأنسَوهم ذِكْر الله، فكانت حقيقة طاعتهم لشياطين الجن في عبادة الأصنام أنها عبادة للجن، ولذلك جاءت الآية هنا تصف حالهم في اتخاذهم الجن شركاء مع الله، مع أن الله تعالى هو خالقهم ومالكهم، وليست الأصنام أو الجن أو غيرُها. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ

لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال جل وعلا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

ثم إن عددًا من قبائل العرب قبل مجيء الإسلام، كانت تثبت أن للجن تصرفًا فيما يجري حولها، وأنها تنفع وتضر، ولذلك كانوا يذبحون لها ويتقربون إليها، وهذا من صور الشرك مع الله. قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

ولا زال في زماننا أقوام يطلون علينا ويفخرون بعبادتهم للشيطان، ويمارسون طقوسًا غريبة عن العقل السليم والفطرة النقيَّة، ويتفننون في الكفر ويوغلون فيه.

والمقصود: كيف تشركون معه ما لا يملك شيئًا من أمر الخلق والتدبير والتصرف ؟! وكيف تجعلون لمخلوق من مخلوقات الله حظًّا من الألوهية. قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النَّحل: ١٧].

﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ﴾ ومن ضلالهم العظيم ومن حماقتهم أنهم وصفوا خالقهم بأن له ولدًا كما فعل النصارى، وأن له بناتٍ كما فعل المشركون الذي زعموا أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، وما أجهلهم وأبعدهم عن العلم!

وكلمة (خرقوا) أي: اختلقوا وافتروا وكذبوا، وقالوا على الله بالظنون والأوهام لا بالحق والصدق، قالوه عن عمىً وجهالة لا عن فِكْر ورَويَّة.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ تنزَّه ربنا عن الصاحبة والولد، وتقدَّس في عليائه عن حاجته لأحد، وتعالى عما وصفوه به، إلهٌ عظيم له صفات الكمال والجلال، لا شريك له في مُلكه وخلقه وتدبيره.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

أي: خالقهما على غير مثال سابق، فالسّماواتُ والأرضُ وما فيهما من خَلْقٍ عَجِيبٍ يدلُّ على وحدانيته واستغنائه عن الخلق، وأنّ له صفاتِ الكمال، وأنّه واحدٌ بذاتِه لا يحتاجُ إلى زوجةٍ ولا إلى ولدٍ.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ كيف يكون لله ولد ولم تكن له صاحبة وزوجة، وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مُتَوَلِّدًا مِنْ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ! قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مَرْيَمَ: ٨٨-٩٢].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ الله ربي خالق كل شيء، وهو سبحانه خالق الناس جميعًا، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِم، وَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ، ومُقَدِّرهم وَمُسَخِّرُهُمْ، وَمُسَيِّرُهُمْ وَمُصَرِّفُهُمْ كَمَا يَشَاءُ، وَالْجَمِيعُ عَبِيدٌ لَهُ وَمِلْكٌ لَهُ.

وربي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم كل ما هو كائن، ويعلم أهل الجنة من أهل النار.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾

هذا ما يعلمه أهل مكة تمامًا، ويعلمه مشركو العرب، هم يعلمون أن الخالقَ والمُدَبِّرَ ومالكَ الملك هو الله، ويعلمون أن الرزق والموت والحياة بيد الله الواحد الأحد، وليست بيد أصنامهم التي لا حول لها ولا قوة، ولا بيد الجن الذي أطاعوه وعبدوه من دون الله.

وكأن الخطاب الرباني ينادي عليهم ويقول: إذا كنتم تعتقدون ذلك، فلماذا تمتنعون عن شهادة أن لا إله إلا الله ؟! ولذلك قال الله بعد تذكيرهم:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يجوز أن تنصرف عبادتكم لغيره، ولا يُقبل منكم أن تستمدُّوا أحكام حياتكم من غير شريعته، ولا يستقيم إيمانكم بأنه ربٌّ مع اتخاذ الأصنام شفعاء وأولياء.

ولا يستقيم كذلك أن يجعل أهل الكفر له صاحبة أو ولدًا، أو أن يردوا شريعته ولا يجعلوها حاكمة في أنفسهم وأهليهم وبلادهم. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: ٦٢-٦٣].

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ لقد استطردت الآيات السابقة ببيان آيات الله في الآفاق والأنفس والأرض، والتي يعلم كل واحد منهم ومنا أنه لا يقدر على مثل هذا الخلق إلا الله، فهو سبحانه خالق كل شيء، وهو الذي نعبده ونُفْرده بالرغبة والرهبة والمحبة.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ خلق سبحانه الخَلْقَ، وتوكَّل برزقهم وتدبير أمرهم، وهو الحفيظ على أعمالهم وعلى كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون العظيم.

والله سبحانه وتعالى توكَّل بحفظ دينه، وحفظ المؤمنين الصادقين ونصرهم، ووكالته منه وإليه سبحانه، وفيها كمال العلم، وحسن التدبير، والعدل.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

آية عظيمة تحمل عددًا من المعاني التي يحتاجها السائرون إلى الله، وكل القرآن عظيم، وبيان ذلك يأتيكم فيما قاله أهل العلم في تفسير هذه الآية، وفي أبعادها على الروح والجوارح، وإليكم البيان:

١- أبصار الناس في الدنيا لا ترى الله تعالى، بخلاف يوم القيامة الذي جاءت الأدلة برؤيته سبحانه وتعالى فيه.

رؤية الله التي ينتظرها المؤمنون لتسعدَ قلوبُهم برؤية محبوبهم الذي اشتاقوا للقائه، وقد كانوا في الدنيا يقرؤون كلامه، ويقومون بين يديه في الليل يناجونه، ويحسنون في صلاتهم وصيامهم وجميع أعمالهم، وكانوا يتسابقون في كفالة الأيتام وإطعام المساكين والقيام على حاجات المحتاجين ليرضى عنهم، وكانوا يجتنبون الظلم والفواحش ويفرون منها ومن لذائذها الفانية، وكانوا يحسنون إلى والديهم وأزواجهم وعيالهم وقرابتهم، لا يرجون من كل ذلك إلا أن يرضى عنهم حبيبهم سبحانه، فهلَّا تأملتم كيف يكون اللقاء، وهلَّا استحضرتم تلك الحلاوة التي ستُنْسينا بؤس الدنيا كلَّه.

قال الله تعالى عن أهل الإيمان: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيَامَة: ٢٢-٢٣]، وقال سبحانه عن الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المُطَفِّفِين: ١٥].

وأخرج النَّسائي وابن حبان وغيرهما، عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يعلمهم دعاءً كان ﷺ يدعو به، وقد جاء فيه "وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ".

بل إن أعظم نعيم يعيشه أهل الجنة في الجنة هو رؤية خالقهم جل وعلا، كما صحت بذلك الأدلة وتواترت الأخبار. أخرج مسلم عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ:

أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ".

والمقصود أن الأبصار لا ترى الله تعالى في الدنيا، وإنما سيراه أهل الإيمان في الآخرة.

٢- تأملوا هنا كيف نفت الآية إدراك الأبصار للعظيم جل جلاله، ولم تنف الرؤية، فلم يقل الله تعالى: لا تراه الأبصار، وإنما قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. قال غير واحد من أهل العلم: صحيح أن رؤية الله حاصلة، ولكنه لا يلزم ممن رأى ربنا أن يحيط به، أي: يرونه ولا يحيط بصرُهم بالله تعالى من عظمته، وذلك كما يرى أحدنا السماء ولا يحيط بها جميعًا، وكما نعلم أن الله تعالى يعلم ولا نحيط بعلمه جل جلاله. قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وهذا فيه إقامة حجة على من عبدوا الأصنام وغيرها من دون الله؛ إذ كيف يعبدون ما هو جسم محدود محصور تراه العين المجردة، وتدركه وتحيط به، وهو مخلوق، بل يحيط الإنسان بكل تفاصيله ودقائقه لأنه صنعه بيده.

٣- ولقائل أن يقول: وهل رأى النبي ﷺ ربه في رحلة معراجه إلى السماء يوم فُرضت الصلاة؟

والجواب جاء فيما أخرجه البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ: (لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ).

وأخرج مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ".

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد خالفها في ذلك ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأثبت الرؤية في رحلة المعراج، ولكنه حملها على الرؤية القلبية لا الرؤية بالعين، كما دل على ذلك ما أخرجه مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قَالَ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ".

أما الآية التي معنا فقد حملها على نور الله، أي: يُمْكن رؤيته بالعين ولكن سبحانه إذا تجلَّى بنوره لا يدركه شيء. أخرج مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ".

ولعل المتأمل في كلام أمنا عائشة وكلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يجد أن الرؤية بالعين لم تحصل ليلة المعراج، وأن نبينا ﷺ رأى نورًا، وهو كلام أكثر أهل العلم من السلف والخلف، ويجد أن الرؤية التي حصلت إنما هي رؤية القلب على كلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٤- اهتم أهل العلم بمسألة رؤية الله كثيرًا، وعقدوا لها أبوابًا في كتبهم عامة وفي كتب العقيدة خاصة، وسبب ذلك أن طائفة المعتزلة زعموا أن الله تعالى لا يُرى في الدار الآخرة، فخالفوا أهل السنة في كلامهم الذي بنوه على أصول عقلية مزعومة أنكروا بها حصول الرؤية كما أنكروا عذاب القبر، والشفاعة، والحوض، وكما جعلوا مرتكب الكبيرة خالدًا في النار إذا لم يتب منها، وكما نفوا بسببها صفات الله.

أما قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، أي: وهو يحيط بأبصار العالمين، ويعلمها على ما هي عليه وما تنظر إليه، ولا يخفى عليه حقيقتها ولا يغيب عنه من عملها شيءٌ؛ فإنه خالقها. قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك: ١٤].

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ صحيح أن الأبصار لا تدركه، ولكنه سبحانه لطيف خبير بها وبأصحابها.

الله ربنا جل وعلا لطيف بعباده ومخلوقاته، وقد أحسن خَلْقهم وجعلهم يبصرون فيما حولهم لتحسن عمارتهم للكون، وآتاهم السمع والعقل وحسن البيان، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وهو رفيق بهم يوصل إليهم الخير والرزق والعطاء على مقتضى علمه وحكمته.

وألطاف الله سبحانه وتعالى هي التي يتنسَّمها الصالحون، وينعمون بها في عقيدتهم وأحكام شريعتهم وأخلاقهم وجميع عبادتهم، فلله الحمد أولًا وآخرًا. قال الله تعالى في حق أطهر بيت وأكرمه: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وربنا جل وعلا خبير بهذه الأبصار وبأصحابها، وبما هي صائرة إليه، وخبير بمن يستحق تمام لطفه وعنايته وحفظه. قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ [لُقْمَان: ١٦] .

﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤﴾

ما أجمل كلمة ﴿بَصَآئِرُ﴾ في الآية الكريمة، فهي تعطينا حقيقة هذا الدين وثمرته في الحياة الدنيا، بل وفي الآخرة.

وبيان ذلك أن الحجج والبينات التي اشتمل عليها كتاب الله تعالىٰ، وجاءت بها سنة رسول الله ﷺ، هي دلائل قوية بذاتها، وكافية للهداية والإرشاد لمن كان له قلب، وهي مفتاح البصيرة الذي تظهر به الحقائق والمعاني، والتي تنير للحائرين دروبهم، وتجعلهم يفقهون كلَّ ما يجري حولهم، وتعينهم علىٰ اطمئنان قلوبهم، وتبصِّرهم بكل ما يحتاجون.

ومن أبعاد البصيرة في هذا الدين أنها تدل صاحبها علىٰ طريق النجاة في الدار الآخرة، وتجعل المؤمن أقرب للأمن والفلاح في يوم يجعل الولدان شيبًا.

قل يا رسول الله ﷺ لقومك: قد جاءكم من الله نورٌ تبصرون به الهدىٰ من الضلال، والإيمان من الكفر.

﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أي: فمن انتفع بهذه الحجج والبراهين وآمن واستقام، فإن نفع ذلك يعود عليه، وهو عند الله تعالىٰ من المقبولين والمفلحين والمطمئنين، والله غني عنه وعن عبادته. قال الله تعالىٰ: ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ ﴾ [الْإِسْرَاء: ١٥].

﴿وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ أي: ومن بلغته دعوة الله وجاءته آياته، فعميَ عنها وتكبَّر عنادًا أو تقليدًا للآباء، ومضىٰ في جحوده ولم يُقْبل علىٰ الإيمان والتوحيد، وأعرض عن ذكر الله وطاعته، فإن وبَالَ ذلك يعود عليه وهو في الآخرة من الخاسرين. قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الْحَجّ: ٤٦].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ أرسل الله الأنبياء والرسل ليبلغوا دينه للناس، وليرشدوهم إلىٰ الصراط المستقيم، ولم يجعل قلوب الناس بأيديهم، ولم يجعل حفظ أعمالهم والرقابة عليها إليهم. قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ ﴾ [هود: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ [الشورىٰ: ٤٨].

وهذه وظيفة الدعاة إلى الله بعد الأنبياء، وظيفتهم أن يبذلوا الغالي والنفيس من أجل دعوتهم، وأن يقدموا ما يستطيعون تقديمه ليوصلوا هذا الدين للناس، وليكونوا سببًا في هدايتهم وإيمانهم، ووظيفتهم أن يمضوا في هذا الطريق مستعينين بالله على ما فيه من البلاء حتى يلقوا ربهم جل وعلا ويُلحقَهم بالنبيين في أعلى عليين.

أقول ذلك لأن عددًا من الدعاة يتسلل اليأس إلى قلبه وربما يترك دعوته لمَّا يرى غربته بين الناس، ولمَّا يرى قلة الاستجابة في أحوال وأزمان، بل قد يتسلل الشك إلى قلبه ويفقد الثقة بالطريق، وما درى أن سيرة أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام تعلمه أن يمضي في طريقه وإن استجاب له القليل من الناس كما حصل ذلك لنبي الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولغيره، بل قد صح في الحديث أن النبي قد يأتي يوم القيامة وليس معه أحد، يعني لم يؤمن به أحد.

ولا يفوتني أن أهمس في أذن الدعاة والداعيات أن طبيعة الدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر ومصابرة، وتحتاج إلى أن ينضج الداعية في دعوته ليعلم حقيقتها، ويُتقن فنونها، ويختار لها ما يناسبها من القول والعمل، ولقد أجرى الله على يد كثير من الدعاة الخير العظيم لمَّا صبروا وصدقوا، ونفع الله بمشاريعهم الدعوية وبلغت الآفاق لما ثبتوا، فاستعينوا بالله وامضوا واصبروا.

بل لا يفوتني أن أهمس في أذن صنف من العُصاة والمجرمين الذين يقصدون إغاظة المؤمنين بفسقهم وفجورهم، فتراهم كلما رأوا قابضًا على دينه جعلوا يجهرون بمعصيتهم أمامه، وفي نيتهم كسرُ شوكة المؤمنين، ورفعُ راية الفاسقين، وما دَرَوا أن وبال معصيتهم راجع إليهم ولاحق بهم ما لم يتوبوا. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ ستره الله، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ الله عنه".

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

أي: وكما أرشدنا العالمين إلى التوحيد، وأمرناهم به، وجاءتهم الآيات البينات على أنه لا إله إلا الله، فكذلك نصرف الآيات، أي: نوضحها ونبينها في كل موطن لرفع الجهل وبيان الحق.

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ أي: وليقول أهل الشرك والكفر والتكذيب لنبينا ﷺ: لقد دَرَسْتَ من قبلُ وتَعَلَّمْتَ من أهل الكتاب، وذاكرتهم في كتبهم وجئت منها بما تتلوه علينا، وكنت تذهب إلى غلام روميٍّ في مكة كان يصنع السيوف لتتعلم منه، فلا تزعم أنك رسول يُوحَى إليه. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفُرْقَان: ٤-٥].

وسبحان الله كيف يقولون ذلك وهم يعلمون أنه نبيٌّ أُمِّيٌّ نشأ فيهم وبينهم، بل إن الذين اتهموه بالدراسة عنهم يتكلون بالأعجمية ولا يعرفون العربية، وهو ﷺ لا يعرف كتابة العربية وقراءتها فضلًا عن أن يعرف الأعجمية. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ولقائل أن يقول: هل نفهم من الآية أن الله تعالى صرف أهل الكفر عن الإيمان، وجعلهم يقولون له: درست، بعد أن فَصَّل لهم الآيات ؟

والجواب أن الله تعالى عاقبهم بصرفهم عن الهدى، وجعل ما أنزل على النبي ﷺ من الكتاب والسنة سببًا في زيادة كفرهم وطغيانهم، وسببًا في زيادة الحجة عليهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الله تعالى علم فساد قلوبهم وخبثها، ورأى منهم جحودًا وصدودًا وعنادًا، فجعل حججه وآياته عليهم سببًا في زيادة الضلال والخسران. قَالَ الله تَعَالَى عن القرآن: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٤]، وَقَالَ سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإِسْرَاء: ٨٢]، وقال جل وعلا: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

والآية فيها بيان لضلال كل مَنْ كَذَّب بنبينا عليه الصلاة السلام، وفيها دليل على أنه لا يكون في هذا الخلق إلا ما أراده الله، فقولهم: إن القرآن من كلام البشر وتعليمهم، إنما هو بقدر الله الذي له الحكمة في إضلالهم بما كسبت أيديهم.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ ومن إقامة الحجة عليهم أن الله تعالىٰ بيَّن الحق لهم ليتبعوه، وبين لهم الباطل ليجتنبوه.

ومن إقامة الحجة عليهم أنه بينه لقوم يعلمون، أي: لا ينتفع منه إلا من عَلم الصدق من الكذب، وعلم كيف يُفرَّقُ بين الوحي وبين غيره من كلام البشر، وكان عنده حرص علىٰ العلم لينتفع ويتقدم.

أما أهل الجهل الذين لم ينتفعوا من عقولهم، والذين قادتهم أهواؤهم، وسهل عليهم التذبذب بين الآراء والشهوات، فهؤلاء لا ينفعهم البيان شيئًا.

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾

يأمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يتبعَ الوحي ويأتمرَ به ولا يحيدَ عنه، وأن يلزم الطريق الذي لا يقبل الله غيره، وحاشاه أن يفعل ذلك ولكنه تثبيت لقلبه مع شدة ما يجد من أهل الكفر، وتثبيت لنا وإرشاد في طريق دعوتنا.

نداء من الله تعالىٰ لنبيه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وللمؤمنين بأن يعرضوا عن بُهتان المشركين وأعوانهم وأذنابهم، وألا يكترثوا لأقوالهم، وأن يثبتوا ولا يلينوا ولا يهتزوا أمام كلماتهم في حق الدين والدعوة.

ما أحوج الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ إلىٰ هذه الآية، فإنها تصرفهم عن الشواغل في طريقهم إلىٰ الله، وتعلمهم أن المطلوب منهم أن يتبعوا شريعتهم في البلاغ عن الله، وألا يداهنوا ولا يتنازلوا عن أوامر خالقهم لإرضاء أهواء الناس وأمزجتهم.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ لا نتبع شريعةً غير شريعة الإسلام، ولا هدْيًا غير هدي محمد ﷺ، والحكم فينا وفي أهلينا وأموالنا لله وحده لا شريك له.

لا إله إلا الله الذي هو فالق الحب والنوىٰ، وفالق الإصباح، وجاعلُ الليل سكنًا، والشمسَ والقمر حسبانًا.

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لا تنشغل بهم في هذه المرحلة، واعف عنهم واصفح، واحتملْ أذاهم، واصبر حتىٰ يأذن الله لك بقتالهم، وينصرَك عليهم ويستخلفك.

والإعراض المأمور به هنا إنما هو عن مدافعتهم بالقوة وقتالهم، لا عن دعوتهم إلىٰ الإسلام وإقامة الحجة عليهم، أي: يجب تذكيرهم والسعي في هدايتهم حتىٰ يحكمَ الله بين المؤمنين وبينهم.

ومعلوم لديكم أن العفو عنهم والصفح والإعراض، كان في بداية الدعوة لما كانت شوكة المسلمين ضعيفة، ولم يكونوا يملكون من أسباب القوة المادية ما يُذْكر، فلمَّا هاجروا إلىٰ المدينة وقويت شوكتهم، أنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة: ٥].

وقد انتفع أهل العلم من جميع النصوص التي جاءت بالإعراض عن أهل الشرك والتي جاءت بوجوب قتالهم، ونص كثير منهم علىٰ أن إعمال السف فيهم، أو العفو والصفح عنهم، مما يقدِّره أولو الأمر من الأمر والعلماء بحسب المرحلة ومعطياتها.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

أي: واعلمْ أن لله حكمة في إضلالهم، وأنه لو شاء لهدىٰ الناس جميعًا، ولكن سِرَّ القدر لا يعلمه إلا الله، وهو سبحانه لا يُسأل عمل يفعل، جل ربي وعلا.

والمطلوب: لا يحزنك كفرهم، ولا تبتئس من شدة إعراضهم، ولا تتعجب من قلة انتفاعهم بالقرآن، وبآيات الله في الأنفس والآفاق.

والمطلوب كذلك: لا يخيفك وعيدهم، ولا يصُدُّنَّك عن آيات الله بعد إذ أُنْزلت إليك، وكل ما عليك هو أن تلزم دعوتهم وتذكيرهم ووعْظهم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٣].

﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ حِفْظُ أعمال أهل الكفر والفجور والفسق، ومراقبتهم ومحاسبتُهم عليها، ليست موكولة إليك يا محمد ﷺ ولا إلىٰ أحد من البشر، فلا تبتئس لما يفعلون، ولا يشتد بك الكرب لما يقولون ، ولا يصيبك الكدر لإصرارهم علىٰ حربك وعداوتك، وتذكَّر دومًا أن قلوبهم بيد من يُقلب القلوب، ويهديها أو يصرفها عن الهدىٰ.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ ولست موكَّلًا برزقهم وهدايتهم وسائر أمورهم، فالزم البلاغ ولا تكره أحدًا على الإيمان. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرَّعْد: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الْغَاشِيَة: ٢١-٢٢].

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾

السباب كلام يكون فيه تحقير، أو نسبة النقص أو المَعرَّة، كما قال سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، أما مناظرتهم وبيان ما يخالف الإسلام من عقائدهم، فهذا ليس من سبِّ آلهتهم وشَتْمها، وليس مما يشمله النهي هنا.

وهنا مسألتان مهمتان:

١- هل هناك احترام في ديننا للآلهة الأخرى ؟

الديانات الأخرى في شريعتنا كلها باطلة أو منسوخة، فالباطلة كعبادة الأصنام والشمس والنار والبقر، والمنسوخة هي شرائع الأنبياء قبل محمد ﷺ.

والشريعة الإسلامية علمتنا كيف نتعامل مع الكافر إذا كان حربيًّا، وكيف نتعامل معه إذا كان مسالمًا، كأن يكون ذِمِّيًّا أو معاهدًا أو مستأمنًا، وعلمتنا أنه لا إكراه في الدين، وعلمتنا أن المسالم منهم لا يجوز التعرض لماله ولا لأهله ولا لنفسه بالأذية.

والمعاهد هو من له عهد مع المسلمين بعقد جزية، أو هدنة من سلطان، أو أمان من مسلم.

٢- هل يجوز سب آلهة المشركين ؟

قال أهل العلم: الأصل أن سب آلهتهم في ديننا لا بأس به، فإن آلهتهم باطلة ولا وزن لها في عقيدتنا، بل هي ومن عبدها أعداء لنا ما حيينا، وهذا من تمام العدل والعلم، ولذلك أطلق القرآن على من عُبدَ من دون الله وصف الطاغوت، وجعل عبادته من عبادة الشيطان، وأخبر أنه حصبُ جهنم.

ولكن سَبَّها يخضع لقاعدة المصالح المرجوة والمفاسد المترتبة على ذلك، فإن كان هناك مصلحة للإسلام والمسلمين دون أن يترتب على ذلك أذية لله أو لدينه أو للمسلمين فلا يُمنع، بخلاف ما لو وُجدت العلة المذكورة في الآية هنا، وهي أن يكون الحديث عن آلهتهم بسوء سببًا في أن يتجرؤوا على سب ديننا وخالقنا ونبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيحرم هنا هذا الفعل ويُمنع.

تنهى الآية هنا المسلمين عن سب آلهة المشركين إذا ترتَّب على ذلك أن يشتموا أركان عقيدتنا وإيماننا، ولعل الذي دفعهم إلى شتم آلهة المشركين هو غيرتهم على التوحيد، ومعرفتهم أن العزة لا تكون لأهل الباطل، فجاء التوجيه الرباني هنا ليضبطَهم ويُرشِّدَهم.

بطريقة أخرى: يغلب على الظن في زماننا أن المشركين إذا بلغهم أننا نسب آلهتهم فإنهم سيشتمون ربنا وديننا، فإذا كان سب آلهتهم ذريعة إلى مفسدة أعظم، فنمنع سَبَّ الأصنام والصلبان، ونمنع شتم نار المجوس وبيوت عبادتهم، ونمنع شتم بوذا إله ملايين الناس في زماننا والله المستعان، وقد قلت نمنع لأن المسلمين بالجملة يعيشون مرحلة ضعف، وقد يكون التَّعرُّض لآلهتهم سببًا فيما لا تُحمد عقباه.

ولا يعني ذلك أن نتوقف عن دعوتهم، وعن بيان كفرهم وضلالهم، وإبطال معتقدهم، ولا يعني أن نسكت عن مظاهر موالاتهم وتقليدهم، ولكن الواجب على من أوتيَ علمًا أن يبين الحق لئلا يختلط بالباطل؛ يفعل كلَّ ذلك عن علم وحكمة وحُسْن تقدير للأمور.

ولا يعني ذلك أن نسكت عن سب أهل الكفر لديننا ولقرآننا ولنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإن الآية منعت أن نبدأ نحن السبَّ، ولكن الواجب علينا إذا بدؤوا هم بذلك أن ندفع عن ديننا وعن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بما نملك، وأن ننكر عليهم وننتصر لعقيدتنا.

فإذا اعتدى كافر على إلهنا أو نبينا أو ديننا فالواجب أن نرفع أمره إلى ولي الأمر ليقيم عقوبة الله تعالى فيه، والواجب أن ندفع شره وعدوانه واعتداءه إن كان خارج بلادنا وسلطتنا.

ولا يفوتني ان أذكر هنا أن الأصل في تعاملنا مع أهل الكفر المسالمين هو أن ندعوهم إلى الله، وأن نقول لهم قولًا ليِّنًا ونجادلهم بالتي هي أحسن، وألا نتعرض لهم بما يعيق دعوتَهم والسعيَ في هدايتهم، ولذلك أوصى أهل العلم بعدم التعرض لآلهتهم إلا إذا كان هناك مصلحة دينية لا يترتب عليها مفسدة أعظم.

﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ أي: لا تفعلوا ذلك لئلا يسبوا الله عدوانًا على مقام الربِّ وعلى الدين، ولئلا يسبوا الله جهلًا منهم بعظمته وكبريائه وملكوته وجبروته، وجهلًا منهم بأن الذي سبُّوه هو إلههم الحق، وإله العالمين جميعًا لا إله سواه.

وذِكْر كلمة (عَدْوًا) في حق المشركين فيه إشارة إلى أن شتم المسلمين لآلهتهم ليس من العدوان والظلم، فإنها لا قيمة لها.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ أي: إن الله تعالى استدرجهم من حيث لا يعلمون لمَّا جاءتهم الموعظة تلو الموعظة ولم يؤمنوا، فزين لهم عبادتهم للأصنام كما زين لمن كان قبلهم عبادتهم للنار وللشمس ولغيرهما، ورزقهم وأعطاهم المال والولد والقوة مع أنهم مقيمون على الكفر فظنوا أنهم على خير، وأغلقوا عقولهم عن قبول الحق والهدى.

قال أهل العلم: وفي هذا تعريض بالمشركين بأنه قد يِحل بهم مثلُ ما حلَّ بأهل الكفر من قبلهم من نزول العذاب بهم في الدنيا قبل الآخرة.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ سيرجعون جميعًا إلى خالقهم ومالكم، ولهم ميعاد يوم لا يستأخرون عنه ساعة، وسيعلمون مصيرهم في ذلك اليوم بعد أن يَطَّلِعوا على أعمالهم في صحائفهم، فليحذروا، فإن عذاب الآخرة أشدُّ وأنكى.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩﴾

يخبرنا الله تعالى عن المشركين بأنهم يتظاهرون بصدقهم في البحث عن الصراط المستقيم، وأنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا الأَيْمان المؤكدة والمُشدَّدة على أنهم إذا جاءتهم معجزة، وجاءهم أمر خارقٌ، ليكونن من المؤمنين برسالة محمد ﷺ.

﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ قل يا محمد ﷺ لهؤلاء: إن مرجع نزول المعجزة والآية إلى الله وليس لأحد من البشر وإن كان نبيًّا، وهو سبحانه إن شاء أجابكم، وإن شاء تركككم، وهو الذي يعلم صدقكم من عنادكم وتَعَنُّتكم، ويا ليت علامات الصدق في طلب الهداية والاسترشاد تظهر عليكم.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تحمل الآية إشارة ظاهرة إلى حقيقة قسمهم الذي تكلموا به، وأوهموا نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والمسلمين أنهم عازمون على الإيمان إذا استُجيبت رغباتهم.

حقيقة قسمهم أن هؤلاء عَمُوا عن الحق، وتلاعبوا بالدين والتوحيد، وظنوا أن طبيعة دعوتنا لهم تقوم على تلبية كل ما يريدون ليؤمنوا.

وما يشعركم أيها المؤمنون إذا جاءت الآيات التي طلبوها أنهم سيؤمنون، ولعل عددًا من المؤمنين طلب من النبي ﷺ أن يدعو الله بأن يجعل جبل الصفا ذهبًا كما طلبوا، أو أن النبي ﷺ همَّ بالدعاء رجاء أن يؤمنوا جميعًا، فجاء قول الله تعالى يرشدهم ويقول لهم: ما الذي سيضمن إيفاءهم بالوعد والعهد؟ ولماذا أغمضوا أعينهم عن معجزة القرآن وعن معجزة الوحي الذي جاء به النبي الأُمِّيُّ ﷺ ؟! وهل تضمنون وتكفلون إيمانهم إذا حصل ما أرادوا؟ وهل تعلمون أنه إذا جعل الله لهم الصفا ذهبًا فلم يؤمنوا فإنه سبحانه سيعاجلهم بنقمته وعذابه ولن يُؤَخَّروا؟ وهذا فيه إشارة إلى أن الله تعالى علم منهم أنهم لا يؤمنون، وفيه تيئيس من إيمانهم جميعًا ولو جاءتهم الآيات التي طلبوها فإنهم ما طلبوها حرصًا على الهدى.

والمطلوب: لا تغتروا بهذه الأَيمان، ولا تروجُ عليكم حيَلهم وألاعيبهم ومعاذيرهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقد مَرَّ معنا في موضعين من هذه السورة بيان حقيقة كلامهم، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

أقول: هنا في الآية فائدة ربما تنفعنا في دعوتنا مع الذين يشترطون على الله ليؤمنوا ويحسن التزامهم بطاعته، فهؤلاء الذين أشركوا يشترطون على الله ليؤمنوا، ويفرضون رؤيتهم لطريقة إسلامهم، وكأنَّ الدينَ يحتاجهم ولا يمضي بدونهم، وهذا له وجه شبه مع صنف من أبناء المسلمين الذين يقبلون على الصلاة أو القرآن ويشترطون على الله أن تُفرَّج جميع همومهم وغمومهم، وأن يأتيهم الرزق من بين أيديهم ومن خلفهم، وتراهم ينتكسون سريعًا زاعمين بأنهم أدَّوْا الذي عليهم وما رأوا ثمرته.

وهؤلاء نقول لهم: من علامات الإيمان أن يُقبل العبد على خالقه راجيًا جنته ورضاه، وأن يجتنب ما حرَّم خشية سخطه وناره، وهو في هذه الدنيا يتقلب بين السراء والضراء، فيحمد الله على السراء ويشكر، ويحمد الله كذلك على الضراء ويصبر، مستحضرًا أن أمره كلَّه له خير.

ثم إنه يأخذ بالأسباب التي جاءت في الشريعة لرفع البلاء، من الصدقة والدعاء وقيام الليل وبر الوالدين وصلة الأرحام وغير ذلك، يفعلها دون أن يشترط على الله لأنه يعلم أن الله تعالى لا يَقْدر له إلا الخير.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أهل الكفر لم يؤمنوا بهذا الدين أول ما جاءهم البلاغ عن الله تعالى على لسان نبي الرحمة ﷺ، فكذلك لن تثبت قلوبهم لو أجابهم الله إلى ما طلبوه من آيات، لأن هذه القلوب بيد الله تعالى وحده، وقد اطلع عليها ورأى فيها خبث الطباع وسوء القصد، فحرمها الهداية، وحال بين أصحابها وبين الإيمان، وتركهم يعمهون في طغيانهم وعتوهم وضلالهم، أي: وتركهم يترددون ويشكون في الطريق فلا يؤمنون، وتركهم في تمرُّدهم على الله واعتدائهم في حدوده لا يهتدون لحق، ولا يبصرون صوابًا، قد غلب عليهم الخِذْلان، واستحوذ عليهم الشيطانُ.

ومن أهل العلم من قال: إن أهل الكفر يطلبون يوم القيامة من الله أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا، فأخبر سبحانه في هذه الآية أنهم لو رجعوا إلى الدنيا فإنهم سيكفرون بالله العظيم كما لم يؤمنوا أول مرة في الدنيا، وذلك كقول الله الذي مرَّ معنا: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

تُؤكد الآية الكريمة عددًا من مسائل العقيدة التي دارت حولها سورة الأنعام، والتي لا يستغني عن فهمها السائرون إلى الله على الطريق المستقيم، والتي نحتاجها في كل زمان ومكان لتضيء لنا طريق الفهم والعمل، وهذه المسائل هي:

١- العناد وصف لازم لصنف من الناس لا ينفك عنهم، وبسببه لا يريدون طريق الإيمان ولو جاءتهم الآيات التي طلبوها والتي لم يطلبوها، فهؤلاء أرداوا الدنيا وما أرداوا شيئًا سواها، وعاشوا لها وجعلوها كأنها دار قرارهم.

هؤلاء: لو أن الله تعالىٰ أنزل عليهم ملائكة يرونها ويعيشون معها، وتكلمهم وتخبرهم بأن دين محمد ﷺ حقٌّ، فلن يؤمنوا لأنهم غير طالبين للحق.

ولو أن الله تعالىٰ أحيا لهم الموتي فكلموهم بما كلمتهم به الملائكة، فلن يؤمنوا لجهلهم بالله العظيم.

ولو أن الله حشر عليهم كل شيء قُبلًا، أي: لو جاءتهم الأمم جميعًا، وجاءهم كل شيء قُبُلًا، أي: مواجهة ومقابلة وعيانًا فأخبرتهم بأن هذا الدين حق، فلن يؤمنوا، فلا تغتروا بقَسَمهم الذي سبق.

ويُشْبههم في حالهم هذا وإن لم يكن منهم، صنف من أبناء الإسلام يجادلون في بعض آيات الله طالبين ممن حولهم أن يقنعوهم بها، مع أنها معلومة من دين الإسلام بالضرورة، فيأتي أحدهم طالبًا أن نقنعه أن الخمر حرام، وأخرىٰ تطلب أن نقنعها بأن الحجاب فرض، مع أن أدلتهما مما طفح به الكتاب وطفحت به السنة، ولكن الهوىٰ غلب.

٢- إن القلوب بيد الله تعالىٰ يقلبها كيف يشاء، وله في كل ما يفعل ويُقَدِّر الحكمةُ البالغة، وأهل الكفر لن يهتدوا إلا إذا أذن الله وشاء أن تتغير قلوبهم، فهو خالقهم ومالكهم، وهو الذي له السلطان والغلبة والقهر، وهو الذي يعلم ما في سرائرهم.

وهذا ينفعنا في أن نَصْدق الله تعالىٰ بطلب الهداية والثبات، وأن نستحضر أن نعمة الطاعة التي أكرمنا الله بها إنما هي بتوفيق منه، وأن المؤمن الذي يحمل البصيرة لا يغتر بحفظه للقرآن، أو بقيامه لليل، أو بصلته للأرحام، أو بدوام صدقته وكثرتها، ولا يُبطل كل ذلك بداء العُجب والرياء؛ فإن الفضل في كل ذلك لله أولًا وآخرًا.

٣- إن أكثر أهل الكفر يجهلون خالقهم وعظمته، ويقيسون بعقولهم القاصرة الخالق علىٰ المخلوق، ويحسبون أن الإيمان إليهم، والكفرَ بأيديهم، متىٰ شاؤوا آمنوا، ومتىٰ شاؤوا كفروا، حتىٰ وصل الحال ببعضهم إلىٰ إنكار الألوهية، إو إلىٰ ادعاء الألوهية، أو إلىٰ الإشراك مع الإله الواحد، وهذا هو الضلال الذي ليس بعده ضلال، ولذلك قال الله تعالىٰ في ختام الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

ونسبة الجهل لأكثرهم تدل على أن منهم من يعقل وإن كان قليلًا، وهذا الذي عقل عن الله مراده من خلق الخلق وإرسال الرسل، إما أنه سيهتدي في قادم الأيام إذا تجرَّد للحق، وإما أن يصرَّ على كفره عنادًا أو حسدًا.

وذهب بعض أهل التفسير إلى أن الذين يجهلون في هذا الموضع هم المؤمنون، وذلك لأنهم رغبوا في أن يستجيب الله لأهل الكفر، وينزل عليهم الآيات التي طلبوها يوم أقسموا بالله لئن جاءتهم ليؤمنن، فأخبرتهم الآية هنا أن هؤلاء لا يطلبون الآيات ليستدلوا بها على طريق الهدى، وأنها لو جاءتهم فسيمتنعون عن الإيمان ويختلقون أعذارًا كسابق حالهم، وأخبرتهم أنهم يتظاهرون بما طلبوا ليطعنوا في الرسالة، ويُظهروا أمامكم أيها المؤمنون أن أدلة صدق النبي ﷺ لم تكتمل عندهم، ويُدخلوا الوَهن والضعف إلى قلوبكم كما دخل إلى قلوبهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾

إخبار من الله تعالى لنبيه ﷺ بسنة من سننه مع أنبيائه، وهي أنه جعل للأنبياء من قبله أعداء يكفرون بهم ويحاربونهم، كما هو الحال معه، وهؤلاء الأعداء ليسوا فقط مِن الإنس، بل هم كذلك مِن الجن، وهذا فيه تسلية له، وربط على قلبه، وإذهاب للحزن عنه لِمَا يجده من صدود قومه وإفراطهم في العداوة. قال الله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٨٤]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ما قاله وَرَقَةُ بنُ نَوْفلٍ لنبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أول ما نزل عليه الوحي، قال: "لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ".

وصفت الآية أعداء الأنبياء بأنهم شياطين، أما شياطين الإنس فإنهم ظاهرون على الغالب، وتراهم يسارعون في الكفر ونصب رايات العداء للأنبياء، ويسعون في إضلال من حولهم، وأما شياطين الجن فإنهم لا يظهرون بأعيانهم، ولكنهم يزينون لأوليائهم من الإنس كفرهم وصدودهم، ويعينونهم بالوسوسة وأفكار السوء، ويغرقونهم في الفواحش والمنكرات لتبقى قلوبهم مظلمة.

ومعلوم لديكم أن الإنس والجن منهم الصالحون، ومنهم الشياطين المفسدون، ومنهم ما بين ذلك.

واعلموا أن هذه العداوة ليس فقط لأنبياء الله ورسله، بل هي سنة قدرية جعلها الله لجميع الدعاة إلىٰ سبيله في الحياة، وهو ما لا يخفىٰ عليكم في زماننا الذي نرىٰ فيه من يتربص بالمؤمنين ويكيد لهم، ويمكر بهم صباحه ومساءه، ويبذل ماله وإعلامه وسلطانه ليحول بينهم وبين الناس، وليحول بينهم وبين تحكيم شريعة الله ودينه.

والمطلوب: لا تخافوهم، ولا تُمكِّنوا لهم، واحذروا من تزيينهم للباطل بزُخْرف القول، وتَسلَّحوا بالعلم والفهم وبما استطعتم من قوة، وامضوا في طريق دعوتكم حتىٰ يفصل الله بينهم وبينكم.

ولكم أن تتأملوا في قول الله ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، أي: يتكلم شياطين الإنس والجن كلامًا خفيًّا فيما بينهم، ويلقون إلىٰ بعضهم وإلىٰ غيرهم القول المُزيَّن والمزخرف، ويتعاونون علىٰ الشَّرِّ، ويتعلمون من بعضهم كلامًا وأفعالًا يخدعون بها غيرهم من الجهلة والأغبياء الذين تُبْهرهم الكلمات المعسولة، ويغترُّ بسببها من يسمعهم أو يرىٰ فعلهم، فضْلًا عن اغترارهم بأنفسهم. قال الله تعالىٰ عن أهل الكفر: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

وهذا الإيحاء يدل علىٰ عمق الشراكة والتناصر والتعاون بين شياطين الإنس والجن، والتي يقوم جزء منها علىٰ اشتراط الكفر بالله وتقديم القربات من شياطين الإنس إلىٰ شياطين الجن، والتي تقوم علىٰ الإعانة في التفريق بين الناس والتحريش عن طريق السحر والشعوذة؛ كل هذا يفعلونه في الدنيا.

أما في يوم القيامة فيكفر بعضهم ببعض، ويتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا، ولن يفلحوا أبدًا. قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ لا يكون في هذا الكون إلا ما شاءه الله وأراده، فاصبر حتىٰ يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

لو أراد الله أن يهدي أقوام الأنبياء فلا ينالهم ضر أو أذية أو مكرٌ لَفَعَل، ولكن الله تعالىٰ قدَّر أن يبتلي بعضهم ببعض، لتتم حكمته من خلقهم وإيجادهم.

واعلموا أن الله تعالىٰ جعل الناس جميعًا مستعدين للحق والباطل، والخير والشر، وجعلهم مختارين في سلوك الطريقة التي يريدونها. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ: فاترك أهل الكفر في غَيِّهم يعمهون، وفي إفكهم وافترائهم يتيهون، وفي كذبهم ليصدوا الناس عن الدين يسيرون، واستقم كما أمرت، وبلغ ما أوحي عليك، وتوكل علىٰ الله في مدافعتهم فإن الله تعالىٰ كافيك شرورهم، وناصرُك عليهم، والعاقبة للمتقين.

ومعلوم لديكم ان الله تعالىٰ كفىٰ نبيه ﷺ قومه وأعداءه، ومكَّن له ونصره، وأهلك المستهزئين وخذلهم، فأبشروا يا مفاتيح الخير وامضوا في طريقكم، واتركوا أعداء الدين في مكرهم وهمزهم وغمزهم يسرحون ويمرحون، فإن العاقبة لكم.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

أي: وليستمع أهل الكفر إلىٰ زخرف القول، والكلام المُنَمَّق المعسول الذي يبذله شياطين الإنس والجن، ولتميل قلوبهم إليه وترضىٰ عنه وتحبَّه دون بحث عنه وطلب لصحته، وهذا يدل علىٰ كمال انقيادهم للباطل، واتباعهم لرؤوس الكفر والظلم، وامتناعهم عن دعوة النبي ﷺ ودعوة حملة الشريعة من بعده.

ولكم أن تتأملوا كيف وصفتهم الآية بأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولعل ذِكْر هذا الوصف بخصوصه يدلنا علىٰ حرص الشياطين علىٰ الكفر باليوم الآخر، ويعطينا السبب الأكبر في هذه الجرأة التي نراها من أهل الكفر والفواحش والمنكرات، الذي يبارزون بعصيانهم، ويجاهرون ولا يستحون من الله أو من الخلق؛ إنهم لا يؤمنون بما ينتظرهم بعد الموت من أهوال مفجعة وأحوال مفزعة، ولا يعني لهم ذكرُ نعيم القبر وعذابه شيئًا، ولا الحديثُ عن الجنة والنار وما فيهما.

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ وكأنها تشير إلىٰ أنهم بعد رضاهم بالكفر ورسوخ العقيدة الباطلة فيهم، سيسارعون في التكذيب وسوء الأعمال، وسيقترفون أمورًا تصد الناس عن دينهم، وتفتنُهم فيه، وتُلَبِّسُ عليهم عقائدهم وشعائرهم وأخلاقهم.

هذا حال أهل الكفر الذين بلغتهم الحجة، وعلموا أن الله حق، ثم لم يؤمنوا، فإنهم إما رؤوس في الكفر والفسق والضلال، وإما أتْباع يُكَثِّرون سواد الباطل وأهله.

إن أهل الإيمان لا يغترون بزخرف القول وظاهره، ولكنهم أصحاب بصيرة يدركون بها حقائق المعاني، ويميزون بين الخبيث والطيب، ويسارعون في مرضاة الله وخدمة دينه في الأرض.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

قل يا رسول الله ﷺ لقومك، وقولوا أيها المؤمنون للمجرمين من حولكم: كيف أرضى بغير الله تعالى حَكَمًا بيني وبينكم ؟! والله هو الذي أنزل القرآن مُبينًا للحق الذي لا يرتضي غيره، ومُوضحًا لصفات أهله وحملته، وقد فصل فيه سبحانه وأوضح ما يدل على صدقي فيما أدعوكم إليه، وذكر فيه معالم الفلاح في الدَّارَيْن، حتى كان هذا القرآن أعظم معجزة تقود الناس للإيمان، وهي أظهر من المعجزات التي طلبتموها لو تأملتم. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

قل لهم: كيف أحتكم إلى كلام من وجدنا فيه الخلل والنقص والجور، ومن لا يعلم الغيب ولا يملك النفع والضر ؟!

قل لهم: ليست الآيات التي طلبتموها هي الحكم بيني وبينكم، وليست أعرافكم وما نشأ عليه آباؤكم هي الحكم، ولكن الله تعالى الذي سيكون مرجعنا إليه هو الذي يحكم بيننا، وقد حكم ربنا عليكم بأنكم ضالون وجاهلون، وأنكم محادُّون لله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤].

ولعل هذه الآية تذكرنا بأقوام من أبناء الإسلام يعرضون دين الله تعالى وأوامره على آراء الناس ليحكموا فيها، فتراهم يخرجون في مجالسهم ووسائل تواصلهم مع جمهورهم بأسئلة لا يليق أن نعرضها على الناس، كقولهم: ما رأيكم في الحجاب، وما رأيكم بشرب الخمر، ونحو ذلك، وهذا فيه فتح لأبواب شرور، وانتقاص من قدر الشريعة وقدر منزلها، وفيه فتنة لمن يستمعون للكلام الذي يضاد الشريعة وأحكامها، وإن كان بعض من يقومون بذلك محسوبين على الدعوة وقادرين في حينها على إدارة الحوار، والأصح أن يبينوا للناس حكم الله في الحجاب والخمر ونحو ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ كيف نرضى بغير القرآن ودين الله حكمًا، وأحبار اليهود يعلمون تمام العلم أن القرآن الذي أدعوهم إليه قد نزل من عند الله حقًّا وصدقًا، وكذا رهبان النصارى، ولكن العناد والحسد حال بينهم وبين التصديق والإيمان. قال الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [يُونُس: ٩٤].

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ فيه توجيه له بأن لا يكون من الشاكِّين أو المترددين في مسألة علم أهل الكتاب بصدقه، وعلمهم أن القرآن كلام الله وكتابه الذي ارتضاه للعالمين.

علماء اليهود ورهبان النصارى أدرى الأمم بصدق هذه الرسالة، فإن القرآن الذي علموه لا يمكن أن يأتي به أعلم الخلق فضلًا عن أن يكون الذي أتى به أمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾

بَذَل أعداء الدين الغاليَ والنفيسَ ليقضوا على هذا الدين في مهده، ومارسوا كل أنواع الترهيب والتضليل والإيذاء والتنفير، ولكن كلمة الله تمت، ودينَه الذي ارتضاه انتشر، والقرآن الذي أنزله بقي.

تمَّت كلمة الله صدقًا وتحققت، أي: جاء هذا القرآن صادقًا بكل ما أخبر به وعنه من أمَرِ هذا الكون وهذه الخلائق، وحَمَله أهله بلا مرية ولا شكٍّ، ولازمه الصدق قرونًا كثيرة حتى وصل إلينا كما نزل.

وتمت كلمة ربك عدلًا، أي: وتحقق أمر الله وقوله بحفظ القرآن كما وعد، وجاء القرآن في أوامره ونواهيه قائمًا على العدل وداعيًا إليه، فلا تجد فيه ما يخالف ذلك، والعدل هو وضع كل شيء من هذا الخلق، ومن أحكام الدين، ومن الحقوق والواجبات في موضعه اللائق به، وعَكْسه الظلم والباطل.

فالصدق في الأخبار، والعدل في الأمر والنهي.

ومن أهل العلم من قال: إن كلمة الله التي تمت ليست القرآن العظيم فقط، وإنما كل ما وعد الله تعالى به نبيه والمؤمنين، وقد تم ما وعدهم به من نصرهم وتمكينهم في البلاد والعباد، وتم ما وعدهم به من خذلان المشركين وطردهم من بلاد الحجاز ثم من الشام ثم من باقي البلاد التي وصلوها.

وكان وعد الله هذا صِدْقًا لأنه كان كما وعد سبحانه، وهو عدل لأنه جرىٰ وفق قواعد الله تعالىٰ وسننه بأن ينصرَ عباده إذا أقاموا الدين، ويُذِلَّ أعداءه الذين يحاربون الدين. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ سيبقىٰ الدين محفوظًا إلىٰ أن يأذن الله، وسيبقىٰ القرآن مهيمنًا وحاكمًا، وستبقىٰ الدعوة ماضية إلىٰ أن يأذن الله، ولن يستطيع أهل الشر أن يطفؤوا نوره، أو أن يفسدوه علىٰ حملته وحفظته وحُرَّاسه، أو أن يغيروا فيه ولو اجتمعوا عليه من مشارق الأرض ومغاربها.

انظروا إلىٰ ما تغرسه الآية في نفوس حملة هذا الدين من الثقة بموعود الله، وتأملوا في الدافعية الكبيرة التي يُحدثها خطاب الله هنا، والذي يدفع أصحاب الفطر السليمة المُحبة لدينها للعمل له، ليكونوا خير ورثة للأنبياء في جهادهم ودعوتهم.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع سبحانه كلام من خلق، سِرًّا كان أو جهرًا، ويعلم ما في صدور قائليه، ويعلم حركاتهم وسكناتهم، وهو الذي يجازيهم بما عملوا.

يسمع الله نجوىٰ المنافقين والكافرين الذين يمكرون الليل والنهار ليفسدوا في الأرض، ويسمع ما يوحي به شياطين الإنس والجن إلىٰ بعضهم، ويعلم تدبيرهم وتخطيطهم، وهو سبحانه يستدرجهم من حيث لا يعلمون.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦﴾

قاعدة عظيمة تعيننا في فهم ما يجري حولنا، وتعطينا مفتاح تقييم الأقوال والأفعال، وتقول لنا: ليست العبرة في معرفة الحق من الباطل بالكثرة، ولكن العبرة بموافقة الشرع واتباع هدي محمد ﷺ وأصحابه ومن سار علىٰ نهجهم، مع الإخلاص في الأقوال والأعمال والأحوال. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

أكثر الناس تحب سماع الحرام والنظر إليه، وتأنس بمجالسة أصحابه وتطمئن إليهم، وتتبع المال والقوة علىٰ حساب الحق الأبْلج الواضح البيِّن، ولذلك خاطبت الآية نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لئلا يحزنَ علىٰ حال أكثر الناس من قومه ومن الأمم، ولِيَصْبِرَ علىٰ مرحلته الصعبة التي يعيشها فإن فرج الله قادم، ولِيَقْصِدَ الصراط المستقيم وإن كان السالكون فيه قليلًا، وأظن أن الرسالة وصلت إليكم أنتم أيضًا أيها القابضون علىٰ دينهم في زمن الغربة.

جاءت هذه الآية في هذا السياق لتربط على قلب نبينا ﷺ وتُسلِّيه بسبب إصرار أهل مكة على معاداته والتكذيب بما جاء به، مع شدة حرصه على إيمانهم.

وجاءت كذلك لتربط على قلوب الداعين إلى دين التوحيد في كل زمان، تقول لهم: اقصدوا الصراط المستقيم واثبتوا عليه وفيه، واجعلوا همتكم في مرضاة الله لا في مرضاة خلقه، واعلموا أن أكثر الناس في غفلة ولهو، وأن نور الإيمان في قلوبهم خافت ضعيف لا يتجاوز اللحظات إذا أضاء، وتذكروا أنكم تأتون الله فرادى كما خلقكم أول مرة. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

وجاءت كذلك لتقول لهم: حال النبي ﷺ في دعوته التي كان أكثر الناس في زمنه يحاربونها، تُعلمنا أن الدعوة إلى الله تعالى تنتصر على العوائق، وتُصَيِّر الصعب سهلًا، وتطرق قلوب الناس ولا تعرف الكسل ولا الملل.

إن أكثر أهل الأرض في زماننا هم من عُبَّاد الأصنام والنار والبقر، ومن اليهود والنصارى الذي يشركون مع الله، ومن الملحدين الذين لا يؤمنون بوجود إله، وهؤلاء مجتمعون لا يدعون إلى الهدى، ولا يرتضون بالإسلام شِرْعة ومنهاجًا.

أقول: إن حملة الرسالة مشفقون على الخلق، لا يضرهم انتفاش الباطل وكثرة أهله، ولا يقنطون لحال أكثر الناس ولا ييأسون، ولا يطيعونهم ولا ينقادون إليهم، بل يبلغون رسالات الله ويمضون في طريقهم حتى يكرمهم ربنا بلقياه، ويفصل بين الجميع.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أهل الكفر يعيشون في ظنون وأوهام، وقلوبهم لا تحمل يقينًا، وتراهم يتقلبون في العقائد الضالة، والأديان السخيفة، والفكر المنحرف، ويبنونها على الخَرْص، أي: على التخمين والتوقع لا على العلم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

لا تجعل حزنك على ما يفعله أهل الكفر مُشْغلًا لك عن رسالتك، ولا تلتفت كثيرًا إلى ما يقولون، فالدين ماضٍ، وربك أعلم بمن يستحق الضلالة منهم فيُمْلي له، ويرسل الشياطين عليه تؤزه أزًّا إلى الكفر، وهو أعلم بمن يستحق الهداية من عباده فيشرح له صدره وييسر له أمره، ويكرمه بالتوحيد والعبادة والثبات حتى الممات، وهذا ما لا يعلمه إلا الله.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

جاءت الشريعة بعدد من الأحكام التي تُفرق بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وتجعل التمايز بينهم مطلوبًا في التشريع والأحكام كما هو مطلوب في الاعتقاد، ومنها التسمية على الذبيحة التي يُباح أكلها، فالمشركون كانوا يأكلون من الميتة، وكانوا يتقربون لأصنامهم بذبائح يذكرون أسماء معبوداتهم عليها ظانين أنها ترضى بذلك، وأن هذا الأمر يرضاه الخالق الذي يزعمون أنهم يعبدونه وأن الأصنام واسطتهم إليه.

جاءت الآية تبيح للمؤمنين الأكل من الذبائح التي ذُكر اسم الله عليها، وتربطهم بخالقهم الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا يُقبل تقديم نُسك، أو بذل طاعة، أو إطلاق نذر، إلا له سبحانه وتعالى.

﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ كلوا على منهاج الله وشريعته إن كنتم مصدقين بحجج الله، ولا تغرنكم زخرفة ما توحيه الشياطين إن كنتم بلقاء الله موقنين.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

يا أيها المؤمنون: لا تجدوا في أنفسكم أي حرج في الأكل مما تمت تذكيته وتم ذبحه على الطريقة التي أمر الله تعالى بها، فهذه من الطيبات التي أباحها لكم لتسعدوا.

يا أيها المؤمنون: لقد بيَّن الله لكم الحرام من الحلال، ووضح لكم ما هو ممنوع في الطعام، فتعلَّموا أحكام شريعتكم، واحرصوا على اجتناب أكل الحرام إلا إذا اضطررتم، فإذا حصلت الضرورة فالأكل من الطعام المحرم مباح، بل قد يكون واجبًا، وذلك في أحوال.

وقد بين أهل العلم تلك الأحوال التي يجب على المسلم فيها أن يأكل مما حرَّم الله، وذكروا الضوابط المتعلقة بذلك مع أدلتها وطرائق استنباطها، ومن ذلك:

١- يجب الأكل من الميتة حال الضرورة، وذلك في ظاهر مذهب الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله وجزاهم عنا كل خير، وهناك أقوال في المذاهب أنه يستحب ولا يجب، وهو خلاف المعتمد عندهم.

٢- ضابط الضرورة هو وصول الإنسان إلى حدٍّ يموت فيه، أو يقارب الموت، أو يفقد عضوًا من أعضاء بدنه إذا لم يأكل.

٣- ومن أحوال الضرورة ما لو أكرهه ظالم على الأكل من الميتة وإلا قتله أو أفقده عضوًا من أعضائه، فله أن يأكل كما طلب إذا غلب على ظنه أن هذا الظالم سيقتله، وكان يحمل معه سلاحًا يدل على ذلك.

٤- يجب إطعام المضطر المشرف على الهلاك؛ لأنه إحياء للنفس وحفظ لها.

٥- لا بد أن تكون الضرورة قائمة حتى نأخذ بحكمها، ولا بد من عدم وجود أي وسيلة أخرى لدفع الضرورة إلا بالأكل من الطعام المحرم.

٦- يجب على الآكل من الطعام المحرم أن يقتصر على ما يسدُّ به رمقه ويندفع به الهلاك ولا يتجاوز، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وعند المالكية خلافًا للجمهور: يُباح له أن يأكل حتى يشبع.

ولقائل أن يقول: وأين فصَّل الله لهم المحرمات وبينها لهم، والسورة التي معنا سورة مكية؟

والجواب أن عددًا من أهل العلم ذهب إلى أن التفصيل جاء في نفس السورة، في قول الله تعالى في الآية الآتية: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، ومعلوم لديكم أن سورة الأنعام نزلت دفعة واحدة كما ذكرنا في أولها.

أقول: تفصيل هذه المحرمات لا يتوقف عند الآية المذكورة وإن كانت تسعف من نزل القرآن فيهم من المؤمنين في مكة في أول الرسالة، وإن كانت تناسب تفسير الخطاب على أنه يصف حالة يعيشها قوم بعينهم، ولكن الآية لا يقتصر خطابها وتوجيهها على القوم الذين نزلت فيهم، بل هي عامة للأمة جميعًا، ولذلك أقول: إن تفصيلها جاء ممتدًّا في نصوص الشريعة من الكتاب والسنة وإن نزلت في المدينة، كأوائل سورة المائدة وغيرها، وجاءت فيما أجمع عليه أهل العلم في اجتهادهم واستباطهم وكلامهم.

وفي تفصيل فقه الأطعمة، وما أباح الشرع لنا أن نأكل منه وما حَرَّم، أقول:

١- الأصل في الأطعمة والأشربة هو الحل، ولا نُحَرِّم إلا ما دلَّ عليه الدليل، ولذلك تجدون مساحة المحرم في هذا الباب قليلة، فالشراب كله مباح إلا المُسْكر، والمطعومات من غير الحيوان لا يحرم منها إلا ما كان نجسًا كالسَّمْن القليل الذي وقعت فيه فأرة ميتة، وإلا ما كان مُضرًّا كالسُّموم والمخدرات مثلًا.

٢- حيوانات البحر كلها يجوز أكلها بدون تذكية، وإن وجدناها ميتة وطافية على البحر، خلافًا للحنفية في الطافية فإنهم يرون حرمتها.

٣- جاء النهي في حيوانات البَرِّ عن أكل كل ذي ناب من السباع كالأسد والنمر ونحوهما، وهو نهي محمول على التحريم عند جمهور أهل العلم، ومحمول على الكراهة عند المالكية.

٤- ومن الحيوانات التي يحرم أكلها عند جمهور أهل العلم ما كان مستقذرًا في نفوس من نزلت فيهم الرسالة، ولا زال كذلك عند كثير من الناس، كالدود، والذِّبان، والفأر، والخنافس، والصُّرصور، وجميع الحشرات.

ومن الحيوانات التي يحرم أكلها ما كان مؤذيًا وضارًّا كحية وعقرب ودبور، وقد خالف المالكية في عدد منها ولهم فيه تفصيل.

٥- الأكل من كل ذي مخلب من الطير كالصقر والنسر ونحوهما محرم عند جمهور الفقهاء، خلافًا للمالكية الذين يرون إباحته في المشهور عنهم.

٦- من أهل العلم من أجاز أكل الضبُع كالشافعية والحنابلة، ومنهم من أجاز أكل الثعلب كالشافعية، والجمهور على إباحة أكل الضَّبِّ خلافًا للحنفية.

٧- كل صيد متوحش ليس له ناب يفترس به، وليس من الحشرات، فأكله مباح، كالغزال والحمار الوحشي.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ خذوا الهدي والعلم والعمل من شريعتكم، ولا تلتفتوا إلى ما يفعله كثير من الناس فيما يشرعون وفيما يمنعون، فالهوى غلب عند كثير منهم، وصار إلهًا يُعبد من دون الله، وصار أصحابه يأخذون من الدين ما يعجبهم وينكرون ما لا يعجبهم، وصاروا يأتون بأحكام من كيسهم ومن تفكيرهم لأنها توافق أهواءهم ومصالحهم وإن كانت تخالف دين الله وشرعه، وإن كانت خالية من البرهان والبيان.

لقد أباح كثير من الأمم قديمًا وحديثًا الأكلَ من الميتة، والأكلَ من لحم الخنزير والكلب، والأكلَ من الذبائح التي ذُبحت تقربًا للأصنام وللأحجار وللقبور، بل وجدنا منهم من يأكل الزواحف المستقذرة، والسباع التي لا تعيش إلا على لحوم الغير، والحشرات التي لا تعيش إلا على القاذورات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ يعلم ربنا وربهم وخالقنا وخالقهم، ما يفترونه عليه من الإباحة والتحريم، ويعلم كذلك اعتداءهم بالأكل مما حرَّم الله بدون حُجَّة أو نظر، وسيحاسب هؤلاء الضالين المُضلين على كل ذلك، وسيعاقبُهم ولن يفلتَهم، فامضوا بثقة في طريق عبوديتكم أيها المسلمون، ولا تَعْتدوا مثلهم، واسألوا الله الهداية والثبات.

وختام الآية يشير إلى أقوام يتكلمون في دين الله بدون علم، ويحلون ويحرمون ويوجبون ويمنعون بدون هدى، والله تعالى لهم بالمرصاد، وسيجازيهم على اعتدائهم على مقام الألوهية والتشريع والبيان.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

ظاهر الإثم هو الحرام الذي يفعله صاحبه جهرًا وعلانية، وباطن الإثم هو الذي يخلو به صاحبه عن أعين الناس ويفعله.

وظاهر الإثم هو القليل في غالب حياتنا، وباطن الإثم هو الكثير وإلى الله المشتكى.

وظاهر الإثم هو الذنب الذي يعرفه كل الناس ويستحضرونه ويدركونه، وباطن الإثم هو الذنب الذي يغفل عنه كثير من الناس مع أنهم يفعلونه، كالكِبْر والعُجب والرياء.

وظاهر الإثم هو أفعال الجوارح، وباطنه أفعال القلوب كالحسد والحقد.

وذروه، أي: اتركوه واجتنبوه، واتركوا طرائقه وأبوابه، واهجروا الداعين إليه والمتاجرين به، وعادوهم وأرشدوهم وأنكروا عليهم، واعلموا أن هذا هو طريق طاعة الله وعبادته لمن أراده لا غيره.

يا أيها الناس: إن الله تعالى أمركم بعبادته، وأوجب عليكم طاعته فيما أمر ونهى، فلا تعدلوا عن الصراط المستقيم الذي ارتضاه، ولا تعرضوا عن طريق عِزِّكم وفلاحكم. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣٣].

يا أيها الناس: لا يغرنكم أولئك الذين يزعمون ظاهرًا أمامكم أنهم أتقياء وأنقياء، ولا تغتروا ببعض أعمالهم الظاهرة من الصدقات والإصلاح وبذل الخير، فإن كثيرًا منهم لا يفعلون ذلك إلا طلبًا لثنائكم ومدحكم، وكثيرًا منهم يكسبون الإثم في خلواتهم ولا يألمون، بل انظروا إلى الفساد الذي يُحدثونه في الناس جَرَّاء تركهم لأوامر الله، وجرَّاء نبذهم لشريعة الله. قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ لقد اقترفوا الذنوب ظاهرها وباطنها وفعلوها، وأصروا على الشرك وماتوا دون توبة منه، وانغمسوا في كبائر الذنوب كالزنا والكذب وماتوا دون توبة منها، بل أصروا على الصغائر ولم يُقبلوا على مكفراتها أو يتوبوا منها، فهؤلاء لهم عند الله جزاء لا يسرهم بما كانوا يكسبون.

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾

ينهى الله تعالى عباده عن الأكل مما لم يُذكر اسم الله عليه عند الذبح، ويخبرهم بأن مخالفة أمر الله في ذلك فسقٌ وخروجٌ عن طاعته، وفيه تعريض النفس لسخط الله وعقوبته.

ومعلوم لديكم أن أهل الشرك كانوا يتعمدون ذكر اسم آلهتهم من الأصنام على ذبائحهم، ويتعمدون ترك إفراد اسم الله عليها، فهذا مما حرَّم الله أكله. أخرج مسلم عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال: "وَلَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ" الحديث.

وقيسوا على ذلك ما يفعله بعضهم من الذبح باسم فلان من الأموات أو الأحياء زاعمًا ولايته، وما يفعله بعضهم من الذبح باسم وليه من الجن، والله المستعان.

قال أهل العلم: يحرم أن تذبح ذبيحة باسم الله واسم نبيه ﷺ، أو باسم الرسول وحده ﷺ، فهذا من الإشراك بالله، ومنه ما يفعله الكتابي يوم يذبح لكنيسته أو لصليبه أو لموسى أو لعيسى عليهما الصلاة والسلام، فهذا كله مما لم يذكر اسم الله عليه إفرادًا.

وليس من ذلك ما نفعله من ذبح العقيقة استبشارًا لقدوم المولود، ولا ما نذبحه احترامًا للضيف ولمن جاءنا، فهذا مما نذكر اسم الله عليه، ولا نذبحه تعظيمًا لهم وعبادة.

ومعلوم لديكم أن ذِكر اسم الله تعالىٰ إنما يكون عند ذبح ما أباح الله أكله، كالإبل والبقر والغنم والدجاج، ونحو ذلك.

ولقائل أن يقول: ما حكم الأكل من الذبيحة التي لم يُذْكر اسم الله عليها ؟ وهل هناك فرق في الحكم بين تعمد ترك الذكر وبين نسيانه ؟ وهل يلزمنا سؤال أهل الكتاب عن تسميتهم علىٰ ذبائحهم ؟ أقول في جواب هذه المسائل:

١- تجب التسمية عند تذكرها، وتسقط عند نسيانها، فمن نسي فلا حرج في الأكل من ذبيحته بخلاف ما لو تعمد. وهو قول جمهور أهل العلم من الحنفية والمالكية والحنابلة.

٢- ذهب الشافعية إلىٰ أن التسمية سنة وليست واجبة، فإن تركها متعمدًا فتُكره ولا يحرم أكلها. وحملوا الآية التي معنىٰ علىٰ أن الذابح ذكر اسم الأصنام علىٰ ذبيحته، يعني: ذبح لغير الله تعالىٰ، وقالوا: إن الله تعالىٰ أباح ذبائح أهل الكتاب وهم لا يذكرون اسم الله عليها غالبًا، فدل ذلك علىٰ أن التسمية سنة.

٣- ذهب عدد من أهل العلم كأهل الظاهر إلىٰ تحريم كل ذبيحة لم يُذكر اسم الله عليها عند ذبحها، سواء كان ذلك عن عمد أو نسيان.

٤- ذهب الحنفية والمالكية إلىٰ أن التسمية علىٰ الصيد واجبة عند إرسال الكلب المعلم أو رمي السهم، فإنْ تَعَمَّد ترك التسمية فلا يحل الأكل من الصيد، بخلاف ما لو نسي فيجوز.

أما الحنابلة فلا يحل الصيد إن تعمد ترك التسمية، وكذلك إذا نسي.

والشافعية يرون أن التسمية سنة في الصيد كما هو الحال في الذبح.

٥- طعام الذين أوتوا الكتاب حلال لنا، والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارىٰ، وهؤلاء يعتقدون تحريم الذبح لغير الله في دينهم، وتأمرهم كتبهم بذكر اسم الله علىٰ ذبائحهم، وقد علم الشرع كثرةَ اختلاطنا بهم بخلاف غيرهم، فكان التيسير الذي عهدناه في الشرع بإباحة ما ذبحوه وما طبخوه، وقد أخرج البخاري قصة قبول النبي ﷺ الشَّاة التي أهداها له يهودُ خيبر وأكلِه منها، والتي كانت مسمومة.

وهل يلزمنا سؤالهم: هل ذكروا اسم الله عند الذبح أم لم يذكروه؟ والجواب أنه لا يلزمنا ولا يجب علينا، فقد أخرج البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ قَوْمًا قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَا بِاللَّحْمِ، لاَ نَدْرِي: أَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ لاَ؟ فَقَالَ: "سَمُّوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ وَكُلُوهُ" قَالَتْ: وَكَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالكُفْرِ. يعني: أسلموا جديدًا.

ولكن لو علمنا يقينًا وثبت لدينا أنهم ذبحوا بطريقة غير شرعية، فيحرم علينا الأكل.

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ أهل الباطل يجادلون أهل الإيمان دومًا في مسلمات عقيدتهم وأحكام شريعتهم وأخلاقهم، فتارة يزعمون أنه لا إله، وتارة يزعمون أن شريعتنا لا تصلح لزماننا، وتارة يريدون لأخلاق أهل الكفر وقيمهم أن تسود، وتارة يجادلون في حرص المصلحين على الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك.

تخبر الآية أن هذه المجادلة إنما هي بإيحاءٍ خفيٍّ ووسوسةٍ خادعة من الشياطين، وتلبيسٍ منهم على من يطيعونهم، وأن هذه المجادلة سلاح من أسلحة أهل الباطل ليُبْطلوا أحكام الإسلام وشعائره، وليصدوا الناس عن الدين، ويدخلوا الضعف إلى نفوسهم، ويدخلوا الشك إلى قلوبهم وعقولهم.

انظروا في أهل الكفر كيف كانوا يجادلون نبينا ﷺ في تحريم أكل الميتة، وكيف يأتون بكلام يظنون أنه علميٌّ صحيح، وأنه يظهر ذكاءهم وقياسهم الصحيح، وما هو إلا قياس فاسد يخالف أصول الشريعة وانقياد حملتها لأمر الله ونهيه.

أخرج الترمذي وأبو داود وابن ماجه، واللفظ للترمذي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "أَتَى أُنَاسٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَأْكُلُ مَا نَقْتُلُ وَلَا نَأْكُلُ مَا يَقْتُلُ اللَّهُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وكأنه وقع في نفوس المسلمين شيء من مجادلة أهل الكفر، وسعيهم لإسقاط أحكام الشريعة بمعاني عقلية مجردة عن اتباع هدى الوحي والفهم عن الله تعالى.

جاءت الآية تربط على القلوب، وتحذر مَن وقع في نفسه شيء فأراد مخالفة أمر الله بتحليل الحرام، أو تحريم الحلال، أقول: جاءت لتنبههم على أن طاعة أهل الكفر في ذلك شرك بالله العظيم، وأن طاعتهم في عبادة ذبحهم لأصنامهم مع ذبحهم لله أمر غير مقبول، ولا يفعله المؤمنون.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

الذي يعيش مع كتاب الله تعالىٰ تلاوة وتدبرًا، تراه يمرُّ بآيات تعني له الكثير، وهذه واحدة من الآيات التي نرىٰ كثيرًا من الناس يستدلون بها علىٰ عظم نعمة الله عليهم بالهداية، ويستعملونها في دعوتهم وبيانهم لغيرهم، ويتفيؤون ظلالها التي لولاها لكانوا من أهل الشقاء في الدنيا والآخرة.

يضرب الله تعالىٰ مثلًا للمؤمن الذي كان مَيْتًا، أي: كان يعيش في الضلالة والحَيْرة والضياع، ثم إن الله تعالىٰ بكرمه وفضله أحياه، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وشرح صدره للتوحيد فاطْمَأنَّ وكان من السعداء، ويَسَّر له وعليه طريق اتباع الرسل، وجعله من أهل العبادة الخالصة لله وحده، ومن أهل الدعوة الذين يعيشون لذائذها، ونَقَله إلىٰ سعادة التقوىٰ التي لا يستغني عنها من ذاق حلاوتها.

يبين الله تعالىٰ فضله علىٰ من اختارهم لهدايته من أهل الأرض، مع أن كثيرًا منهم يضلون بأهوائهم، وكثيرًا منهم فاسقون، وكثيرًا منهم يعظمون غير الله ويذبحون لهم ويتقربون إليهم.

وقول الله تعالىٰ هنا يشير إلىٰ أعظم مصيبة قد تحصل مع العبد في الدنيا، ألا وهي المصيبة في الدين، والتي تهون بعدها كل مصيبة، فالذي فقد دينه وترك صلاته، والذي أنكر أهوال يوم القيامة وأنكر أحكامًا معلومة من الدين بالضرورة، حقيقته أنه ميت في ميزان الشرع وليس حيًّا، وما أصعبه من وصف قرآني يدلك علىٰ بشاعة ما هم فيه وصعوبته، ويدلك علىٰ أن متع الدنيا التي انغمسوا فيها وفرحوا فيها ظاهرًا، لا تساوي شيئًا مع نعمة الإيمان التي أكرمنا الله بها، ونعمة الصلاة والسجود بين يديه والدعاء التي هدانا إليها، فالحمد لله أولًا وآخرًا.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ هذا هو النور الذي يجعله يفرق بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، وما يُرضي الله وما يُسْخطه.

هذا هو النور الذي يجعله يعرف طريق أهل الجنة من طريق أهل النار، وطريقَ أهل السعادة من طريق أهل المعيشة الضنك.

هذا النور هو القرآن، وهو سنة نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وسيرة أصحاب النبي رضوان الله عليهم، وطريقة سلف الأمة وعلمائها الربانيين، وهو العمل الدؤوب في الليل والنهار لأهل الجهاد وأهل الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتأملوا لفظة "وجعلنا"، والتي تدل على أن الهداية نعمة من نعم الله أولًا وآخرًا، يجعل لها أسبابًا في حياتنا وييسر لنا طرائقها، وهو يتولانا ويعيننا، فتارة تنفع واحدهم موعظةٌ، وآخر يحصل معه بلاء يُرجعه إلى خالقه، وثالث يذهب إلى بيت الله الحرام فيتغير، ورابع يحضر جنازة ميت قد كان في الدنيا وكان، وهكذا تتنوع الأسباب ولا تدري أيُّها يفتح القلب. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ لا يستوي من يعيش في نور الإسلام والإيمان والعلم، بمن يعيش في الجهالات والأهواء والضلالات، قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، وأحاطت به حتى ضل سبيل النجاة والأمان، فلا يكاد يجد منفذًا ولا مخلصًا، ولا يفكر بالخروج من تفاصيل حياته القائمة على الكفر وكبائر الذنوب التي أَلِفَها، ولا يستطيع الخروج من هذه الظلمات إلا إذا صدق الله بطلب الهداية وتجرَّد للحق.

ما أصعبها حياة أولئك الذي انغمسوا في ضلالات الكفر، فقادهم جهلهم إلى عبادة الأصنام، أو إلى إنكار وجود الله، أو إلى الإشراك به، وقادهم كفرهم إلى أكل الميتة، والذبح لغير الله، واعتقاد أن النفع والضر يملكه غير الله.

وما أصعبها حياة أولئك الذين انغمسوا في بحور الشهوات والكبائر، فتراهم يتقلون بين الزنا وشرب الخمور، والتعامل بالربا وأكل حقوق الناس، والتعامل بالسحر، والسخرية من المؤمنين ومحاربة الدعاة منهم، وسماع الأغاني ومتابعة دعاة الفحش والرذيلة في أوكارهم وأماكن تواجدهم، يفعلون كل ذلك ليسعدوا ويطمئنوا، أو ليُرضوا أسيادهم وكُبَّارهم، ولكن الناظر في حياتهم وما في قلوبهم يجدها تعيش حياة البؤس والظلمة والضياع والشتات. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الْمُلْكِ: ٢٢].

وتأملوا روعة النور وبؤس الظلمات، فالنور واحد لا يتعدد، وهو الصراط المستقيم الذي جاء بيانه في شريعتنا بالكامل، والذي لا يقبل الله غيره، والظلمات كثيرة ومتعددة، وطرق الباطل لا حصر لها، فمن عابد صنم إلى عابد بقر، إلى عابد الكواكب والنجوم، إلى غير ذلك،

ثم إن جمع الظلمات كان لتعدد مصادرها، فالشيطان يستحوذ على كثير منهم، وداعي الهوى والنفس يقود آخرين، والدنيا تتلاعب بأهلها فتنسيهم ذكر الله، فضلًا عن النفس الأمارة بالسوء، وهكذا، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ختام للآية يؤكد أن أهل الكفر في كفرهم يظنون أنهم أسعد الناس وأحسنهم حالًا، وأن أهل الفسق والفجور في لهوهم ولعبهم يظنون أن طمأنية قلوبهم وراحتَهم لا تكون إلا باقتراف كبائر الذنوب، واتباع الهوى، وهذا الظن منهم جميعًا إنما هو من قدر الله الذي كتبه عليهم بعلمه وحكمته، وإنما هو جزاءٌ لهم على أعمال قلوبهم وجوارحهم، وبما كسبت أيديهم.

لا تستغربوا يوم ترون الأذكياء والعباقرة والمخترعين يسجدون لصنم أو بقرة أو فأر، كما هو الحال في زماننا، فالشيطان زين لهم أعمالهم، ولم ينتفعوا بعقولهم في أمر أخراهم وإن انتفعوا بها في أمر دنياهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

أرسل الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أول ما أرسله في مكة، فتصدى له غالب أكابرها وصناديدها ورؤسائها، وجعلوا ينشطون في الصد عن الدين والترغيب بالشرك، ويمكرون بزخرف المقال والفِعال ليمنعوا الدعوة من أن تمتد، فأدخل ذلك حُزنًا شديدًا على قلب نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وعلى قلوب صحبه الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وهو الحزن الذي نجده نحن لما نرى اجتماع أهل الكفر على دعوتنا، ونرى مجاهرة أهل الفسق بفسقهم، ونرى وقاحة الباطل وأهله في إيذاء الدعاة والتضييق عليهم. قال الله تعالى عن قوم سيدنا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نُوحٍ: ٢٢].

تحمل الآية تأنيسًا لقلب نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولقلوب كل من حمل راية الدعوة من بعده، وتقول لهم: وكما جعلنا في قريتكم مجرمين ومفسدين، وجعلنا لهم صولات وجولات في نصرة الباطل، فكذلك جعلنا في الأمم من قبلكم مجرمين ومفاتيح للشر، وقد كانوا يمكرون بأنبيائهم ورسلهم ودعاتهم، وكان يبذلون الحيل تلو الحيل ليقضوا على الدعوة في مهدها ويحولوا دون انتشارها.

ولكم أن تقفوا مع وصف القرآن لقادة الباطل بأنهم أكابرُ المجرمين، وهذا يدل على أن الإجرام درجات، وأن أشدَّ أهل الكفر والفسق على الإسلام والمسلمين هم أحق الناس وأولاهم بوصف الإجرام، بل هم أعظم المجرمين في ميزان الله.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ صحيح أنهم ملكوا القوة وحققوا النصر عليكم في مواطن وأزمان، وصحيح أنهم جعلوا عامة الناس تتبعهم وتقتدي بباطلهم، وصحيح أنه نجحوا في التضييق على الدعوة والصد عنها في أوقات، حتى ظنوا أنهم قادرون على فعل ما يريدون بالمؤمنين، ولكنهم غفلوا عما ينتظرهم في قادم الأيام وبعد موتهم، وغفلوا عن حقيقة التمكين والانتصار، فالفوز لا يكون حقيقيًّا إذا كان في زمن ومكان محدودَيْن، لأن العبرة دومًا بالنصر الممتد في القلوب والعقول، وفي الأوطان والأمم، بل هو ممتد لما بعد الموت، والذي يكون فوز أهل الإيمان فيه فوزًا لا يعقبه خسران، ويكون خسران أهل الشقاق والنفاق والكفر خسرانًا لا فوز بعده أبدًا. قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العَنكَبُوت: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

أهل الكفر والفسق، ورؤوس الشَّرِّ في الأرض، لا يشعرون أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنه سبحانه يُدبِّر الأمر من عنده، وأنه ناصرٌ أولياءه عليهم، وأن له في هذا الكون سننًا وقدَرًا لا يدفعه دافع، ولا يقدر عليه أحد، وأن جنده هم الغالبون. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسْرَاء: ١٦].

وهذا ما حصل مع أكابر المجرمين في مكة التي قدَّر الله تعالى أن يكون نور النبوة منها، فقد قُتل كثير منهم في أول معركة بين الحق والباطل، وتم أَسْرُ آخرين، وبعد سنوات كان فتح مكة وتحولت إلى دار إسلام، وغاب ذكرهم وانطوت صفحتهم، وهذه سنة الله تعالى فيهم، فتأملوا وأقبلوا على العمل، واصبروا.

هذا فضْلًا عما ينتظرهم في آخرتهم من مكر الله بهم كما مكروا للدين، فعليهم من الله ما يستحقون.

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

آية من آيات القرآن التي تُظْهر تَعَنُّت أهلِ الكفر في كفرهم، وعلى رأسهم أكابر المجرمين، وكيف أنهم يطلبون معجزات تكون على وفق ما يخطر لهم، ويتظاهرون بأنهم يريدون الإيمان ولكنهم يشترطون، وشرطهم هذه المرة هو أن تنزل عليهم الملائكة بالوحي والرسالة والمعجزات كما نزلت على محمد ﷺ والأنبياء من قبله. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الْفُرْقَانِ: ٢١].

تخبر الآية أن آيات الله التي تدل على توحيد الله وصدق الرسالة قد جاءتهم، وأنهم رأوها وعاشوها، كمعجزة القرآن العظيم، وانشقاق القمر، ورحلة الإسراء والمعراج، ولكنهم امتنعوا عن الإيمان حتى تتحقق مطالبهم.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ لا يكون إنزال الرسالة واصطفاء الرسل بحسب ما يطلبه الناس، ولكنه أمر يرجع إلى علم الله بخلقه وما يحتاجونه، ويرجع إلى ما أودعه الله تعالى في خلقه من طيب الخصال، ومن سلامة الفطرة، وعلو الهمة، وزكاء النفس، وطهارة القلب وحب الخير والحق، وهي أمور لا يعلمها إلا الله.

أخبر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين أن ما يطلبه أهل الكفر في مكة لا يدل على خير فيهم وحرص، ولكنه ضَرْب من التَّهكُّم والعناد والازدراء والاستكبار، والترفع على الدعوة والدعاة، كما جاء وصف حالهم في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: ٣٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الْفُرْقَانِ: ٤١].

ولقد بلغ بهم المقام أنهم طلبوا أن يكون النبيُّ أحدَ رجلين عظيمين في مكة والطائف، قال أهل التفسير والسِّيَر: هما الوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن عمرو الثقفي في ثقيف، وقيل غيرهما. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزُّخْرُفِ: ٣١-٣٢].

تأملوا كيف يقدحون في نبينا ﷺ بقولهم هذا، وهو الذي عرفوا نسبه وطهره وكمال أخلاقه، وهو الذي كانوا يسمونه بالأمين، ويعلمون صدقه تمام العلم.

بل يقدحون في علم الخالق وحكمته، ويزعمون ضمنًا لا تصريحًا أن اختيار محمد ﷺ ليكون رسول الله للعالمين ليس صوابًا، وأن هناك ما هو أنفع منه للبشرية وأصلح، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

أخرج مسلم عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ".

وأخرج أحمد وغيره عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ".

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ وعيدٌ من الله لهم وتهديد لمن تكبر منهم وأصرَّ على الكفر والعداء، سماهم الله مجرمين، وجريمتهم هذه كانت في حق أنفسهم، وحق أهليهم، وحق مجتمعهم وأمَّتهم.

سيصيبهم صَغَارٌ، أي: ذِلَّةٌ دائمة ومهانة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غَافِر: ٦٠]. وداخرين أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

ولقائل أن يقول: ولماذا كل هذا العذاب الشديد لهم؟ والجواب أنهم لم يكتفوا بالكفر فقط، بل مكروا بهذا الدين كما أخبرت الآية، واستفرغوا وسعهم في تحجيمه والقضاء عليه، والمَكْر يكون غالبًا خُفْيَة، ويكون فيه تَلَطُّفٌ في الخديعة، ويَسْحب بساط الهداية من تحت أرجل الناس وهم لا يشعرون.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾

لا يكون في هذا الكون إلا ما أراده الله وأذن فيه، وربنا جل وعلا لا يُغالب في ملكه، ولا يُمانع في أمره ونهيه، ولا معقب لحكمه، ولا يحيط به خَلقُه علمًا.

إذا قدَّر سبحانه لعبد الهداية والصلاح يَسَّر له طرائق الخير، ونوَّر قلبه، وجعل صدره وعقله ووجدانه مستعدًا للإسلام، وراضيًا به، ومقبلًا عليه، وساكنًا إليه، وسهَّل الله عليه الطاعة وأعانه عليها، وكانت هذه الهداية علامة من علامات الخير والاصطفاء. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الزُّمَر: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحُجُرَات: ٧].

إن نور الهداية يُسارع إلى صاحب الفطرة السليمة والنفس الطاهرة، وإذا قدَّر الله انتفاع عبد به أذعن قلبه وانقادت جوارحه، وأكثر من استعداده للموت، ولم تخدعه دار الغرور، وجعل همته في نشر الخير وبذله في الناس، وصبر على طاعة الله وعلى البلاء، وجعل بينه وبين الشهوات والذنوب سدًّا وحاجزًا، واستحضر على الدوام مشهد وقوفه بين يدي الرب العظيم للحساب والجزاء.

﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾

وإذا أراد سبحانه لعبد أن يضله بما كسبت يداه، حال بينه وبين قلبه، وصرفه عن الانتفاع بالتذكرة، وأشغله بالباطل، وجعل صدره ضيِّقًا لا يتسع للهدى، ولا يَخْلص إليه الإيمان ولا ينفُذُ فيه، ويضطرب عقله وقلبه وباله ولا يسكن إلى التوحيد وإلى العمل الصالح، ويكون حاله كحال من يَصْعد في السماء من شِدَّة ذلك عليه، ويضيق نَفَسُه عليه.

ما أصعبه من حال تصفه الآية الكريمة هنا! فإن الواحد منا لا يملك شيئًا في حياته أعظم من دينه، والمصيبة فيه أكبر المصائب وأشدُّها، ولكم أن تستحضروا حال قلب ذلك الكافر الذي أصابه الكِبْر والحسد، فلا يصل إليه شيء من الخير، ولا يظفر بأعظم كلمة تضمن له سعادة الدارين، وهي كلمة التوحيد.

ولكم أن تستحضروا قلب ذلك المنافق الذي لا تجد فيه إلا الجحود والريبة والشَّكَّ في الدين والقرآن و النبي ﷺ.

أقول: ومثل هذه الآية تجعلك تنظر في حال أقوام ممن حولك حُرموا من الصلاة والصيام وبر الوالدين والدعوة إلى الله، وأحاطت بهم خطاياهم حتى غفل الواحد منهم غفلة عظيمة عن الدار الآخرة وما ينتظر الناس فيها، مع أن الدعاة إلى الله ممن حوله يبذلون الغالي والنفيس ليهتدي، وليكون في ركب أهل النجاة، ولكنه يأبى ويعاند ويغمز ويلمز في الدين وأهله، حتى يموت على ذلك والعياذ بالله، وحينها نوقن حقًّا أنها قلوب، وأنها بيد الله وحده، فاللهم يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

وقد كان أهل التفسير قديمًا يفسرون الصعود في السماء على أنه صورة تمثيلية، ويوضحون ذلك بقولهم: كما أن ابن آدم لا يستطيع أن يبلغ السماء ويصعد فيها وإن حاول، فكذلك لا يدخل التوحيد والإيمان إلى قلبه.

ولمَّا جاء العلم الحديث وأثبت أن الأكسجين الذي يتنفسه الناس لا يكون في السماء كما يكون في الأرض، وأن الصاعد إلى السماء يضيق نفسه وصدره كلما ارتفع لقلة الأكسجين وضعفه، فكان في الآية إشارة علمية لا تخفى، وكانت هذه الإشارة علامة على أن هذا الكلام يستحيل أن يكون من صنع البشر.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما أنهم رفضوا الإيمان ولفظوه، ونصبوا رايات العداء لأهله وحملته، ونصروا الباطل بشكل أو بآخر، فكذلك عاقبهم الله وجعل الرجس عليهم، والرجس هو الخبث والفساد والقذر الذي لا خير فيه، والمقصود به هنا رجس الشرك، كما في قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٥].

وكما أن الله تعالى جعل صدور أهل الكفر والنفاق ضيقة لا تقبل الدين الصحيح، فكذلك سيكون الأمر لكل من شاكلهم وأحبهم وسار على طريقهم، سيسلط الله الشيطان عليهم ويغويهم.

وقيسوا على ذلك حال أهل الإيمان، فكما أن الله تعالى أكرم أنبياءه والصالحين والشهداء بتحبيب الدين إليهم لما اطلع على صدقهم، فكذلك يُكرم كل من تجرَّد للحق، ويعين كل باغ للجنة وعامل لها في طريقه، والله أعلم من هو أهلٌ لتوفيقه كما هو أعلم من هو أهلٌ لرسالته، فاللهم اصطفاء وتوفيقًا.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

إن سبيل الله واحد لا يتعدد، ولا يقبل الله من عباده أن يعبدوه بحسب أهوائهم وأغراضهم، ولا يَقْبل منهم أن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض، ولا يَقْبل من جاحد أو كافر به عملًا، فإن الطريق إلى الله معلوم ومعهود لمن أراده، وهذا كلامه ووحيه محفوظ في كل زمان ومكان.

يخاطب الله تعالى نبيه ويبين له طريق النجاة، ويرشد كل من أراد النجاة والفلاح إلى اتباع الطريق الصحيح، وهو الطريق الذي حملته الأجيال وتناقلته واعتنت به إلى أيامنا، يرشد الله تعالى عباده إليه بعد أن بين في الآية السابقة حال أهل الضلال الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، والذين اتبعوا طرائق شتى وتركوا الصراط المستقيم الذي لا يتعدد.

أقول للناس دومًا: ليس عندنا في ديننا ما نستحي منه، ولا ما نحرص على كتمانه ونخاف من إظهاره، وليس فيه أسرار كهنوت ولا ما يعجز العقل عن فهمه، فإن صراط ربي مستقيم وبيِّن وواضح. وسيأتي معنا قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأقول: الحلال بين والحرام بين كما في الحديث، وما مات رسول الله ﷺ إلا ودلنا على كل ما فيه خير، ونهانا عن كل شر، فالبدار البدار، والمسارعة المسارعة.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ كل من كان حريصًا على أن ينتفع بالتذكرة والبيان، وأَعْمل عقله في خطاب الشرع له وكان مُنْصفًا، فإن الشرع قد فصَّل له وبيَّن كل ما يحتاجه في طريق سيره إلى الله، وسينتفع بهذا البيان أيما انتفاع.

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

وصف الله تعالى الجنة هنا بأنها دار السلام لسلامة من سلكوا صراطه المستقيم فيها، فهم يَحْيون في جنات الله سالمين من العيوب والهم والغم، والأذية والنكد، والتنغيص وضيق الصدر، وآمنين من كل ما يسوؤهم أو يقلق راحتهم. أقول: سلموا من طرائق الانحراف عن الدين والطاعة فسَلَّمهم الله بجواره في دار الكرامة.

الجنة دار السلام التي جعلها الله لأولئك الذين انتفعوا بالتذكرة وبالدعوة، وسارعوا في الأعمال الصالحة، وتركوا شهواتٍ محبَّبَة إلى نفوسهم من أجلها، واقتفوا أثر النبيين والصالحين والعلماء والدعاة، وسألوا الله الثبات وعملوا بأسبابه حتى جاءهم الموت.

وكأن الآية تنادي على الناس أن أقبلوا على الإيمان، واظفروا بأطيب حياة وأجملها بجوار الرحيم الرحمن، الكريم المنان، الذي يحفظ من تولاه واستنصره وأقبل عليه.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ عملوا بما أمر سبحانه فوعدهم بجنته في الدار الآخرة، وهو ليهم في الآخرة ومُكرمهم، وقد أكرمهم قبل ذلك في الدنيا بأن نصرهم وحفظهم وأعانهم، فهو يعلم أن طريقهم إلى الجنة فيه من المكروهات ما فيه، وفيه من المعوقات والتحديات ما فيه، وفيه من إيلام أعداء الله وتسلطهم في أزمان وأماكن مختلفة ما فيه، ولولا نصره وحفظه لعباده المؤمنين لاضطربت أحوالهم وكان دينهم في خطر عظيم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

تنتقل الآيات بنا إلى أرض المحشر لوصف مشهد من مشاهد الحسرات وتبادل الاتهامات بين العصاة من الإنس والعصاة من الجن، يوم يحشر الله الجِنَّ إلى أرض المحشر للحساب كما يحشر الإنس، يحشر الأسياد والأتباع والأعوان من الصنفين.

يخاطب الله تعالى في ذلك اليوم شياطين الجن ويقول لهم: لقد أكثرتم من إضلال الإنس وصَرْفهم عن الصراط المستقيم، وأسرفتم في غوايتهم وتلبيس دينهم عليهم، وجَعْلهم أتباعًا لكم بعد الوسوسة والتخييل والتخويف والمس، فيقول الإنس الذين عبدوا الجن، وتولوهم من دون الله، وأطاعوهم فيما أمروا من الذبح لغير الله، ودعاء غير الله، والتحريش بين الناس وإيقاع الضرر والأذى، يقولون مجيبين ربهم: يا ربنا، لقد أمَرَتْنا الجنُّ فأطعناهم، وعظمناهم وتقربنا لهم بأنواعٍ من القُرب، ونحن كانت لنا رغبات عندهم فسارعوا في إيقاعها فيما يقدرون، وهذا استمتاع كلٍّ منا بالآخر، هم ينتفخون بتلبية ما يطلبون، ويستلذون بإغواء الإنس، ونحن ننتفع بتحصيل المال بسببهم، والكذب على الناس، والانتقام ممن أردنا. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي: استمتعنا ببعضنا حتى جاءت لحظة الموت، والتي ينتهي معها كل استمتاع وعمل، وينتهي معها عمرنا الذي كتبته عندك في اللوح المحفوظ، وجاءت لحظة الحساب، فانقطعت حجتنا ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك.

وكأن كلماتهم هذه يملؤها الندم والحسرة والتضرع، وكأنهم يريدون من خالقهم الذي كفروا به في الدنيا أن يتجاوز عنهم، وذلك بعد توبيخهم والإنكار عليهم فيما فعلوا وقدَّموا، ولكن ندمهم هذا جاء في يوم أُغلقت فيه أبواب القبول، وسُدَّت فيه طرائق الغفران، وانقضت فيه أزمنة الطغيان والاستكبار والكذب، وكانوا من الخاسرين.

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال الله تعالى مُبينًا جزاءهم ودار مُكْثهم وإقامتهم: أنتم خالدون في النار بكفركم، ولن يقبل الله فيكم شفاعة شافع، ولن يقبل منكم نداء ولا استغاثة، فقد جاءتكم النداءات الكثيرة في الدنيا، وبَلَّغتكم رسلي والدعاةُ إليَّ ما يُصلح حالكم، ولكنكم أبيتم واجتهدتم في شرككم وفِسْقكم. قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤٢].

أما الذين فعلوا شيئًا من التعامل مع الجن مما لا يصل إلى ردجة الكفر والشرك فهؤلاء لن يخلدوا في النار وإن دخلوها ومكثوا فيها ما قَدَّره الله، وهم المقصودون هنا بقول الله ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

ومن أهل العلم من قال: إن المقصود بالاستثناء هنا هم أولئك الذين تابوا إلى الله تعالى من الاستمتاع الباطل المحرم القائم على الشرك، ممن بلغتهم التذكرة فرجعوا إلى الله قبل موتهم.

ومنهم من قال: بل الاستثناء يشير إلى المدة التي تسبق دخولهم إلى جهنم، وهي التي تكون من موتهم إلى حشرهم وحسابهم وسيرهم إلى مصيرهم ودارهم ومثواهم.

وانتبهوا يا من تتعاملون مع السحرة والمشعوذين، فهؤلاء يكفر كثير منهم بالله من أجل استحضار أعوانهم من شياطين الجن، ومن أجل استعانتهم بهم في تخريبهم للبيوت، وإفسادهم للعقول والتأثير عليها، وممارسة ألوان السحر وأنواعه، ولذلك جاءت الأحاديث بأنواع من الجزاء فيمن ذهب إليهم وصدَّقهم فيما يفعلون، وفيمن استعان بهم في جلب منفعة أو دفع ضر عنه بزعمه، بل فيمن ذهب إليهم لمجرد التسلية.

وقد تقدم معنا ما أخرجه مسلم عَنْ صَفِيَّةَ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً".

وأخرج أحمد وابن ماجه والترمذي وغيرهم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَتَىٰ حَائِضًا، أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ».

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ سبحانه حكيم في قدره وشرعه، عليم بخلقه وما يستحق كل واحد منهم.

سبحانه، حكيم فيما قدره من استمتاع هؤلاء ببعضهم، عليم بسكناتهم وحركاتهم وإفسادهم، وسيحاسبهم عليه أشد حساب.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

أهل الكفر من الإنس والجن ممن تعاونوا في الدنيا على أعمال الخراب بعضهم أولياء بعض، واليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، وكل كافر وليٌّ لغيره من الكفار، والظلمة والفساق والفجار ملة واحدة، وسبب كونهم ملةً واحدةً هو أن كلمتهم اجتمعت على الكفر بالله العظيم، وعلى التكذيب بمحمد ﷺ، وإنكار أن يكون القرآن كلام الله ووحيه ودستوره الذي ارتضاه للعالمين، وكذلك تعاونهم في الصد عن دين الله والحرب على أوليائه وورثة دينه. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

جاءت الآية في سياق الحديث عن أرض المحشر والنار، وكيف يجتمع فيها كل من ظلم نفسه بالكفر والعداء للدين وحملته، وأنهم يكونون في تلك اللحظات ملة واحدة لا فرق بينهم، سواء عبدو الأصنام، أو النار، أو جعلوا لله صاحبة وولدًا، أو أنكروا وجود الله، أو غير ذلك من الملل والنِّحَل، أقول: كلهم حصب جهنم ووقودها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ۖ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

والولاية هي النصرة والمحبة والاتباع، وهي منقطعة بين الظالمين والكافرين في الدار الآخرة، فلا ينفع أحد منهم غيره، وإن كانت في الدنيا نافعة لهم في أحوال.

ولا تظنوا أن الولاية تكون فقط بين الظالمين من الإنس، بل تكون كذلك بين الظالمين من الجن فيما بينهم، وبين الإنس والجن كذلك بدلالة السياق الذي جاءت فيه الآية.

وانظروا وأعملوا عقولكم في ختام الآية الذي أنذرهم وحذَّرهم من كسبهم وعملهم، والذي يريد منهم أن يتداركوا أمرهم قبل فوات الأوان، والذي يُحذر كل من يحمل في قلبه عقيدة باطلة، ولا يَدين لله بالتوحيد الخالص والعمل الصالح، يُحَذره ويُخْبره بأن ولاية الظالمين لبعض إنما كانت بأعمالهم القبيحة وجحودهم الأقبح.

ومن أهل العلم من قال في تفسير الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما استمتع الجن والإنس ببعضهم وكانوا سببًا في هلاك بعضهم وخسرانهم، فكذلك يفعل الله بجميع الظالمين، يسلط بعضهم على بعض، ويهلك بعضهم ببعض، وينتقم من بعضهم ببعض، جزاءً على ما كسبوه من ظلمهم وكسبهم وبغيهم، وكما قيل: إِنْ لَمْ يُقْلِعِ الظَّالِمُ عَنْ ظُلْمِهِ سُلِّطَ عَلَيْهِ ظَالِمٌ آخَرُ.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾

ومن جُملة ما يُقال لهم في أرض المحشر تقريعًا وتوبيخًا، أن الله تعالى يسألهم وهو أعلم بهم، ويخاطبهم ويقول لهم: يا من كفرتم من الإنس والجن، ويا من استمتعتم ببعضكم وأفسدتم على الناس معيشتهم، ألم يرسل الله لكم رسلًا يبلغونكم رسالته، ويقيمون عليكم حجته بتلاوة آيات القرآن ورؤية المعجزات، وينذرونكم ويخوفونكم الدار الآخرة، ويأخذون بأيديكم إلى ما فيه فلاحكم ؟!

وقد استدل بهذه الآية بعض أهل العلم على أن الله تعالى أرسل رسلًا من الجن كما أرسل رسلًا من الإنس، ولكن جماهير أهل العلم قديمًا وحديثًا على أن الرسل كانت من الإنس فقط، وليس هناك رسل من الجن فيما نعلم، وإن كان منهم دعاة وصالحون، وأورد أهل العلم أدلة متعددة على أن الرسل كانوا فقط من الإنس، وأن الجن تَبَع لهم في ذلك، وناقشوا الآية التي معنا وبينوا أنها محتملة وليست نصًّا في المسألة.

ومن الأدلة التي أثبتوا بها أن الرسل من البشر قول الله تعالىٰ عن سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العَنكَبُوت: ٢٧]، فكانت النبوة محصورة في ذريته.

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفُرقَان: ٢٠]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ [يُوسُف: ١٠٩]، وكذلك جاءت سورة الجن التي تدل علىٰ أن بعثة محمد ﷺ كانت لهم كما هي لنا، وغير ذلك.

﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ يقولون في أرض المحشر: نشهد يا ربنا أن الرسل جاءتنا وبلَّغتنا وأنذرتنا، ونشهد أننا كنا نعلم أن يوم القيامة آت لا محالة، وأن لقاءك فيه قريب وحاصل، ولا نستطيع أن ننكر ذلك أو نفرَّ منه.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ هذا هو سبب مخالفتهم للحق الذي أيقنوه وعلموه في قرارة أنفسهم، وهو أن الدنيا غرتهم بمُتَعها ولذائذها وبَهْرجها وزخرفها، حتىٰ ظنوها دار مقرٍّ لهم ونسوا يوم الحساب، وحتىٰ أمضوا أزمانهم فيها باللهو المحرم والتفاخر والكِبْر والعناد.

غرتهم الحياة الدنيا فأقبلوا علىٰ الشهوات المحرمة فيها، ووقعوا في الشرك والزنا وشرب الخمر، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وقتلوا وسرقوا وكذبوا، فكانت عاقبة أمرهم خُسْرًا.

وكان في شهادتهم علىٰ أنفسهم أعظم دليل علىٰ أن الله تعالىٰ لا يعذب أحدًا حتىٰ يقيم عليه الحجة ويرسل إليه رسولًا. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وفي ختام تفسير الآية أُذكر أن مثل هذه الآيات تحمل دعوة لمن بلغتهم، ولمن يستمعون إليها ولا زالوا من أهل الدنيا، تحمل دعوة لهم ليسلموا ويؤمنوا، وليُعتقوا رقابهم من النار، ومن الأهوال الصعبة التي تسبق دخولها.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾

هذا من تمام الإعذار إلىٰ الناس وإقامة الحجة عليهم، وهو كذلك مظهر من مظاهر العدل الإلهي الذي لا يتخلف عن أمر أو نهي أو عقيدة أو خلق، ومظهر من مظاهر رحمته بالعالمين، وهو كذلك تهديد لأهل الكفر الرافضين لدعوة محمد ﷺ، وإيقاظ لهم من غفلتهم ليؤمنوا ما داموا في هذه الدار.

الله تعالىٰ لا يعذب أهل الكفر والشرك ولا يميتهم ولا يُهلك قراهم ويزيلها عن الوجود أو تخرب إلا بعد بلاغ الدعوة، وبعد وصول العلم بهذا الدين إليهم، وهو ما كان عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب، واصطفاء الدعاة والمُصلحين والمجاهدين وحملة العلم.

إن الظلم إذا كان في قرية، أي: في بلدٍ ما، وانتشرت فيه المظالم من الشرك والتكذيب، ومن أكل الحقوق والاعتداء عليها، وإذا شاعت في أهله الفاحشة والربا والتطفيف في الميزان، وغير ذلك من المظالم، فإن الله تعالىٰ لا يسارع بعقوبتهم، ولا يعاجل بها علىٰ غفلة منهم، حتىٰ يبعث إليهم من ينبههم ويذكرهم، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم، ويرغبهم في الجنة والرحمة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحْل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فَاطِر: ٢٤].

يا أهل الكفر: لو أن الله تعالىٰ أهلككم قبل وصول الدعوة إليكم لنسبتم الظلم إليه ولزعمتم أنكم ستؤمنون به لو جاءكم رسول، كما وصف الله حالكم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [سورة طه: ١٣٤]، فقد جاءكم رسول من عند الله ومعه كتاب فيه ذِكركم وشرفكم وعزكم، فهلَّا آمنتم ؟!

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

إذا أهلك الله قرية بمن فيها من الكافرين والمؤمنين إن وُجدوا، فإن الله سيبعثهم يوم القيامة ويحاسبهم ويوفيهم أجورهم بحسب أعمالهم، فاطمئنوا يا أهل الإيمان في مكة لهذا الوعيد الذي يحيق بأهل الكفر، فإنكم لستم مثلهم.

جعل الله تعالىٰ لأهل الإيمان والطاعة من الجن والإنس درجات في الجنة، يتفاضل فيها أهلها بحسب عملهم وصدقهم وصبرهم، كما جعل للذين انغمسوا في الشرك والذنوب من الإنس والجن دركاتٍ في النار، ولا يظلم ربك أحدًا. قال الله تعالىٰ عن أهل الجنة وأصحابها: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال سبحانه عن أهل النار وأصحابها: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النَّحْل: ٨٨]، وقال جَلَّ وعلا عن المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النِّسَاء: ١٤٥].

ولقائل أن يقول: وهل يُهلك الله القرىٰ وفيها الصالحون؟ والجواب نعم إذا كثر الخبث فيها، وإذا توقف الصالحون عن الإصلاح فيها، فإن الله تعالىٰ يعمهم بالهلاك ويَبعثهم علىٰ نياتهم وأعمالهم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وأخرج البخاري ومسلم أنَّ أمَّ المؤمنين زَيْنَبَ بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، سألت رسولنا ﷺ: "أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخبث".

وقد ينجي الله تعالىٰ المُصحلين، ويُنزلُ بأسه الشديد بالمكذبين والضالين، كما نجىٰ نوحًا وموسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وأهلك أعداءهما. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ صحيح أنهم يُمهلون في الدنيا، ويُعطون فيها الصحة والرزق والقوة والجمال، وغير ذلك من نعم الله، ولكنَّ الله تعالىٰ لا يغفل عنهم وعن ظلمهم، وهو سبحانه يحصي أعمالهم عليهم ويثبتُها عنده ليحاسبهم عليها ويجزيهم في يوم يكون العدل فيه هو العنوان.

لا تستبطؤوا نصر الله لكم أيها المؤمنون، ولا يُقْعدنَّكم عن العمل للدين عُلوُّ أهل الكفر في الأرض، فإن الله تعالىٰ محيط بهم وبأعمالهم، وسيأتيهم من حيث لا يحتسبون، ولكن اعملوا وأعدوا.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾

يخاطب الله تعالىٰ نبيه ليعلم عن الله، وليعلم المؤمنون من بعده ما عَلِم، يقول له: اعلم أن ربك الذي خلق الإنس والجن ورزقهم ودبَّر أمرهم، غنيٌّ عن جميع مخلوقاته، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، المحتاجون إليه، لأنه بيده حياتهم ومماتهم، وأرزاقهم وأقواتهم، ونفعهم وضرهم.

ثم إن الله تعالىٰ مع غِناه رحيم بهم، رؤوف بحالهم، يستر عليهم، ويكرمهم اليوم بعد اليوم، ويقبل التائبين منهم، ولا يُنزل عذابه وبأسه بهم، ولا يعجل العقوبة لهم، حتىٰ إنه يرزق أهل الكفر منهم ويمد في أعمارهم لعلهم يرشدون. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣]، وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ [الكهف: ٥٨].

يا أهل عبادة الأصنام في مكة، ويا من عبد غير الله في كل الدنيا: اعلموا أن الله تعالىٰ غني عنكم وعن توحيدكم وصلاتكم وصيامكم، وهو سبحانه لا يحتاج إليكم بشيء أو حال؛ فالملك ملكه، والسلطان سلطانه، والعِزُّ عِزُّه.

وربكم جل وعلا لا تنفعه طاعة الطائعين، كما لا تضره معصية العاصين، والنفع والضر إنما يعود علىٰ من أطاع وعصىٰ، فانتبهوا وتأملوا. قال الله تعالىٰ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزمر: ٧].

أخرج مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ هذه واحدة من الآيات التي أنذر الله تعالىٰ فيها عباده، وخَوَّفهم إذا خالفوا أمره، وفعلوا ما نهاهم عنه من الكفر وكبائر الذنوب، ولم يُسْلموا لله العظيم ولم يتوبوا.

يقول الله تعالىٰ لأهل مكة ولمن حولهم، ويقول للناس جميعًا مسلمِهم وكافرِهم: إن الله تعالىٰ قادر علىٰ أن يستأصلَ شأفتكم ويُنهيَ وجودكم وذكركم في العالمين، وذلك إذا بقيتم تصدون عن الدين وتحاربونه وتمنعون تبليغه، ثم يأتي بعد ذلك بأمة أخرىٰ، ويأتي بقوم آخرين خيرٍ منكم، يعملون بطاعته، ويقيمون دينه وشرعه. قال الله تعالىٰ: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٣]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ

ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧]، وقال جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [مُحَمَّدَ: ٣٨].

والمطلوب منكم: إذا كنتم تعلمون أنكم راحلون عن هذه الدنيا كما رحل من سبقكم، فمتىٰ ستعملون بصدقٍ للدار التي تنتظركم بعد موتكم، والتي ذهب إليها من سبقكم ؟!

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ هو قادر علىٰ الذهاب بكم واستبدالكم كما أذهب القرون الأولىٰ، وجاء بكم من بعدهم.

صحيح أن هذه الآيات جاءت في سياق الحديث عن أهل الكفر والشرك والصد عن سبيل الله، ولكن أهل الإيمان والتقوىٰ يأخذون منها حظهم من الفهم والعلم، ويعيشون مع الآية كأنها تخاطبهم، وتقول لهم: إذا غفلتم أيها المؤمنون عن نصرة دينكم، وعن نشره في العالمين، وعن جَعل كلمة الله تعالىٰ هي العليا في الأرض، وإذا ركنتم إلىٰ الدنيا والمعاصي والفسوق والفجور، وإذا واليتم أهل الكفر وأصبحتم تحبونهم من دون المؤمنين، فاعلموا أن الله تعالىٰ سيذهب بكم ويأتي بقوم يحبونه بصدق، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم لإعلاء كلمة التوحيد في الأرض، ويكونون أذلة علىٰ المؤمنين أعزة علىٰ الكافرين. قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

وكأني بأهل مكة بعد هذا السياق القرآني يعيشون مع أنفسهم لحظة صدق، فإنهم يعلمون أخبار الأمم من قبلهم تمام العلم، ويستحضرون عظمة خالقهم ومالكهم تمام الاستحضار، ثم هم يسمعون وعيده العجيب ولا تلين قلوبهم، فهلَّا لانت ؟

وكأني بكل من تصله آيات القرآن ممن ابتعد كثيرًا عن طريق الهدىٰ والاستقامة، يستمعُ لهذه الآيات فتغيرُ فيه شيئًا كان يحتاجه، وتأخذ بيديه وقلبه وجوارحه إلىٰ الهداية والفلاح والنجاح وسعادة الدَّارَيْن.

أخبرهم يا محمد ﷺ أن يوم القيامة آت وأنه قريب، وأن وعد الله تعالىٰ ووعيدَه سيكونان، وأن النار مثوىٰ الظالمين لأنفسهم، وأنهم وإن نجوا من الاستئصال في الدنيا، فموعدهم حاصل لا محالة مع يوم ثقيل ممتد لخمسين ألف سنة للحساب فقط، ثم لأبد الآبدين في النار إذا ماتوا علىٰ الكفر، أو في الجنة إذا آمنوا وماتوا علىٰ الإسلام.

وأخبرهم يا محمد ﷺ أنهم لن يُعْجزوا الله تعالىٰ عن إحيائهم بعد موتهم، ولن يفلتوا منه ويخرجوا عن قدرته، ولن يُعجزوه عن بعثهم من جديد للحساب، ثم للعقاب أو الثواب، وإن صاروا ترابًا وعظامًا، فإن الله تعالىٰ قادر علىٰ كل شيء.

وأخبروا أيها المؤمنون كل من تَكبَّر في الأرض وتجبَّر من أهل الكفر وأعوانهم وأذنابهم، ومن الظالمين وأعوانهم وأذنابهم، أنه سيأتي يوم يعلمون فيه أن الله تعالىٰ حقٌّ، وأن الجنة حقٌّ، وأن النار حقٌّ، وأنهم كانوا في الدنيا من أهل الغفلة الذين جهلوا.

أخرج البخاري عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه كان يقول في خطبته: "إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور مُحدَثاتُها، و﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

تأملوا كيف ارتفعت لغة التهديد والوعيد لهؤلاء الذين عاشوا المعجزات ورأوها بأمِّ أعينهم، فما ازدادوا إلا عدوانًا وظلمًا، قل لهم يا رسول الله ﷺ: استمروا علىٰ اتباع أهوائكم، وعلىٰ ما أنتم عليه من الضلال المبين والتكذيب بالحق والإعراض، فأنا مستمرٌّ علىٰ إيماني ومنهجي ودعوتي إلىٰ الله، ولن أحيد عن هذا الطريق ما دُمت حيًّا.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هُودٍ: ١٢١- ١٢٢].

إن هذا التمايز بين أهل التوحيد وأهل الكفر مطلوب ومقصود لذاته، وقد طفحت نصوص الشريعة بإعلان البراءة ممن يشركون بالله ولا يرضون بشريعته حَكَمًا ومنهاجًا، ولولا هذا التمايز لفتن الناس في دينهم، ولاختلطت عليهم الأمور فما عادوا يميزون بين الحق والباطل، ولضاع ميراث النبوة واستبدلوه بمنهج أهل الضلال.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ ظن أهل مكة أن نور الإسلام سيبقى ضعيفًا بينهم وبين القبائل من حولهم، وأن هذا العدد اليسير من حملته ستَضعُف هِمَّتهم ويتركون الطريق، وأن التمكين في الدنيا بعيد عنهم بُعد المشرقين.

يخبرهم الله تعالى أن العاقبة ستكون للمؤمنين وإن بدا لهم غير ذلك، وأن نهاية الأمر ستكون للإسلام وأهله، وستعلو كلمة الدين. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الْمُجَادَلَةِ: ٢١].

ومعلوم لديكم أن الله تعالى أنجز لنبيه ﷺ وللصحب الكرام رضوان الله عليهم ما وَعَدَهم به، ومكَّن لهم في المدينة ثم في مكة، ثم خرجت جيوش الإسلام حتى بلغت الشام، ثم أتمَّ رجال الإسلام المسيرة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى أسقطوا أعظم دولتين في ذلك الزمان، ودخل الناس في الدين أفواجًا أفواجًا.

ولا تظنوا أن عاقبة الدار ستكون في الدنيا فقط، بل هي ممتدة إلى أرض المحشر وإلى جميع المواقف حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ولعلها المقصود الأول في الآية هنا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غَافِرٍ: ٥١- ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

ومعلوم لديكم أن العاقبة الحسنة في الآخرة ستكون للمتقين، وأن المؤمنين لهم عقبى الدار، وأن كل مُعرض عما جاءت به الرسل، عاقبته سوء وشر.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، وظلموا أقوامهم بإضلالهم، وظلموا البلاد والعباد بحرمانهم من نور الإسلام وشريعة الرحيم الرحمن، لن يفلحوا أبدًا وإن علا صوتهم وارتفعت رايتهم في فترة ما. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ١٣- ١٤].

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

تنتقل الآيات بنا إلى ضرب من ضروب الشرك والكفر والخرافات الوثنية التي ابتدعها أهل الجاهلية، وجعلوها بين الناس، فقد جعلوا لله تعالى جزءًا من صدقاتهم ونذورهم ولم يجعلوها خالصة بالكامل لوجهه الكريم، مع أن الله تعالى هو خالق كل شيء وهو الذي له الخلق والأمر.

أهل الجاهلية جعلوا لله مما ذرأ نصيبًا، أي: جعلوا له مما خلق نصيبًا وجزءًا من طاعتهم وعبوديتهم يتقربون بها إليه، وأما الجزء الثاني فكان لشركائهم، وهي الأصنام التي جعلوها نِدًّا لله جل جلاله، وكانوا كذلك يتقربون إليها بما يقدمون، وقد فعلوا ذلك بزعمهم، أي: بعقيدتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وجهلهم المُتْعب، وليس من هدى الله ووحيه.

وهذا النصيب في العبادة كان في حرثهم، أي: زرعهم، وكان كذلك في الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ﴾ كانت طريقتهم في ذلك تقوم على أنهم كانوا إذا أثمرت زروعهم، وأنتجت أنعامهم، وأرادوا أن يتصدقوا منها أو يوفوا بنذرهم، كانوا يقسمونها بين الله وبين الأصنام، فما كان من قُربة للأصنام ذبحوها وتصدقوا بها ولم يذكروا عليها إلا اسم الصنم ولا يذكرون اسم الله، بخلاف ما لو كانت لله فإنهم يذكرون عليها اسم الصنم مع اسم الله سبحانه وتعالى.

صنيعهم هذا كان له أشكال متعددة يفعلونها:

منها: إذا جمعوا الزرع الذي يريدون أن يتصدقوا به، وجعلوه قسمين، قسمٍ لله وقسمٍ للأصنام، ثم هبَّت ريح فحملت شيئًا من نصيب الله إلى نصيب الأصنام فلا يردونه، ويقولون: الله غني عنه، بخلاف العكس، أي: إذا حملت شيئًا من نصيب الأصنام إلى نصيب الله يردونه ولا يبقونه.

ومنها: إذا هلك ما لأصنامهم من زرع أو أنعام بسبب قحط ونحوه، يأخذون بدلًا منه من نصيب الله، ويقولون: تحتاج آلهتنا إلى نفقة، ولا يفعلون العكس، ويقولون: لو شاء الله لزكا الذي له ونما.

ومنها: أنهم كانوا إذا سقط شيء من الثمار التي جعلوها لله فإنهم يأخذونها ويجعلونها مع الثمار الخالصة لأصنامهم، ولا يفعلون العكس.

ومنها: أنهم كانوا إذا ذبحوا شيئًا للأصنام لا يتصدقون به على الفقراء والمساكين، بل يجعلونه للإنفاق على الأصنام ورعاية مصالحها، بخلاف ما ذبحوه لله فإنهم قد يأخذون منه لرعاية أصنامهم ولا يحرصون على توزيعه كاملًا لمن استحقه.

تأتي الآية هنا وتوبخهم على هذا الجهل وهذا الابتداع في الدين الذي ما أنزل الله به من سلطان، والذي لا يعدو أن يكون من بنيات أفكارهم، ومن توجيهات أسيادهم لمصالحهم.

وذلك كما يفعل عدد من رؤوس البدع في زماننا يوم يشرعون للناس عبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ويعبثون بعقيدة المسلمين بليِّ أعناق النصوص واتباع المتشابه منها، وتراهم يُشْغلون بها عوام المسلمين عن سنة رسول الله ﷺ، وهدي صحابته الكرام والأئمة الأعلام، ولسان حالهم: إن طريقتنا التي هي من بُنيات أفكارنا واجتهاداتنا الخاصة خير لكم من السنة والاتباع.

وهذا يذكرنا بما فعله النصارى في دينهم، يوم شرعوا للناس عقائد وعبادات لا أدلة عليها من إنجيلهم، غير أنها توجيهات رؤوس الكنيسة من الرهبان الذين نسبوا لهم العصمة عن الخطأ والزلل.

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ ساء فعلهم وصنيعهم، وبئس حكمهم الذي قسم للأصنام كما قسم لله بل زاد على ذلك، فمن الذي خلق كل شيء ومَلَكه وقَهَره ؟ ومن الذي يقضي في هذا الكون وكل شيء تحت تصرفه ومشيئته ؟ قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

[النمل: ٦٠-٦٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

ومن عجائب أحوال أهل الجاهلية أن الشياطين زينت لهم قتل أولادهم أحبَّ شيء إليهم، وذلك كما زينوا لهم قسمة محاصيلهم ونتاج أنعامهم بين الله وبين الأصنام.

وهذه الآية فيها فوائد، أذكرها في الآتي:

١- أن التزيين حصل لكثير من المشركين وليس لجميعهم، فقتل الأولاد لم يكن في جميعهم، وقد كان سبب القتل هو الخشية من الفقر، كما أشار إلى ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

وقد يكون سبب ذلك النذر لحصول نعمة، كما فعل عبد المطلب الذي نذر إن رزقه الله عشرة أولاد ذكور، ثم بلغوا معه أن يمنعوه من عدوه، لينحرن أحدهم عند الكعبة.

هذا فضلًا عن قتل البنات على وجه الخصوص خشية العار. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨- ٩].

٢- الذين زينوا لهم هم شركاؤهم كما ذكرت الآية، وهؤلاء الشركاء هم شياطين الجن الذين لعبوا بدينهم وشريعتهم وعقولهم كما أرادوا، وهذا جزاء من أعرض عن الهدى ودين الفطرة والعقل والعلم.

ولعل هذا يذكرنا بحال المعرضين عن الصلاة وعن ذكر الله، الذي اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، فهؤلاء زين لهم الشيطان أعمالهم فجعلهم يربون أولادهم على أمور الدنيا ولا يصرفونهم إلى أمور الآخرة، ولا يأمرونهم بصلاة أو صيام أو جهاد أو لباس شرعي يرضي الكريم، فكانوا كمن وأد ولده وبنته مع أنهم أحياء، وأي مصيبة أعظم من المصيبة في الدين ؟! وأي قتل أعظم من قتلِ الإيمان في القلب ووأدِه ؟!

٣- ولقائل أن يقول: وكيف كانوا يُحَسِّنون لهم قتل أولادهم وبناتهم مع أن حُبَّهم مستقر في الفطرة والعقل؟ والجواب أنهم كانوا يعتقدون أن البنات تجلب لهم العار، ولا تعينهم في غزو ولا تنتفع منهن القبيلة بشيء، وأنهن سبب لأن يَجْبُنَ آباؤهن عن لقاء العدو، وأن العدو إذا انتصر فإنه قد يَسْبيهن ويتخذهن إماء عنده، وأنهن إذا تزوجن ذهبن إلى الأزواج ونسين الآباء، وغير ذلك من التزيين القبيح، والفكر الباطل المردود جملة وتفصيلًا.

٤- أخرج البخاري تعليقًا عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَتْ: "رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا، مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ، يَقُولُ: يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ، وَاللهِ مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي، وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: لَا تَقْتُلْهَا، أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ، قَالَ لِأَبِيهَا: إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ، وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا".

وزيد هذا هو الذي قال فيه ﷺ: "يبعث أمة وحده"، وهو والد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد ذكر أهل السِّيَر عن زيد أنه كان ممن فرّ إلى الله من عبادة الأصنام، وساح في أرض الشام يتطلب الدين القيم، وأنه توفي وقريش تبني الكعبة قبل نزول الوحي على رسول الله ﷺ بخمس سنين.

٥- قَصَد الشياطين من هذا الإغواء العظيم في الفكر وفي السلوك أن يُرْدوهم، أي: يُسْقطوهم في الشَّرِّ ويُهلكوهم وينغِّصوا عليهم عيشتهم، بل ويفسدوا فطرتهم التي استقرَّ فيها حب الولد وحب البنت والحرص على رعايتهما.

وكذلك قصدوا أن يُلبسوا عليهم دينهم، فخلطوا عليهم الحق بالباطل ليسهل عليهم انقيادهم لهم، ودينهم الذي ألبسوه عليهم إنما هو دين سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقد كانت فيهم بعض مظاهر العبادة منه، وكان فيهم تعظيم للكعبة ولعدد من المشاعر، ولكنهم خلطوا ذلك بوضع الأصنام وتعظيمها، ثم خلطوه ببعض الأحكام التي ما أنزل الله بها من سلطان.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ لعلكم استحضرتم فظاعة صنيعهم وشركهم، وفظاعة تصرفهم في أنعامهم وزروعهم وأولادهم، ولعلكم تأملتم سفاهة أحلامهم، وخفة عقولهم، وكأني بالنبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم يتألمون لهذا الجهل وهذا الشقاء العجيب، فكانت تتمة الآية كالبَلْسم لهم، وهي كالبلسم لنا كذلك لئلا يشق علينا كثيرًا صدود الصادين عن دين الله، وكأن الآية تقول لهم ولنا: لله تعالى الحكمة البالغة فيما يجري في هذه الخليقة وإن بدا ظاهره مُتعبًا وصعبًا، ومشيئة الله تعالى لا تخرج عنها الحركات ولا السكنات لجميع العباد والمخلوقات، ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلي بينهم وبين أفعالهم، وأن يَخْذلهم عن الرشاد؛ استدراجًا منه لهم وإمهالًا.

والمطلوب: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، أي: فاتركهم واترك ما يَكْذبون به على الله من عقيدة وتشريع، ودعهم واجتنبهم، وامضِ في نشر التوحيد وبيان مكارم الأخلاق، وسارع في تحكيم شريعة الإسلام في العالمين، والله تعالى يقضي بينك وبينهم في الدنيا وفي الآخرة.

وسيأتي معنا مزيد بيان في خسرانهم وضلالهم في تفسير قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَآءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يستطرد السياق القرآني في ذِكر أحوال أهل الجاهلية القائمة على خلط الحق بالباطل، واختراع أنواع من العبادات والأحكام وجعلِها دينًا للناس.

ومن هذه المخترعات أحكام تتعلق بالأنعام والحرث، وهو الزرع كما تقدم، فقالوا: هذه حَجْر على صنف معين من الناس نختاره نحن ويُمنع أن يتصرف فيها غيرهم، ولا تُذبح إلا إذا أذنوا وأمروا، أو هي حَجْر على آلهتنا لنفعها وخدمتها وكفاية من يقوم عليها من السَّدَنة والخدم، أو حَجْر على الرجال فقط يأكلون منها.

بطريقة أخرى: يحرم الأكل منها إلا لصنف معلوم، فهي محجورة عليه ومحرمة على غيره، وهذا الصنف المعلوم يختارونه هم، وهذا من لعب الشياطين بهم، ومن التغليظ عليهم في الانتفاع مما أباحه الله وأحلَّه، بل هو من دينهم الباطل، وزعمِهم الكاذبِ المردودِ عليهم. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يُونُس: ٥٩]، وسيأتي مزيد بيان في تفسير الآية، فتأملوا.

﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ ومن عجيب حالهم أن قوانينهم كانت تمنع ركوب بعض أنواع الأنعام، وتمنع نقل المتاع عليها، وتمنع الحج عليها، مع أنهم ينتفعون من لبنها وأصوافها وأوبارها ولحمها.

وتحريم الظهور هذا من معالم التحريف التي صالوا فيها وجالوا، وشرعوا لأنفسهم ولأقوامهم شرائع وأحكامًا لم يأذن الله بها، وافتروا على الله الكذب، ولم يُعملوا عقولهم فيما يفعلون، بل قلدوا واتبعوا آباءهم في ذلك بلا حجة ولا برهان، فأنكر الله عليهم ما ابتدعوه، وبيَّن سبحانه أنه ما شرع ذلك ولا أَذِنَ به، ولكن غاية ما شرعوه يعود بالضرر عليهم في عقيدتهم.

جاء بيان هذه الأنعام التي جعلوا لها أحكامًا خاصة في قول الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْمَائِدَة: ١٠٣]، وإليكم مزيدٌ من البيان، أقول فيه:

حرَّم أهل الجاهلية أنواعًا من الأنعام على أصحابها، ومنعوهم من الانتفاع بها، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، فالبحيرة هي الناقة إذا أنتجت خمسة أبْطُن نظروا إلى الخامس، فإن كان البطن الخامس ذكرًا ذبحوه للآلهة وأكله الرجال دون النساء، وإن كان أنثى فإنهم يُبْحرون أذنها، أي يقطعونها ويشقونها شقًّا واسعًا، ثم يقولون: هذه بحيرة، فلَا تُرْكَبُ ولا يحجون عليها، وَلَا تُنْحَرُ، وَلَا تُمْنَعُ عَنْ مَاءٍ وَلَا عَنْ مَرْعًى، وَيَكُونُ لَبَنُهَا وقفًا لأَصْنَامِهِمْ ينتفع به القائمون عليها، وكذا عابرو السبيل.

وأما السائبة فقد كان الرجل منهم إذا قُضيت حاجته، أو عُوفي من مرض، أو كثر ماله، أو بنى بناءً، أو قدم من سفره؛ سيّب شيئًا من الأنعام للأوثان والآلهة، أي: أخرجها من ملكه وجعلها وقفًا على الآلهة، وكان يُسَلِّمها إلى سدنة البيت وحراسه والمسؤولين عنه.

وكان من أحكامها أنها ترعى حيث شاءت، ولا يُحمل عليها شئ، ولا يُجز وبرها، ولا يُحْلَبُ لَبَنُها إلا لضيف، وكان صوفها وأولادها للرجال دون النساء.

والوصيلة تكون من الغنم إذا ولدت سبعة أبطن؛ فإن كان الولد السابع جِديًا ذبحوه لآلهتهم، وكان لحمه للرجال دون النساء، وإن كانت عناقًا (أي: أنثى)، كانوا يستعملونها بمنزلة سائر الغنم، وإن كان جديًا وعناقًا في بطن واحد، قالوا: إن الأخت قد وُصلت بأخيها، فيحرمان جميعًا ولا يذبحون الذكر للآلهة، وكانت المنفعة للرجال دون النساء، وإن ماتا تشارك الرجال والنساء.

وأما الحامي فهو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن، فيقولون: حمَىَ ظهره فلا يُحمل عليه ولا يمنع من ماءٍ ولا مرعى. ومن أهل العلم من قال: هو الفحل من الإبل إذا كبر ولده وصار يركب. قالوا: قد حمى ظهره فيُهمل ولا يُحمل عليه ولا يُركب، ولا يمنع من المياه، ولا عن المراعي، فإذا مات أكله الرجال والنساء.

وفي تفسير بعض هذه الألفاظ خلاف عند العلماء، لكنها لا تخرج عن فكرتها.

﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ لا يعتنون بذكر اسم الله عليها عند ذبحها ولا عند ولادتها، ولا عند حلبها ولا عند ركوبها والحمل عليها، لأن عقيدتهم تقوم على تعظيم الأصنام ورعاية حقوقها أكثر من تعظيمهم لله وأداء حق العبودية له.

وتأملوا في وصف فعلهم بأنه افتراء على الله، وما ذاك إلا لأنهم زعموا أن الله تعالى أمرهم بأن يقتصروا على ذكر اسم الجن أو الصنم الذي يتقربون إليه عند ذبح الأنعام، وألا يذكروا معه اسم الله.

أقول: إن حقيقة ما زعموه وألبسوه ثوب الدين أنه ظلم وافتراء على الشرع، وهو جهل لا نَقْل فيه ولا عقل، وقد كان أول من أدخل هذه الخرافات إلى جزيرة العرب رجل يقال له عَمْرُو بنُ لُحَيٍّ الخزاعي، وهو الذي رآه ﷺ لما صلى الخسوف بالناس حين كُشفت له النار والجنة، وقال فيه كما أخرج البخاري ومسلم: "وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ" الحديث.

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ وعيد من الله تعالى لهم لعلهم يرجعون، وبيان لخطورة الابتداع في الدين وتشريع عبادات للناس لم يأذن الله تعالى بها.

وفي عدم بيان العقوبة والجزاء هنا والاكتفاء بهذا التهديد، مزيد تخويف لهم لتذهب عقولهم ونفوسهم فيما يمكن أن ينتظرهم عند من أشركوا به وكفروا.

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

تقدم معنا في وصف الأنعام التي حرَّموا ظهورها أن بعضها كان خالصًا للرجال محرمًا على النساء، ثم جاءت الآية هنا لتشير إلى أنهم كانوا يحرمون بعض أنواع الأجنة التي هي في بطون الأنعام على كل أنثى، ويأذنون للذكر أن يأكل منه وينتفع من لبنه لما يولد ويأتي ويعيش، يجعلونه سائغًا مباحًا لا حرج فيه عليه دون النساء.

ومن عجيب أحوالهم كذلك أن المولود من بعض أنواع الأنعام إذا كان ذكرًا ذبحوه، وأطعموه للرجال دون النساء، فإذا كان المولود أنثى تركوها فلم يذبحوها.

﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ أي: وإذا كانت الشاة المولودة ميتة فيشترك في أكلها الرجال والنساء، وهي مباحة لهما على السواء.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ وصفهم هو كذبهم الذي رأيناه فيما يشرعون فيما يخص الأجنة وغيرها، والذي يُثبت أن أهواءهم ومصالحهم هي التي تُسيِّرهم، ولذلك توعدهم الله بأنه سيجزيهم على هذا الصنيع، والمقام يدل على أن الجزاء جزاءُ سوء وعذاب. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النَّحل: ١١٦-١١٧].

﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ سبحانه، حكيم في شريعته فكيف يتخذون غيرها دينًا ؟! عليم بما يصلحهم ويسعدهم، فكيف يبتغون الفلاح بطاعة غيره ؟!

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

تكلمت الآيات السابقة عن قتلهم للأولاد، وذكرت ألوانًا من تخبطهم في التشريع والفهم وإدارة الحياة، ثم جاءت الآية هنا تذكر خسارة من فعل هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، فهؤلاء قَتلوا من بسببهم يُرزقون ويُحفظون ويُكرمون، وضيَّقوا على أنفسهم في أموالهم وما رزقهم الله، فكان التضييق الموجود عليهم في حياتهم بما كسبت أيديهم.

سبحان الله كيف طابت لهم أنفسهم بقتل مَنْ سعادتهم برؤيتهم وملاعبتهم وتربيتهم، ومن قوة القبيلة والعائلة بوجودهم وكثرتهم، ومن يحتاجونه لدفع الشر عنهم، بل من ينتفعون هم أنفسهم من صالح عملهم فيما لو كانوا صالحين، ولذلك وصف الله فعلهم بأنه سفه، والسفه هو خفة العقل واضطرابه ونقصه وحماقته، وأي سفه أعظم من أن تُقتل بنت هي جمال الدنيا وحلاوتها ؟! يقتل ولده وبنته ويُطعم كلبه ! ما أقل فهمهم، وما أضعف أحلامهم !

ثم إن الآية وصفت فعلتهم وطريقة تفكيرهم بأنها طريقة بعيدة عن العلم قريبة من الجهل، وأي جهل أكبر من التخلص من الربح المحقق الملموس من أجل خسارة محتملة مظنونة، سببها هواجس النفس ولعب الشيطان ؟! نعم قتلوا أولادهم الذين هم بين أيديهم من أجل

خوفهم من الفقر والعار المحتَملَين البعيدين، وظنوا أنهم بذلك ينظمون حياتهم أفضلَ تنظيم وأحسنَه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويا ليت خسارتهم توقفت عند ذلك، بل هي ممتدة إلى ما بعد الموت في الدار الآخرة، فهؤلاء افتروا على الله وتعدوا حدودهم معه، ونازعوه الألوهية والربوبية، ونسبوا لغيره الحق في التعظيم والتشريع، فكانت عاقبة أمرهم خسرًا، وكانوا في شرِّ المنازل عند الله، ولن ينجحوا يوم يصيرون إلى النار خالدين فيها. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يُونُس: ٦٩-٧٠].

هؤلاء قتلوا أولادهم للتخلص من أضرار متوقعة ومحتملة في الدنيا، وحرموا طيبات أحلها الله لهم ظانين أن عبادة الله تكون هكذا، فنالوا خسارة الدنيا والآخرة، وكان خسرانهم خسرانًا مبينًا ظاهرًا متحققًا.

﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ ما أقبح الضلال فإنه يقود إلى خسران الدين، وإلى ضلال صاحبه عن الصراط المستقيم، والذهاب به في أودية الكفر والجهل العظيم، والمصيبة أنه يحرص على إرضاء آلهته وهي لا تنفع ولا تضر، ويظن أن إرضاءها من إرضاء الخالق، والخالق لم يطلب منه ذلك، فيفقد بوصلة الحق والصواب، والنجاح والفلاح، والرضا والسعادة؛ حقًّا، قد ضلوا وما كانوا مهتدين. أخرج البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أنه قَالَ «إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾».

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

كيف تكفرون بالله وأنتم ترون آياته في الأنفس والآفاق ؟ وكيف تفزعون إلى غير الله وتتقربون إلى أصنام لا تملك لنفسها شيئًا ؟ إليكم تذكيرٌ بآيات الخالق العظيم مما ترونه من حولكم، فتأملوا وأعْمِلوا عقولكم، وتوبوا قبل فوات الأوان.

الله تعالىٰ هو الذي خلق مِنْ حولكم في هذه الدنيا جنات، أي: بساتين ومزارع وحدائق تحوي أشجارًا ونباتات، وهو الذي أمدها بالماء وبالتربة الصالحة وبجميع ما يلزمها لتنتفعوا بها.

وهذه الجنات معروشات، أي: منها ما تكون أشجاره مرتفعة تنمو إلىٰ الأعلىٰ، ويعتمد بعضها علىٰ البعض وتتعاون في النهوض عن الأرض، فيطيب خروج ثمرها وهي واقفة، كما هو الحال في شجر العنب وغيره.

وهذه الجنات قد تكون غير معروشات، أي: تنبت علىٰ الأرض وتنفرش فيها، أو تخرج وحدها واقفة ولا تتسلق علىٰ غيرها، وتكون زروعًا وثمارًا يطيب منظرها وتكون قريبة من الجميع.

﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ هذا هو النخل وهذه أنواع الزروع، يخرج كلٌّ منها بطعم مختلف وجديد، ولكل ثمرة منها لذة تخصُّها، بل إن النخل نفسَه يخرج منه عشرات الأنواع من التمر المختلف في شكله وطعمه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾ وهذا هو الزيتون الذي لا تخفىٰ منافعه عليكم، وهذا هو الرمان الذي يسرُّ الناظر شكله، فضلًا عن طعمه، وهذا الرمان وغيره يكون متشابهًا في أشياء ومختلفًا في أخرىٰ كما تقدم معنا في تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ أي: كلوا من ثمر النخل إذا أثمر وصار تمرًا أو رطبًا، وكلوا من ثمر الكَرْم إذا أصبح عنبًا وزبيبًا، وكلوا من سائر الثمرات والزروع التي لا حصر لها إذا أثمرت وأينعت.

والخطاب وإن كان في معرض بيان سفه المشركين في التَّحكُّم في الطيبات بالتحليل والتحريم بدافع الهوىٰ، إلا أن أهل الإيمان والتقوىٰ مقصودون بهذ الخطاب، ويحمل تذكيرًا لهم بمنن الله عليهم بعد هدايتهم، فليأكلوا وليتمتعوا بما أباحه الله لهم، ولا يلتفتوا إلىٰ خفة عقول الكافرين، فإن ما حرمه الله هو الحرم، وما حلله هو الحلال.

يحمل هذا الخطاب عقيدة لهم تتلخص في أن التحريم والإباحة لا يكونان إلا من الله تعالىٰ، وليس لأهواء البشر ولا لرغباتهم ومصالحهم أثر في ذلك.

﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ وكذلك أنتم أيها المؤمنون، اعلموا أن زكاة الزروع والثمار واجبة عليكم يوم الحصاد وقطع الثمر ونتاج الزرع، حين تعلمون مقدار ما أنتجت وأنبتت، واعلموا أن فيها حقًّا للفقراء والمساكين وغيرهم.

وقد أورد أهل العلم هنا مسألة علمية، واستفرغوا وسعهم في بيانها والإجابة عنها، وهي أنه من المعلوم أن الزكاة فُرضت في المدينة بمقدار نصابها، ومقدار الواجب منها، والأصناف التي تجب الزكاة فيها، وغير ذلك من الأحكام، ومن المعلوم كذلك أن سورة الأنعام سورة مكية، فكيف فسَّر أهل العلم الآية هنا بأنها في الزكاة وهي إنما فرضت في المدينة ؟

والإجابة عن ذلك كانت في أكثر من وجه:

١- فمن العلماء من قال: إن المقصود هنا هو الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام، وأن تفصيل أحكامها إنما كان في المدينة، فهي مفروضة في مكة وكان الأمر إليهم فيها، ثم جاء تتمة بيان أحكامها في المدينة، وإن كانت هذه الآية قد أعطت حكم وجوبها، وبينت أن الزروع والثمار لا يُشترط لها حولان الحول، فإنها تزكى عند الحصاد وكفى.

ومما يؤكد هذا القول مجيء الزكاة مقرونة مع الصلاة في عدد من الآيات المكية، وكذلك قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، وهي سورة مكية، وقد جعل الله جنتهم كالصريم بعد أن امتنعوا عن أداء حق الفقراء والمساكين منها، وأصبحت كالصريم، أي: سوداء محترقة كالليل الشديد السواد.

٢- ومنهم من قال: إن الآية هنا لا تفسر على الزكاة، وإنما هي محمولة على صدقة واجبة عليهم، يعود تقديرها إليهم يعطونها للفقراء والمساكين، وهي غير الزكاة، وقد كانت هذه الصدقة واجبة عليهم في مكة ثم نُسخ حكمها في المدينة، وصار الواجب عليهم إخراج الزكاة، وقدرها العشر أو نصف العشر من الزروع والثمار.

٣- ومنهم من قال: إن الأمر هنا محمول على الاستحباب والندب، وليس على الوجوب، وهو في الصدقة العامة وليس في الزكاة.

﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ توجيه رباني في ختام الآية ينهى فيه عن الإسراف، وهو نهي محمول على الإعطاء الكثير في الأمور الخسيسة، أو يكون فيه تجاوز للحد في الإنفاق حتى إن فاعله يقوم بتوزيع كل الحصاد ولا يترك لنفسه ولا لأهله شيئًا.

ومعلوم لديكم أن الإسراف هو تجاوز الحد في كل ما يفعله الإنسان، وهو في الإنفاق أشهر، وقد يفعله بعض الناس فلا يُبقي لحاجته شيئًا ويصبح فقيرًا، وهذا أمر غير محمود، فإن الواحد منا ينبغي له أن يعف نفسه وعياله وأهله عن مدِّ أيديهم للناس.

ويحضرني هنا سلوك عدد من الناس، لا يجيد إدارة المال الذي يأتيه، فتراه ينفقه في طلب مدح قرابته ومن حوله على حساب حاجيات أهل بيته ومن يعول، بل يتعدى الأمر إلى أن يكون على حساب غرمائه الذين يريدون ديونهم، وهذا من خفة العقل التي لا تليق بمن أدرك قيمة المال وأحسن التصرف فيه، وهو من الإنفاق الزائد عما ينبغي وينفع.

أقول: صحيح أن الإسلام حثَّ على الإنفاق، وجعله بابًا عظيمًا من أبواب الدين، ينال فاعله المثوبة والأجر من عند الله، ولكنه أمر بالاقتصاد في ذلك، فجعل الزكاة ربع العشر في غالب الأموال، وأوجب النفقة على الأصول والفروع بشروط معلومة في الفقه، فضلًا عن الزوجة، وفضلًا عن بعض القرابة عند بعض أهل العلم، ثم فتح أبواب الصدقات الاختيارية والوقف والوصية وغيرها، وأرشد بعد ذلك إلى ضرورة أن يعتني صاحب المال بحفظ المال وتركه للأهل والعيال من بعده ولا يسرف فيه.

أخرج البخاري ومسلم عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: بِالشَّطْرِ؟ فَقَالَ: لَا. ثُمَّ قَالَ: الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ، أَوْ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ (يعني: فقراء يطلبون الصدقة من مال الناس)، وَإِنَّكَ لن تنفق نفقة تبتغي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ (أي: فم) امْرَأَتِكَ".

بل جاء قول الله موجهًا في ذلك ومعلمًا: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وجاء قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

ومن أهل العلم من حمل النهي عن الإسراف هنا على الأكل، لأنه مذكور في الآية، ولأن الإسراف في الأكل يعود على العقل بالمضرة، ويجعله ثقيلًا عن الفهم والقيام بالأصلح والأنفع، بل يجعل صاحبه كسولًا خمولًا. قال الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وفي البخاري تعليقًا، وجاء موصولًا عند أحمد والنسائي في الكبرى، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبيِّ ﷺ، قال: "كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ (أي: تكبر وخيلاء)".

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢﴾

أي: ومن نعم الله التي ترونها حولكم، والتي تدلكم على الواحد الأحد، الفرد الصمد، تلكم الأنعام من الإبل والبقر وغيرها من الحمير والبغال مما تحملون عليها متاعكم وأثاثكم، وتنقلكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس.

ليست أصنامكم التي تتقربون إليها هي التي خلقت وأنعمت، فلا تجعلوا لها حظًّا من هذه الأنعام تتقربون إليها به. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٩ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٨٠ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١].

وهذه الأنعام منها كذلك فرشًا، أي: صغيرة ليست كحجم الإبل الكبيرة فلا تستطيعون ركوبها ولا حمل أمتعتكم عليها، فإما أن يكون المقصود هنا صغار الإبل، وإما أن يكون المقصود هو الغنم، وهذه ينتفعون بلحمها وصوفها ويتخذون منها الفرُش والصوف، ومنافعها لا تخفى على أحد، فلله الحمد أولًا وآخرًا. قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [النَّحل: ٨٠].

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ كلوا أيها الناس من الثمار والزروع والأنعام مما أحله الله لكم، ولا تتبعوا خطوات الشيطان كما اتبعها أهل الكفر وضيقوا على أنفسهم ولم ينتفعوا بما أباحه الله لهم، فخابوا وخسروا. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

واعلموا وتذكروا على الدوام أن الشيطان نصب العداوة من بدء قصة خلق الإنسان، وجعل همته في أن يصرف آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وذريته عن توحيد الله، وأن يوقع بينهم العدواة والبغضاء، وأن يصرفهم عن طريق الجنات ويقربهم من سخط الله ومن النار، فانصبوا العداوة له كما نصبها لكم، واستعينوا عليه بالله العظيم فإنه يَخْنس مع الطاعة ومع ذكر الله، ويفر من صاحب العلم والبصيرة ومن أحسن في توكله على الله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فَاطِر: ٦]، وقال سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكَهْف: ٥٠].

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾

ابتدع أهل الكفر والشرك أحكامًا تخص الأنعام التي يحرم أكلها ويباح، فقال الله تعالىٰ لهم: إليكم أصناف الأنعام الثمانية، أربعة منها ذكور، وأربعة منها إناث، لتخبرونا ما الذي حرم الله عليكم أكله أو ركوبه أو إطعامه لنسائكم، أو غير ذلك مما شرَّعتم.

يا أهل الكفر والشرك: لقد خلق الله تعالىٰ من الأنعام أربعة أصناف، وجعل من كل صنف ذكرًا وأنثىٰ، فكانت ثمانية أزواج، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَاجٖۚ﴾ [الزمر: ٦]، فلماذا تحكمتم فحَرَّمتم أصنافًا وأحللتم أخرىٰ ؟!

وهذه الثمانية سيأتي ذكرها في الآية هنا وفي التي بعدها، وهي:

﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي: خلق الله من الضأن اثنين، ذكرًا وأنثىٰ، والضأن هو الغنم الذي يكون له صوف أبيض، وله ذيل كبير الحجم يسمونه اللِّية أو الإلية.

﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ وخلق الله من المعز اثنين: ذكرًا وأنثىٰ، والمعز هو الغنم الذي يكون له شعر، وقد يكون أبيض أو أسود أو بُنيًّا أو رماديًّا، وله ذيل قصير إلىٰ الأعلىٰ.

﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ قل لهم يا محمد ﷺ: إن الله تعالىٰ خلق هذه الأغنام كلَّها لينتفع منها ابن آدم، أكلًا وحلبًا، وغير ذلك من وجوه المنافع، وإن الله تعالىٰ لم يحرم منه شيئًا إلا ما أنزله في كتابه مما سيأتي بيانه.

واسألهم سؤال تقريع وتجهيل وإنكار وإقامة للحجة البالغة عليهم: هل المحرم الذكرين من الضأن ومن المعز ؟ أم المحرم هو الأنثىٰ منهما ؟ فإن كان التحريم واقعًا علىٰ الذكر فلازمه تحريم الذكور كلها، وإذا كان واقعًا علىٰ الأنثىٰ فلازمه تحريم الإناث كلها، والجواب الذي لا يسعهم غيره: لم يحرم شيئًا من ذلك.

﴿أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ أم المحرم هو ما حوته أرحام الأنثيين من الضأن ومن المعز ؟! ومعلوم لديكم أنهم زعموا في تحريم الوصيلة والحامي وغيرهما أن ما في بطون الأنعام وما في أرحامها له أحكامه الخاصة كما مرَّ معنا، فأنكر الله عليهم هذا العبث، وأمر نبيه ﷺ أن يسألهم عن هذا التحريم سؤال تبكيت وإفحام.

﴿ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أين هو العلم واليقين الذي ينبغي للعقلاء أن لا يبنوا أحكامهم واعتقاداتهم إلا عليه ؟ أخبرونا كيف حرم الله ذلك ؟ ومن أين أتيتم بما أتيتم بها أيها الجاهلون ؟! وكما قال أهل العلم: هذا من التهكم عليهم لأن العلم لا يُطلب منهم، وهم لا يصلحون لذلك.

﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾

وخلق الله من الإبل اثنين ذكرًا وأنثى، وكذا من البقر، فهل حرَّم الله منها الذكور أم الإناث؟! أم حرَّم ما حوته أرحام الإناث من الإبل والبقر ؟! وهل تحوي الأرحام إلا الإناث أو الذكور؟! فلماذا حرمتم بعضًا وتركتم تحريم أخرى ؟!

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ أم كنتم تحضرون نزول الوحي على أنبيائه، وتشهدون أن الله تعالى هو الذي علمكم هذه الأحكام، وهو الذي طلب منكم أن تمنعوا ركوب ظهور أصناف من الأنعام، وتمتنعوا عن أكل لحم أصناف أخرى ! هاتوا علمًا يُؤْثر عن أحد من رسل الله وأنبيائه في تحريم ذلك.

وأهل الكفر لا يدَّعون ذلك ولا يقولونه، فظهر أن كلامهم إنما هو محض افتراء على الله وكذب على دينه، ولذلك قال سبحانه:

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ لا تكذبوا على الله فإنه أعظمُ الظلم وأفحشُه، ولا تجعلوا جهلكم وبُعدكم عن العلم سببًا في ضلال من يستمعون إليكم ويقلدونكم ويتبعونكم، واحذروا من رياستكم في الباطل وفي إضلال الناس، فإنه الكفر البواح الذي ليس بعده كفر.

ما أصعبها يوم يكذب العبد على خالقه قاصدًا إضلال الناس، وإبعادهم عن معالم الهدى والفلاح، يكذب على الله بما يقوله من غير بينة منه ولا برهان، ولا عقل ولا نقل.

ولا أظن مسلمًا يقرأ هذه الآية ويعيش مع موعظتها وهدْيها، إلا ويستحضر أقوامًا من أبناء ديننا يكذبون على الله وعلى رسوله ﷺ، ويطلقون ألسنتهم وأقلامهم في هدم ثوابت الدين باسم الدين، ويلوون ألسنتهم بمتشابه الكتاب ليفتنوا الناس في دينهم وعقيدتهم.

ولا أظن مسلمًا يعيش ظلال الآية وأبعادها وإن كانت في معرض الحديث عن المشركين، إلا ويجاهد نفسه على أن يكون من الصادقين المسارعين في طاعة الله في أمر الله ونهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ما أشد عقوبة الذين كذبوا على الله ليضلوا الناس بجهلهم وبلادتهم ! وما أعظمه من حرمان يوم يُحرم المرء هدايةَ الله إلى الصراط المستقيم وإرشادَه إليه وإعانَتَه فيه، ويوم يُترك في غيِّه وضلاله يَعْمَه.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾

يقول الله تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يبين لقومه ما حرَّم الله عليهم، حتى يعلموا أنهم مفترون على الله، وأنهم ضيَّقوا على أنفسهم واسعًا، وأنهم لن يفلحوا بدون نور الوحي وهَدْيه، ولن يفلحوا إلا باعتقاد أن الحِلَّ والحرمة لا يكونان إلا من عند العليم الحكيم الخبير.

قل يا محمد ﷺ لهم: لا أجد فيما أوحاه الله لي من المحرمات في الطعام إلا المذكورة هنا، فتأملوها واعلموها وأطيعوا الله فيها، وتوبوا إلى الله مما أنتم عليه، وهذه المحرمات هي:

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾ الميتة كل حيوان مات من غير ذكاة، أي: من غير ذبح شرعي ولا اصطياد، كأن وقعت شاةٌ مثلًا فماتت، أو ماتت مخنوقة، أو بسبب مناطحة أخرى، أو رُميت بمثقل كحجر ونحوه، أو غير ذلك. وقد أخرج البخاري ومسلم عن رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: "مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ" الحديث.

حرَّمَ الإسلام أكْل الميتة لما فيها من مضرة ناشئة من الدم المحتقن الباقي فيها، والذي يعدُّ بيئة خصبة لنمو الجراثيم فيه، ولأن الميتة إنما تموت غالبًا لمرض أو عِلة، ولما فيها من احتباس الدم والرطوبة التي لا تزول منها إلا بالذكاة الشرعية، ولأن الحيوان الذي مات ربما يكون قد مرَّ عليه وقت أفسد لحمه وجعله شديد الضرر.

ولفظة الميتة في الآية تعم كل ميتة وإن كانت من الأنعام التي أبيح أكلها والانتفاع بها في الآيات قبلها.

ولم يُستثن من تحريم الميتة إلا ميتة البحر من السمك ونحوه، وكذلك أُبيح أكل الجراد الميت، كما دل على ذلك ما أخرجه أصحاب السنن عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَرْكَبُ البَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا القَلِيلَ مِنَ المَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ مِنَ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ".

وأخرج أحمدُ وابنُ ماجه أثرًا عنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذا الأثر له حكم المرفوع إلى الرسول ﷺ، جاء فيه قول ابن عمر: "أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ، وَدَمَانِ. فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ".

ولعلكم لو تأملتم شريعة أهل الجاهلية فيما يحرمون من الأنعام لوجدتم أن الميتة مأكولة اللحم في حياتهم، وليس عندهم أي تحفُّظ عليها.

وقد ظن الصحابة أن جميع أجزاء الميتة محرمة ولا يجوز الانتفاع منها بشيء، وهذا من حرصهم على طاعة الرب ومسارعتهم فيها، فأخبرهم ﷺ أنه يمكن الانتفاع من جلدها بعد دبغه وتنظيفه، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: ماتت شاة لسَوْدَةَ بنت زمْعة، فقالتَ: يا رسول الله، ماتت فلانة، يعني الشاة، فقال: "فلولا أخذتم مَسْكَها؟"، فقالت: نأخذ مَسْكَ شاة قد ماتت؟، فقال لها رسول الله ﷺ: "إنما قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾، فإنكم لا تَطْعَمونه، إن تدبغوه فتنتفعوا به"، فأرسلتْ إليها فسلخت مسكها فدبغته، فاتخَّذتْ منه قِرْبة، حتى تخرَّقتْ عندها.

وهل يُباح الانتفاع بجلود جميع الحيوانات الميتة أم يجوز فقط فيما يباح أكله ؟ الحنفية والشافعية على أن جميع الجلود تطهر إلا جلد الخنزير عندهما، وإلا جلد الكلب عند الشافعية، وعند المالكية والحنابلة في المعتمد: لا يطهر جلد جميع الحيوانات الميتة بالدباغ والتنظيف.

﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ جماهير الفقهاء قديمًا وحديثًا على أن الدَّمَ نجسٌ، وإن كان دم إنسان، فلا يجوز أكله ولا شربه، ويجب تطهيره إذا جاء على بدن أو ثوب أو محل.

والدم النجس المحرم هو الدمُ المسفوح، وهو الذي يخرج متدفقًا متتابعًا مِهْراقًا يسيل من عروق الحيوان عند ذبْحه، وضرر هذا الدم نص عليه غير واحد من أهل التخصص.

وقد ذكرنا قريبًا الحديث الذي يدل على استثناء الكبد والطحال من حرمة الدم، واستثنى أهل الفقه كذلك اليسير من الدم فإنه معفو عنه رفعًا للحرج والمشقة، وكذا ما بقي في عروق الذبيحة المذكاة وعظامها لأنه ليس مسفوحًا.

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ التنفير من الخنزير معهود ومعلوم في الشرع، فقد أخرج مسلم عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ، فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ". والنردشير: لعبة النرد التي تلهي عن الخير، وترتبط غالبًا بالقمار، وتُحدث الشحناء بين قلوب لاعبيها.

وتأملوا كيف صَوَّر قبحَ ذلك للتنفير منه بمن وضع يديه بلحم الخنزير ودمه وتلوث بالنجاسة.

وقد أجمع أهل العلم على حرمة أكل لحم الخنزير.

وذهب فقهاء الْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ إلى نَجَاسَةِ عَيْنِ الْخِنْزِيرِ، وَكَذَلِكَ نَجَاسَةِ جَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَمَا يَنْفَصِل عَنْهُ كَعَرَقِهِ وَلُعَابِهِ.

أما المالكية فقد ذهبوا إلى طهارته وطهارة عَرَقِهِ وَلُعَابِهِ حال حياته وإن حَرُم أكْله، فليس كلُّ محرَّمٍ نجسًا، وذهبوا كذلك إلى طهارة شعر الخنزير وإن كان بعد موته.

ومن الفقهاء من ذهب إلى أن نجاسة الخنزير تُغسل كما تُغسل النجاساتُ الأخرى، ومنهم من ذهب إلى أنها تغسل ثلاثًا، ومنهم من اشترط أن تغسل سبعًا كما يُغسل من نجاسة الكلب.

﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ الرجس هو الخبيث القذر النجس، وللعلماء كلام في رجوع هذه اللفظة على لحم الخنزير فقط أو على جميع المذكورات في الآية، فإن كان راجعًا على الخنزير فقط فهذا فيه زيادة تحذير منه وبيان لخبثه، وإن كان راجعًا على الجميع، وهو كلام أكثر أهل العلم والتحقيق، فهذا يدل على ضررها على البدن وتحذير الشرع الشديد منها.

والرجس إن كان معنويًّا فإنه يشير إلى أن اجتنابها من تمام العبودية، ولا يليق بالمؤمن أكلها والاقتراب منها، وإن كان الرجس حقيقيًّا فإنه يشير إلى نجاستها وضرورة التطهر منها إذا وقعت على ثوب أو بدن أو أرض.

﴿ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ ﴾ ومما حرمه الله في المطعوم، أن يكون مذبوحًا ذبحه ذابحٌ من المشركين من عبدة الأوثان لصنمه وآلهته، فهذا فيه خروج عن طاعة الله بالعصيان والصدود والعناد.

وسبب كونها فسقًا أنه (أُهلَّ) بها لغير الله، أي: ذُبحت تقربًا لغير الله، وعلى خلاف منهج الله وشريعته التي ارتضاها.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ذكرت الآية ما حرمه الله على عباده من أنواع الطعام حال الاختيار، ثم جاءت الآية في آخرها تُراعي مصلحةً تخصُّ حفظ النفس من وجه آخر، وتراعي أخف الضررين على من أصابته مَخْمصةٌ، أي: جوع. كما في قول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة: ٣].

الآية هنا تأذنُ لمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحظورات أن يأكل منها بقدر حاجته، كأنْ خشي هلاك نفسه، ولم يجد غير الميتة أو المنخنقة مثلًا لإنقاذ حياته، أو أكرهه غيره على الأكل منها.

هنا رحمةٌ من الله بعباده ولطفٌ بحالهم، أنْ غفر لهم ذلك، وتجاوزَ عنهم لحاجتهم واضطرارهم.

وانتبهوا إلى ما جاء في الآية من شروط لإباحة الأكل منها، وهي أن يكون غير باغ، أي: لا يأكلها لأنه يريد اللذة وإشباع رغباته بل لأنه مضطر، وغير عاد، أي: لا يتجاوز الحد ويأكل زيادة عن حاجته.

ولقد ذهب كثير من الفقهاء إلى وجوب الأكل من المحرمات للقادر على إنقاذ حياته بذلك إذا لم يجد غيرها، فإن لم يفعل فهو في حكم القاتل لنفسه. أخرج أحمد وابنُ حبان وغيرُهما، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ". وفي لفظٍ عند ابن حبان عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يحب أن تُؤتى عزائمه".

وقد تقدم تفصيل عدد من المحرمات وفقهها، كما تقدم تفصيل أحوال الضرورة وفقهها عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩].

ولكن هنا مسألة تكلم حولها أهل العلم، وهي: هل هذه المذكورات على سبيل الحصر أم هناك محرمات غيرها ؟ والجواب أن هناك محرمات غيرها، ولكن هذه الآية مكية ولم يكن قد حُرم حينها إلا ما ذُكر هنا، ثم جاءت الآية الثالثة من سورة المائدة، وجاءت أحاديث المصطفى ﷺ في المدينة ليكتمل فيها التشريع، ويتم بها العلم، وتقوم بها الحجة.

ومن أهل العلم من قال: إن هذه الآية مشتملة على سائر المطعومات المحرمة، وأن ما جاء بعدها من المحرمات داخل تحتها بعموم العلة أو بالمعنى.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

واذكر لقومك يا رسول الله ما حرمه الله على الذين هادوا، وهم اليهود، وذلك ليعلم قومك أن ما ابتدعوه لم يكن حتى في شريعة من قبلهم من أهل الكتاب.

وقد حرَّم الله على اليهود خصوصًا أنواعًا من الأطعمة، وكان مما حرمه عليهم كل ذي ظفر في أصابعه، أي: كل ذي مخلب من الطير والبهائم، ويشمل ذلك الجمل والنعامة والأرنب، بخلاف ما كان مشقوق الأصابع ومباعد ما بينها كالدجاج والعصافير فقد كانت مباحة لهم.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ أي: أباح الله لهم أكل لحم البقر والغنم، وحرم عليهم الشحوم، وهو المادة الدُّهنية البيضاء التي تكون على كرش الحيوان وكليتيه وأمعائه.

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ إذا علِق بالظهر شيء من الشحم فهذا معفوٌّ عنه وليس محرمًا.

﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ ما حملته الحوايا من الشحوم مما استُثني من التحريم، والحوايا هي ما يحويه البطن، وهي الأكياس الشحمية التي تحوي الأمعاء وتكون فيها الأمعاء، وتسميها العرب بالمباعر.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ﴾ ومما استُثني كذلك من التحريم ما اختلط من الشحوم بعظم البقر والغنم، وهذا الشحم يكون مُلتفًّا على عظم الحيوان من السِّمَن فهو معفو عنه لعسر تجريده عن عظمه.

ومن أهل العلم من قال: إن الإلية تدخل في هذا الاستثناء وهي التي تكون في أسفل ظهر الغنم، ويدخل في ذلك شحم القوائم والجنب والرأس والعين والأذن.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ نتنبه هنا إلى مسألة عظيمة تخصنا جدًّا كمؤمنين مقبلين على الرب العظيم، وهي أن البغيَ والاعتداءَ على الحقوق والإسرافَ على النفس بالذنوب سببٌ من أسباب حرمان فضل الله وكرمه وعطائه، وأن الطاعة سبب لاستجلاب نعم الله الواسعة الممتدة التي لا تنقطع.

تأملوا كيف أن تحريم كل ذي ظفر وغيره على اليهود إنما كان بسبب بغيهم، أي: بسبب مخالفتِهم أمر الله وتجاوزِهم لحدود الله، وقد جاء بيان هذا البغي في قول الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

والمقصود أنهم ارتكبوا ذنوبًا عظيمة عاقبهم ربهم عليها بأن حرَّم عليهم طيبات كانت لهم حلالًا، لقد ظلموا أنفسهم بطرائق الشرك والكفر التي اتبعوها، ولقد صدوا عن الصراط المستقيم وحالوا بين الناس وبين إقبالهم على دين الله تعالى، ولقد قتلوا الأنبياء وعاندوهم، وكتموا عددًا من أوامر شريعتهم وحرَّفوها، وجعلوا يَبُثُّون الشبهات حول الدين، ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وسيُغفر لنا.

لقد أكلوا أموال الناس بالباطل، فتعاملوا بالربا وبالرشوة والخيانة والغش والخداع والكذب، مع كثرة من يفعلون ذلك منهم وقلة المنكرين فيهم، وهذا يدل على أن انتشار الربا وأكل أموال الآخرين بالباطل يحول بيننا وبين كثير من نعم الله تعالى، وأن الذنوب لها شؤم على البلاد والعباد. أخرج الطبراني والحاكم بسند حسن عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ".

وصدودهم وبغيهم لا تُحصى طرائقه وأسبابه، ولا يتوقف في زمان، ولعلكم تستحضرون ما بذلوه مع الناس لصدهم عن اتباع خير البشر ﷺ، ولعلكم تقفون مع ما يبثون في عالمنا المعاصر من الشهوات والشبهات التي فتنت كثيرًا من الناس في دينهم، وصرفتهم عن جادَّة الطريق، ولعلكم ترون ما يفعلونه بدماء المسلمين ومقدساتهم وأعراضهم، قاتلهم الله وقاتل كل من أعانهم.

وتحريم الشحوم وكل ذي ظفر لم يبق في الأمم من بعدهم، ولكنه نُسخ إلىٰ الإباحة في عدد من أنواع الحيوانات كما بينا، وقد جاء ما يدل علىٰ ذلك حكاية عن سيدنا عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وكما جاء في وصف نبينا ﷺ في التوراة والإنجيل: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

أقول: إن تحريم الشحوم عليهم بسبب ذنوبهم، يدل علىٰ أن هذه الشحوم لها فوائدها وأهميتها ولذتها التي تخصها، وهو ما يؤيده الطب الحديث وكلام المختصين إذا استعملت باعتدال دون إسراف.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: وإنا لعادلون فيما جازيناهم به غير ظالمين لهم، وكذلك إنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد ﷺ من بيان المحرمات عليهم، بخلاف ما زعموه من تحريم نبي الله يعقوب ذلك علىٰ نفسه، ومن أصدق من الله حديثًا، ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون.

زعم اليهود أن الله تعالىٰ لم يحرم عليهم ما بينته الآية، وقالوا: إنما حرمناها علىٰ أنفسنا اقتداء بنبي الله يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فأخبر الله تعالىٰ بكذبهم وافترائهم، وأخبر أن قوله هو الحق والصدق. وقد جاء بيان ذلك في قول الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وإتمامًا للفائدة، إليكم مسألتان نافعتان فيما يخص الحديث عن السياق القرآني هنا.

١- لا تظنوا أن اليهود سارعوا في أمر الله واستجابوا له لمَّا حرَّم عليهم الشحوم، ولكنهم عمدوا إلىٰ هذه الشحوم فأذابوها وباعوها، تحايلًا منهم علىٰ شريعتهم وما كلفهم الله به. أخرج البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «بَلَغَ عُمَرَ أَنَّ سَمُرَةَ بَاعَ خَمْرًا، فَقَالَ: قَاتَلَ اللهُ سَمُرَةَ، أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا (أي: حُرم عليهم أكلها فأذابوها) فَبَاعُوهَا».

وقد ذهب غير واحد من أهل العلم في بيانه لفعل سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من بيع الخمر، إلىٰ أنه لم يبعها بعينها، وإنما خلَّلها ثم باعها لرأي فقهي عنده في ذلك، فأنكر عليه عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأخرج أحمد وأبو داود عن ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: رأيت رسولَ الله ﷺ جالسًا عند الركن، قال: فرفع بصره إلى السماء فَضَحِكَ، فقال: "لَعَنَ الله اليهودَ -ثلاثًا-، إن الله حرَّم عليهم الشحومَ فباعُوها وأكلوا أثمانها، وإن الله إذا حرَّم على قومٍ أكلَ شيءٍ حَرَّم عليهم ثمنَه".

قال الإمام النووي: النهي محمول على ما المقصود منه الأكل، بخلاف ما المقصود منه غير ذلك كالعبد والبغل وَالْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ فإن أكلها حرام وبيعها جائز بالإجماع.

٢- اعلموا أن شحوم الحيوانات المأكولة اللحم مباح الانتفاع بها في شريعتنا بالأكل وكافة أنواع الاستعمال، بل كان ﷺ يوصي بها لمن كان معه مرض عِرْقِ النَّسَا، كما دل على ذلك ما أخرجه أحمد وابن ماجه واللفظ له، عن أنسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «شِفَاءُ عِرْقِ النَّسَا، أَلْيَةُ شَاةٍ أَعْرَابِيَّةٍ تُذَابُ، ثُمَّ تُجَزَّأُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، ثُمَّ يُشْرَبُ عَلَى الرِّيقِ، فِي كُلِّ يَوْمٍ جُزْءٌ».

ولكن حصل خلاف في شحوم الميتة، هل يباح الانتفاع منها أم يلحق حكمها بحكم الميتة، أسوق إليكم في ذلك حديثًا عن النبي ﷺ ثم أذكر كلام أهل العلم في المسألة مختصرًا.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ، وَهُوَ بِمَكَّةَ: إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: لَا، هُوَ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ».

وتحريم الانتفاع من شحوم الميتة هو مذهب المالكية والحنابلة الذين فهموا من الحديث أنه يدل على حرمة الانتفاع من شحوم الميتة، بخلاف قول الحنفية والشافعية الذين حملوا الحديث على حرمة بيع شحوم الميتة لا حرمة الانتفاع منها، وهذا ما ذهب إليه كثير من المحققين من أهل العلم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

عظيم أمر الترغيب والترهيب في هذه الآية، فإنه لا يتعلق بصغيرة من صغائر الذنوب بل ولا كبيرها حتىٰ، وإنما يتعلق بالكفر بالله العظيم وبمنهجه وبشريعته.

ينادي الله تعالىٰ على هؤلاء الذين كذبوا، ويدعوهم إلىٰ واسع رحمته وفضله، ويأمر نبينا ﷺ أن يُذكرهم بأن الله تعالىٰ يقبل توبتهم وإن كذبوا وابتدعوا وجاؤوا بما يخالف توحيد الله تعالىٰ كما أخبرتنا الآيات السابقة، وما عليهم إلا أن يرجعوا إلىٰ رُشْدهم وعقلهم فيؤمنوا ويُصدِّقوا ويَصْدقوا.

ومن معالم رحمة الله بهم وسعتها أنه لم يعجل لهم العقوبة، مع أنهم أذاقوا أولياءه ونبيه ﷺ ما أذاقوا، ولكنه أمهلهم وأخرهم لعلهم يُؤمنون.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وانتبهوا يا أهل الكفر، فإن بقاءَكم علىٰ ما أنتم عليه من التكذيب طريقُكم إلىٰ نزول بأس الله وعقوبتِه وشدةِ انتقامه، وعقوبته لا يستطيع أحدٌ أن يردها عنكم إذا أرادها جل وعلا، فلا تركنوا إلىٰ واسع رحمته وفضله، ولا تنسوا أن الله شديد العقاب.

وهذا الجمع بين الترغيب والترهيب منهج قرآني ممتد في كتاب الله، ولا يستقيم إيمان مؤمن بدونه، فالمسرف علىٰ نفسه بالذنوب والمعاصي يحتاج إلىٰ تخويفه من شؤمها وما ينتظر صاحبها لئلا يغتر بالله العظيم ويبقىٰ مصرًّا عليها، ويحتاج إلىٰ تذكيره بواسع فضل الله ليسارع في التوبة، ولئلا يقنط من رحمة الله ويأس، وكذا الطائع يخاف من أن تُردَّ طاعته في وجهه ولا تُقبل، ويرجو أن يتقبل الله منه مُحْسنًا الظن به. قال الله تعالىٰ في ختام السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرَّعْد: ٦]، وقال جل وعلا: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

وقبل ختام تفسير الآية لا أتجاوزها قبل أن أتأمل معكم وصف الإجرام الذي خُوطبوا به، وأيُّ إجرام هذا ؟! إنه إجرام في حق ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، وما أصعبها يوم يجرم الإنسان في حق الله فيُشركُ به، ويُجرم في حق نبيه ﷺ فيُكذبُ به، ويُجرم في حق نفسه فيقودُها إلىٰ التهلكة بإكثاره من الذنوب، واجتراحه السيئات، وعدم إقباله علىٰ التوبة الصادقة.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾

شبهة قديمة حديثة يختبئ خلفها أهل الشرك الذين أحاطت خطاياهم بهم، وتشربتها قلوبهم، ولا يريدون أن يتركوها وينفكوا عنها، يقولون: لولا أن الله تعالى كتب علينا وعلى آبائنا أن نكون من أهل الضلال لما ضللنا، ولولا أن الله تعالى أراد لنا أن نُحرم هذه الأنعام على أنفسنا لما حرمنا، فلما كان الله قادرًا على أن يهدينا ولم يهدنا، وقادرًا على أن يشرح صدورنا ولم يشرحها، فقد دل ذلك أنه كتب علينا ما لا نستطيع تغييره بحال، ودلَّ كذلك على أن الله راضٍ عما نفعل، بل هو الذي أمرنا به. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وتأملوا في قول الله (سيقول) فقد يكون هذا من باب الإخبار بالغيب، يعني: سيقولون ذلك لك يا محمد ﷺ فانتظر مقولتهم في المستقبل، فلما قالوها نزل قول الله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وقد يكون معناه أنهم سيعيدون مقالتهم هذه المرة بعد المرة كلما أَعْيتهم الحجة وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم بالعلم والعقل.

ومقولتهم هذه نفهمها ونناقشها في المحاور الآتية، فتأملوا:

١- أهل الكفر والشرك يقولون: لو أراد الله أن يلهمنا ويلهم آباءنا الإيمان لحصل، ولو أراد أن يحول بيننا وبين الكفر لحصل، فإنه على كل شيء قدير، يقصدون بذلك أن ينسبوا لله الظلم، ويقولون: كيف يكلفنا بالإيمان وهو لا يريده لنا ؟ ولماذا تتعبون أنفسكم معنا بالدعوة والإصلاح والهداية وقد حيل بيننا وبينها ؟! قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٢٠].

٢- قولهم عن مشيئة الله قول حقٍّ أريد به الباطل، وهو كلام صدق فإنه لا يكون في هذا الكون إلا ما أراده الله وقدره وكتبه عنده، وهو ما يسمى بالإرادة الكونية. قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ

مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا ﴾ [يُونُس: ٩٩]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ [هُودٍ: ١١٨- ١١٩].

ولكن الله تعالىٰ لم يشرع للناس الكفر ولا أحبه لهم، بل حرمه عليهم وبين لهم شؤمه وخسارة مَنْ كان مِنْ أهله، وهو ما يُسمىٰ بإرادة الله الشرعية، أي: لم يشرع ذلك ولا أباحه، ولذلك أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وجاءتهم المعجزات، وأعطاهم العقل ليُعْملوه ويهتدوا، ولكنهم أَبَوْا إلا كفورًا، واختاروا طريق الكفر والموبقات وماتوا علىٰ ذلك.

إن من مظاهر عظمة الرب الذي نعبد، وله نصلي ونسجد، أنه لا يكون في خلقه إلا ما أراد، وأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء. قال الله تعالىٰ: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الأنعام: ٣٩].

٣- نقول في عقيدتنا: اعلموا أن الله تعالىٰ كتب مقادير الخلق في اللوح المحفوظ من رزق وعمل وأجل، وشقاوة أو سعادة، قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، فما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. أخرج مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

واعلموا أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، لا يقبل إيمان عبد بدونه، ومن ثمراته: تحصيل لذة الإيمان، وحصول الطمأنينة، والصبرِ، والقوةِ.

واعلموا أن القدر خيره وشره، وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومره، ومحبوبه ومكروهه، وحسنه وسيئه، وأوله وآخره من الله تبارك وتعالىٰ، ولا يكون إلا بإرادته ومشيئته وتقديره وتدبيره، وهو حكيم في قدره وشرعه.

٤- ومن جميل اعتقادنا أن نقول: أحاط علم الله بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات، والله يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

ونقول: خلق الله الخَلْقَ وأفعالهم، وجعل سبحانه للعبد قدرة وإرادة ومشيئة، وقدرته لا تخرج عن علم الله وإرادته وقدرته ومشيئته.

ونقول في عقيدتنا: الله سبحانه وتعالىٰ أعطىٰ عباده العقل وكلَّفهم، وأرشدهم إلىٰ ما يحبه ويرضاه، وإلىٰ ما يَكرهه ويُسخطه، والله لا يرضىٰ لعباده الكفر، ولا يحب الشر والفساد، ولذلك نهىٰ عنها. قال الله تعالىٰ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ [الزمر: ٧].

٥- ونقول في عقيدتنا: الله سبحانه لم يجبر أحدًا علىٰ معصية، ولا اضطره إلىٰ ترك طاعة، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر، وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية كالأكل والشرب والصلاة، وبين الحركة الاضطرارية كالرعشة وغيرها، وإن كان الجميع داخلًا في مشيئة الله، ومندرجًا تحت إرادته.

ونقول: الله يهدي من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بحكمته، والله سبحانه لا يُسأل عما يفعل، وهو فعَّالٌ لما يشاء.

٦- رددت هذه الشبهة طائفة منسوبة للإسلام في زمن الدولة الأموية، معروفة في تاريخنا بالجبرية، وهي طائفة ترىٰ أن العبد مجبر علىٰ أفعاله وأنه لا إرادة له ولا مشيئة، وعلىٰ رأس هذه الطائفة الجهم بن صفوان الذي قتله أحد ولاة خراسان لأنه أفسد علىٰ الناس عقيدتهم، وكلامهم في أن العبد مجبور علىٰ كل شيء يخالفه الشرع والعقل والحس.

ويقابل هذه الطائفة طائفة أخرىٰ خرجت في آخر عصر الصحابة بعد عصر الخلفاء الراشدين، وهي طائفة القدرية التي أنكرت القدر، وزعمت أن الله تعالىٰ لا يعلم ما سيكون، وأنه يعلم بالشيء بعد حصوله، وقد أنكر عليهم الصحابة وتبرؤوا منهم ومن مقولتهم وأخبروهم بأن هذا هو عين الكفر بالله العظيم.

وهذه الشبهة يرددها الملحدون في زماننا، قاصدين بها الطعن في الدين وإنكار الألوهية والربوبية، وزاعمين أن هذا الدين فيه تناقضات هذه واحدة منها.

بل ترىٰ عددًا ممن أسرفوا علىٰ أنفسهم بالذنب يرددونها، يقولون: الله كتبه علينا، ولو أردنا ان نُعمل طريقتهم في التفكير لقلنا عندما نجوع: الله كتب علينا الجوع فلماذا نأكل، وكذلك حين نمرض، وكذلك حين نرسب، والصحيح أن قدر الله تعالىٰ نقابله بقدره سبحانه، فالجوع يحتاج إلىٰ طعام، والمرض إلىٰ الدواء، والرسوب إلىٰ الدراسة والنجاح، وهكذا أمر الذنوب والمعاصي، فإنها تحتاج إلىٰ توبة وأوبة ودوام رجعة إلىٰ الله، وكلُّ هذا من قدر الله.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ لم يكن قومك يا محمد ﷺ أولَ من أورد هذه الشبهة معتذرًا بها عن الإيمان، فقد سبقهم إليها أقوام أخرىٰ من قبلهم كانوا يرددون نفس الكلام طول حياتهم، ويصدون عن سبيل الله ويقتلون النبيين حتىٰ ذاقوا بأس الله، وهو عذابُه ونقمتُه.

وانظروا كيف وصف الله قولهم هذا بأنه تكذيب وافتراء، والمقصود أنه لو كانت دعواهم صحيحة، لم تحل بهم العقوبة.

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾ قل لهم يا رسول الله مجيبًا لهم، ومقيمًا للحجة عليهم: هل عندكم خبر يقين بأن الله تعالىٰ راضٍ عما تفعلوه، فتُظهروه لنا وتبينوه وتُبْرزوه لنستفيد منه ؟! وهل عندكم علم آخر غير ما علمكم الله إياه وأخبركم عنه ؟!

الله جل وعلا يعلم أنه ليس عندهم ولا عند غيرهم علم، وأنه لن يكون في الناس جميعًا علمٌ إلىٰ يوم القيامة، ولكنه مزيد إقامة حجة وإفحام، وهو من التهكم علىٰ أهل الشرك الذين يعلم الشرع ضلالهم وجهلهم، فكيف نطلب منهم علمًا !

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ لم يأت أهل الشرك بعلم يُخرجونه لنا، فكان حقيقة ما اعتذروا به في الآية الكريمة أنه عذر قبيح ومردود عليهم، وهو آتٍ من أوهام يعيشونها، ومن خيالات واعتقادات فاسدة يتبعونها، وهم يَخْرصون بقولهم، أي: يتوقعون ويخمنون، وهذا لا يصلح في العقائد فكان قولهم تكذيبًا.

﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾

وقل لهم كذلك: إن الله تعالىٰ له الحكمة التامة فيمن أضله من الناس وفيمن هداه، وكل ما يجري في هذا الكون إنما هو بقدرته ومشيئته واختياره، ولا حجة لأحد عليه ولكن الحجة التامة له علىٰ خلقه، سبحانه.

وانظروا يا أهل الشرك كم هي الآيات العظيمة المبثوثة في كل شيء حولنا، والتي تدل علىٰ الرب العظيم، وانظروا في آيات القرآن التي تعلمون إعجازها تمام العلم، وانظروا إلىٰ ما أمرت به الشريعة ونهت عنه، كلُّ ذلك تجدون فيه ضالتكم من العلم إن كنتم صادقين حريصين.

إن آيات الله هذه لا يهتدي إليها إلا المستعد للهداية، وهو المحب للحق الحريص على طلبه، الذي يستمع القول فيتبع أحسنه، دون من أعرض عن النظر استكبارًا وحسدًا، ودون من كان جامدًا على تقليد الآباء واتباع الرؤساء، ودون من كان إلهه هواه ومصالحَه وشهوتَه.

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لو شاء الله أن يهدي البشر بغير هذه الطريقة القائمة على الاختبار والتمحيص لهداهم جميعًا، ولو شاء هدايتهم من غير تعليم وإرشاد ونظر واستدلال وإرسال رسل وإنزال كتب لهداهم جميعًا، ولكن الله له الحكمة سبحانك ربي ما أعظمك.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

يا أهل الكفر الذين زعموا أن الله حرم عليهم أنواعًا من الإبل والبقر والغنم: هاتوا شهداءكم الذي يشهدون على هذا التحريم، وأحضروهم لنستمع إليهم.

وأهل الكفر ليس لهم شهداء على هذا، ولكنه طلبٌ للتعجيز، وإظهارٌ لبعدهم عن كل وسيلة للمعرفة والعلم والدراية، فليس عندهم علم يخرجوه لنا، وليس لهم شهداء، فكيف يزعمون أن الحق معهم ؟!

وتأملوا كيف ابتدأت الآية بلفظة (قل) كما هو الحال في الآية التي قبلها والتي بعدها، وما ذاك إلا لتجديد انتباههم، وتنشيط أذهانهم لعلهم يعقلون.

﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ﴾ خطاب للنبي ﷺ يخبره أنهم قوم بُهتٍ وكذبٍ، وقد يأتون بمن يزعم كزعمهم من رؤسائهم وكهانهم، فإن فعلوا ذلك فلا تشهد مجالس الزور هذه، ولكن تبرَّأ منها واهجرها فإنها مجالس كذب وافتراء.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ واعلم أن الهوى هو إلههم الذي اتبعوه، وجعلوه يحرم ويحلل على النحو الذي يريد، فاحذر أن تداهنهم وأن تتبع شيئًا من أهواءهم، فإنهم لم يؤمنوا بالقرآن ولا بمعجزات نبيهم، ولا بشريعته، بل لم يؤمنوا باليوم الآخر حقيقة وأنهم سيبعثون من جديد ويحاسبون، بل عدلوا مع الله غيره من الأصنام وجعلوها شركاء له فيما خلق وشرع.

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

يا أهل الكفر والشرك: إذا كنتم حريصين بصدق على معرفة ما أحله الله لكم وما حرمه عليكم، فإليكم آيات محكمات تدلكم على ما يرضي ربكم وما يسخطه، فلم يبق لكم بعد ذلك عذر في أن تفتروا على الله الكذب، وفي أن تتبعوا أهواءكم وظنونكم وخرصكم، وكل ما عليكم أن تقولوا: سمعنا وأطعنا، لتكونوا من أهل سعادة الدنيا والآخرة.

هنا سياق قرآني يمتد في ثلاث آيات يعطينا معالم الحلال والحرام، ويرسم لنا طريقًا يميزنا عن غيرنا من الملل والنِّحَل والأمم، ويجعل لنا نورًا في الدنيا قبل نور الآخرة.

هنا آيات عظيمة تدلنا على ربنا خالقنا وسيدنا ومولانا، وكل القرآن عظيم، وكل شريعة ربنا عظيمة، آيات لا يليق ببيت ولا مسلم ولا عاقل إلا أن يعيَها ويرددها ويعلمها للجميع.

وصف هذه الآيات ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأنها آيات محكمات هُنَّ أُمُّ الكتاب، ووصفها ابن مسعود بأنها علامة من علامات صدق النبي ﷺ في نبوته، وتعهد ﷺ لمن أطاع الله بما فيها أن يأجره الله ويكرمه، وأن من خالفها فقد عرَّض نفسه للخطر العظيم.

أخرج الحاكم وغيره عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ؟ ثُمَّ قَرَأَ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حَتَّى خَتَمَ الْآيَاتِ الثَّلَاثَ، فَمَنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنِ انْتَقَصَ شَيْئًا أَدْرَكَهُ اللَّهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتَهُ (يعني: إذا عُوقب بها في الدنيا فهي كفارة له)، وَمَنْ أَخَّرَ إِلَى الْآخِرَةِ، كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ».

قل يا رسول الله ﷺ للمشركين، وقولوا أيها المؤمنون لكل من أراد تعلم رسالة الإسلام: إليكم ما أراده الله من خلقه يوم خلقهم، إليكم العلم الصحيح وحق اليقين، إليكم ما يثبت لكم أنكم أضعتم أزمانكم فيما لا فائدة منه، فتعالوا وهلموا نتلوه عليكم:

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ جاءت الآيات أولًا بالنهي عن الشرك لأنه أكبر المحرمات وأفظعها، وأشدها إفسادًا للعقل والفطرة، ولأن توحيد الله تعالىٰ هو مفتاح الصلاح في العاجل، والفلاح في الآجل.

وحقيقة الشرك: أن يُعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يُعظم كما يعظم الله، أويُصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية.

أوصاكم ربي ألا تشركوا به ولا معه شيئًا، وأن تحسنوا في طاعتكم ولا تصرفوا عبادتكم إلا لله وحده؛ صلاةً وصيامًا وزكاةً وحجًّا، ودعوة إلىٰ الله وجهادًا، وتعليمًا وتعلمًا، وإنفاقًا وبذلًا.

أوصاكم ربي ألا تعبدوا الأصنام، ولا تتخذوها من دون الله وكيلًا، ولا تجعلوها لرغبتكم ولا لرهبتكم، ولا تعلقوا قلوبكم بها. أخرج البخاري عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ».

إن أعظم ذنب عرفته البشرية أن يكفر المخلوق بالخالق ويشرك به، فيجحد وجوده، أو يتخذ له شريكًا، أو ينسب له الزوجة والولد، أو غير ذلك من الأوصاف التي لا تليق بعظمة الرب وكبريائه ووحدانيته وملكه وجبروته.

ليس سهلًا أن يصرف الواحد عبادته إلىٰ غير من يستحقها، ولا إلىٰ من لا يملك لنفسه ضرًا أو نفعًا فضلًا عن أن يملك لغيره، هذا هو الظلم بعينه، ظلم ليس بعده ظلم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لُقْمَانَ:١٣]، وأخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: "أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ" الحديث.

الشرك بالله انحراف عن الفطرة السليمة التي خلق الله الناس عليها، وفيه الشتات والضياع والاضطراب، والجنة حرام علىٰ المشرك، وعمله باطل. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النِّسَاءِ: ١١٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

تأملوا هذه النصوص التي تضيء لنا الطريق في زمن خرج علينا فيه أقوام يَدْعون إلى وحدة الأديان، وأقوام يزعمون أن الحق موجود في اليهودية كما هو في النصرانية كما هو في الإسلام، مع أن أهل اليهودية والنصرانية يكفرون بالقرآن وبمحمد ﷺ، وينسبون لله ما لا يليق بكماله وجلاله ووحدانيته وعظمته، وصدق ربي لما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وأوصاكم أن تحسنوا للوالدين، وقد جاء عطف الإحسان إلى الوالدين هنا على الأمر باجتناب الشرك وتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية، وهذا العطف لم يقتصر على الآية هذه فحسب، وإنما تكرر في أكثر من موضع قرآني نفيس، كقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وغير ذلك.

والأمر بالإحسان إلى الوالدين بعد الدعوة إلى تحقيق العبودية وصرفها لله وحده يعطينا مكانة بر الوالدين في منظومة الشرع، وهذا أمر يدركه من له أدنى تأمل في نصوص الكتاب والسنة وكلام أهل العلم، فالشرع دل على أن بر الوالدين سبب من أسباب دخول الجنة، ورضا الرب عن العبد، واستجلاب محبته له، وهو سبب من أسباب استجابة الدعاء وتفريج الكربات وإقالة العثرات، وفيه النجاة من النار ومن الوقوع في الكبائر.

وبر الوالدين مقدم على نوافل الطاعات وفروض الكفاية بالجملة، ولا يسقط بر الوالدين إلا في مواضع قليلة جدًا، وإن كانا على غير دين الإسلام، بل أزعم أن حرص الطائعين لله على برهما عبادة يصطفي الله تعالى لها من يحب.

والآية هنا تأمر بالإحسان إليهما، أي: إيصالِ كل خير لهما مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وكفايةِ حاجاتهما، وكفِّ الأذى عنهما، والمسارعةِ إلى طاعتهما في غير معصية الله تعالى، والحرصِ على طيب القول ولين الجانب والتواضع لهما والدعاء، ويتأكد هذا الإحسان حال كِبَرهما كما أرشدت إلى ذلك آيات أخر، ويتأكد ذلك في حق الأم أكثر وأكثر.

والإحسان لهما يختلف باختلاف أحوال الوالدين وأحوال الأبناء، وتفصيل ذلك يدركه أبناء الإسلام، ولكن للتذكير أقول: كن قريبًا منهما، وقم على خدمتهما، وتكلم معهما بطريقة تناسب قدرهما، وأحسن في استماعك لما يقولون، وتفقدهما بالنفقة والهدية دومًا، وبالغ في

كل ذلك حال كبرهما، ولا تنس أن تخلص لوجه الله تعالى في برك، وأن تستحضر نية طيبة، فقد نرى في واقعنا من ظاهر حاله البر والطاعة لوالديه، وحقيقة حاله أنه يقصد مال الوالد أو الوالدة أو مدح الناس وكفى.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الكَبَائِرِ، قَالَ: "الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ".

وهنا همسة للآباء والأمهات الذين عَلِموا قدر طاعتهم في الشرع، أقول فيها: أعينوا أبناءكم على بركم، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، وتفقهوا فيما لكم من حقوق على أبنائكم وما عليكم من واجبات، فقد وجدنا في واقعنا من يعين أبناءه على العقوق بسلوكه الفظ، وسؤال ما ليس له.

وهنا مسائل أُرْشِد إلى ضرورة ضبطها والاطلاع على فقهها لتكون علاقة الأبناء بالآباء كما أرادها الشرع، منها: مسألة النفقة بينهم، وحدود بر الوالدين في أبواب الواجبات والمندوبات والمباحات والمكروهات والمحرمات، ومسألة الإجبار على الزواج من شخص بعينه، وأمر الوالد أو الوالدة ولدهما بطلاق زوجته، وأحكام العدل في الهبة والعطية بينهم، وغير ذلك من المسائل التي هي ليلنا ونهارنا، والتي أزعم أن معرفة أحكامها في الشرع تُصْلِحُ أحوالَ الكثير.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ تذكروا أن السياق القرآني هنا جاء في معرض محاجة أهل الشرك وبيان ما أراده الله منهم، وفيه وصف لحالهم الذي عظمت فيه الكبائر بعد الشرك بالله، ومنها أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما تقدم معنا.

سوَّلت لهم الشياطين قتل أولادهم فقتلوهم، فأنكرت الآيات عليهم من قبل، وجاءت هنا لتؤكد أن هذا الجرم عظيم جِدٌّ عظيم، وأنه مما نهى الله عنه وحرَّمه.

خوف الإملاق، وهو الفقر، واحد من الأسباب التي كانوا لأجلها يئدون الأولاد. أخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لله ندا وهو خلقَكَ". قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: "أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَم مَعَكَ". قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: "أن تُزَاني حَلِيلَةَ جَارِكَ". ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨].

وفي زماننا: زعم المتاجرون بحقوق الإنسان الذين بنوا آراءهم على منظومة الفكر الغربي واللادين، أن إجهاض الجنين حق من حقوق المرأة لها أن تفعله وإن نفخت فيه الروح، فقتلوا زورًا وبهتانًا أنفسًا، واعتدوا عليها قبل أن تُولد، فضلًا عن قتل عقول أبنائهم بغمسها في الشهوات والشبهات والأباطيل والانحراف عن العقل والعلم والفطرة.

وفي زماننا: تطل علينا فكرة تحديد النسل بأوسع صورها وأبشعها، زاعمة أن الاقتصار على مولود واحد في حياة الزوجين أو على اثنين سيوفر لهما حياة أرغد وأجمل، وأن الزيادة على ذلك مدعاة لمزيد من الفقر والجوع، وهذه فكرة تتعارض مع عقيدتنا التي علمتنا أن الرزق بيد الله، وأن المولود يُكتب رزقُه أولَ ما تُنفخ فيه الروح، وأن إنجابه سبب من أسباب سعة الرزق.

بل إن وفرة الأولاد في حياة الوالدين سبب لراحتهما عند الكبر، وسبب لكثرة من يدعو لهما بعد وفاتهما، وسبب لكثرة الأجور عند الله إذا كانوا من الصالحين، وسبب لقوة الأمة اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لا تقتلوهم أيها المشركون، وتخلصوا من هذا التفكير العفن الذي عشَّش في عقولكم، واعلموا أنهم لن يكونوا سببًا لفقركم، وأن الله تعالى تكفَّل برزقكم ورزقهم، ومن أمره بيد خالقه لا يحزن ولا يخاف.

تأملوا كيف قدَّم رزق الآباء هنا على رزق الأبناء، بخلاف ما جاء في سورة الإسراء من قول الله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، والسبب في ذلك أن الآية التي في الأنعام تنهى عن قتل الأولاد من أجل الفقر الواقع بالفعل، فالآية تخاطب أبًا فقيرًا يريد قتل أولاده لأنه فقير غير قادر على إطعامهم، فجاء الخطاب بأن رزقك أيها الأب سيأتي ومن بعدك رزق عيالك فلا تخف، أما في سورة الإسراء، فإنه يصف حال والد يخاف الفقر في المستقبل. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١].

إن قتل الأبناء بسبب الفقر وخشيته كبيرة من كبائر الذنوب في هذا الدين، وهو مظهر من مظاهر اليأس وضعف اليقين بالله والتوكل عليه، وكأنه نسي أو تناسى أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، وأن المولود إذا نفخت فيه الروح كتب الله له رزقه، وأن الواجب عليه أن يسعى لهم ويطرق أبواب الرزق بدلًا من قتلهم.

بل لعظم هذا الفعل أمر ربنا نبينا ﷺ في بيعته للنساء إذا أسلمن ألا يقتلن أولادهن، كما في قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وقد كانت النساء يسكتن عن قتل الأولاد ويرضينه، ولذلك خاطبهن في البيعة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ لا تقتربوا من الفواحش التي نهى الله عنها، فإن سعادتكم وفلاحكم ونجاحكم باجتنابها. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣]، وأخرج البخاري ومسلم عَنِ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لا أحد أغْيَر من اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّم الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَر مِنْهَا وَمَا بَطَنَ".

وأهل العلم في التعامل مع لفظة الفواحش على طريقين:

الأول: أن الفاحشة هي كل خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال، وهو قول جمهور أهل التفسير، ومنهم من قصره على ما يشْتَدُّ قُبْحه من الذُّنُوب والمعاصي، وهذا تعريف عام لكل ما حرمه الله تعالى من القول والعمل، ومنه التفحش في القول والكلام القبيح الذي نسمعه من كثير من الناس، يشتمون به الأعراض، ويصفون فيه أجساد الرجال والنساء، ومنه الغيبة والنميمة والقذف والكذب والخداع وغير ذلك.

وفي هذا المعنى أخرج مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "أَتَى النَّبِيَّ ﷺ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ! (يعني: يدعون عليه بالموت في لغتهم) قَالَ: وَعَلَيْكُمْ. قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَالذَّامُ! (يعني: سَبَّتْهم وذَمَّتْهم) فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا عَائِشَةُ، لَا تَكُونِي فَاحِشَةً. فَقَالَتْ: مَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا؟ فَقَالَ: أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا؟ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ". وفي رواية أنه قال لها ﷺ: "مَهْ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ".

والفواحش الظاهرة على هذا التفسير هي ما يكون أمام الغير كقذف المحصنات ، وأما ما بطن منها فكالسرقة والسحر والزنا بالسر ومقدماته، وغير ذلك.

الثاني: الفاحشة في الآية هنا هي الزنا، فإن العرب في الجاهلية كانوا لا يرون بأسًا في فعل الزنا بالسر، ويرونه مصيبة في العلن، فجاءت الآية تحذرهم منه في السر والعلن.

ويؤيد هذا أن الفاحشة جاءت في عدد من نصوص الشريعة في وصف الزنا ومقدماته، كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وكسؤال الصحابة للنبي ﷺ في قصة اللعان بين الزوجين التي أخرجها مسلم، فقد قالوا: "أَرَأَيْتَ أَنْ لَوْ وَجَدَ أَحَدُنَا امْرَأَتَهُ عَلَى فَاحِشَةٍ، كَيْفَ يَصْنَعُ؟"، ولما جاء الصحابي ماعز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليقر بفعله للزنا، قال للنبي ﷺ كما عند مسلم: "إِنِّي أَصَبْتُ فَاحِشَةً فَأَقِمْهُ عَلَيَّ (يقصد: فأقم عليَّ حدَّ الزنا).

وسبحان الله كيف يأتي التعبير القرآني بعدم الاقتراب من الفواحش، ولم تقل الآية: ولا تفعلوا الفواحش، لأن منهج الشريعة بالجملة يقوم على سد الذرائع التي توصل إلى الكبائر، ففي الخمر لعن ﷺ أصنافًا كثيرة أعانت على شربها وإن لم تشرب، وفي الربا لعن من يكتب العقد ويشهد، كما لعن آكل الربا وموكله، وفي الزنا حرمت الشريعة الخلوة بين الرجل والمرأة الأجنبيين، وحرمت خروج المرأة مستعطرة، وحرمت دخول الرجال على النساء، وحرمت إبداء المرأة لزينتها، وأوجبت غض البصر على الرجال والنساء، وغير ذلك من الأحكام التي تمنع من الاقتراب من فاحشة الزنا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ اعلموا يا أهل الشرك أن النفس الإنسانية غالية عند الله ولها مقامها وقدرها، وأنه لا يجوز قتلها وإراقة دمها إلا فيما أذن فيه الشرع، فإياكم أن تعتدوا في ذلك وأن تزعموا غيره.

والخطاب وإن جاء في معرض بيان ما حرم الله على أهل الجاهلية الذين ابتدعوا في دينهم وتحكموا في أوامره ونواهيه، ولكنه خطاب عام يشمل أهل الإيمان وغيرهم، ويوجههم ويعلمهم ويضع لهم معالم الطريق في التعامل مع النفس الإنسانية، مسلمة كانت أو غير مسلمة.

عظَّمَ الإسلام أمر الدماء وأخبر أن أول ما يُقضى فيه في حقوق العباد يوم القيامة الدماء والقتل، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ (أي: في النفوس التي قُتلت ظلمًا في الدنيا)».

وأخرج الترمذي وغيره عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "يَجِيءُ المَقْتُولُ بِالقَاتِلِ يَوْمَ القِيَامَةِ نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ وَأَوْدَاجُهُ (العروق التي تحيط بالعنق) تَشْخَبُ دَمًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ، قَتَلَنِي هَذَا، حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ العَرْشِ".

إن حفظ النفس من ضروريات الحياة في الدين، والشريعة طافحة بالنصوص التي تبين حرمة دماء المؤمنين، وقد حملت تهديدًا ووعيدًا لكل من سولت له نفسه ليعتدي عليها. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وأخرج أبو داود عَنْ أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا (مسرعا في طاعة الله وفي الخير) صَالِحًا مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ (انقطع ولم يوفق للمسارعة في الخير)".

قال الله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الْفُرْقَانِ: ٦٨-٦٩].

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ».

وأخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه واللفظ للنسائي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ».

المؤمن الذي تربى في ظلال آيات كتاب ربنا وسنة نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يعلم أن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ويعلم أن المؤمنين تجمعهم روابط المحبة والموالاة التي تقوم على أن يدفع كل منهما الأذى عن الآخر، ويعلم أن الأصل في النفس المؤمنة أنها محفوظة من القتل والاعتداء، ولذلك: لا يُتصور أن يَعْتدي عليها قاصدًا إيذاءها، ولا يمكن أن يقصد مؤمن مؤمنًا بالقتل، فالمؤمن الحق يمنعه إيمانه من العدوان على الآخرين، ويُسَدِّده فيما يقول ويفعل وإن غضب.

أخرج البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» ، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» ، قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» ، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ "، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا».

القتل العمد من أعظم الذنوب بعد الشرك، وفيه اعتداء على نفسٍ مؤمنة بريئة، نفسٍ قد يكون من ذريتها الخير الكثير للبشرية، وهذا القتل فيه بث لروح الكراهية والبغضاء والشحناء بين أبناء المجتمع الواحد، وفيه تفريق للمؤمنين وإضعاف لهم أمام عدوهم الذي يتربص بهم ليله ونهاره، ينتظر فرقتهم وحصول الخصومات العظيمة بينهم، وأن يكون بأسهم بينهم شديدًا. أخرج البخاري

ومسلم عَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ» (يعني: اطلب منهم أن يسكتوا) فَقَالَ ﷺ: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

بل حتىٰ غير المسلم يحرم قتله والاعتداء عليه إذا كان معاهدًا لنا أو ذِمِّيًّا أو مستأمنًا، بخلاف ما لو كان حربيًّا فمقاتلته واجبة. أخرج أبو داود والبيهقي في السنن الكبرىٰ عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، أن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وأخرج البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يُرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مسيرة أربعين عاماً".

ثم اعلموا يرحمكم الله أن هذه النصوص إنما هي فيمن قتل مسلمًا بغير حق، أما من قتله بحق فلا يشمله الوعيد المذكور في الآيات والأحاديث، والشرع أوجب علىٰ الإمام قتل المسلم إذا قَتَل نفسًا مسلمة معصومة متعمدًا، وهو ما يعرف بالقصاص الذي وصفه القرآن بأنه حياة للناس، وأوجب الشرع كذلك علىٰ الإمام قتل المسلم إذا اقترف جُرْم الزنا وكان محصَنًا، أي: متزوجًا، وأوجب قتله إذا ارتد عن دينه، وعند جمهور أهل العلم يُقتل الساحر، وكذا عند الشافعية إذا قتل بسحره، ولذلك كان الوعيد في الآيات المذكورة إنما هو لمن قتل نفسًا بغير حق. أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ".

ومما يُستثنىٰ في الآية كذلك ما لو صال مسلم واعتدىٰ علىٰ مال الآخرين، أو اعتدىٰ علىٰ أنفسهم، أو علىٰ أعراضهم ثم حاولوا دَفْعَه وكفَّ شَرِّه فلم يندفع إلا بالقتل فقتلوه، فمثله لا دية له، ولا كفارة علىٰ قاتله، ولا قصاص.

وكذلك الحال فيما لو بَغَتْ طائفة علىٰ إمام المسلمين فإنه يقاتلها ليدفع بَغْيها، وقد يكون في ذلك قتل لبعضٍ من كان مع البغاة، فمثلهم أباح الشرع قتالهم وقتلهم إذا لزم الأمر.

واعلموا أن حِرْص شريعتنا علىٰ النفوس لم يقتصر علىٰ تحريم قتلها ظلمًا، ولكنه امتدَّ لإغلاق وسَدِّ كل ذريعة توصل إلىٰ قتلها، وحَرَّم كل فعل يؤذيها وإن كان دون القتل، ولذلك جاءت طائفة من أحاديث النبي ﷺ تبين خطورة التعرض للنفس المعصومة، وخطورة أن يقاتل المسلم المسلم علىٰ باطل، وخطورة أن يؤذيه في بدنه.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ قَتْلِ صَاحِبِهِ».

وأخرج مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ».

وأخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ».

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»، وغير ذلك من الأحاديث.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذه وصية الله للأولين والآخرين لعلهم يعقلون عن الله ما أراده منهم، وما أذن به وما لم يأذن، وهي وصية للعالمين جميعًا مسلمهم وكافرهم.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

آيات متعددة في القرآن العظيم جاءت في حفظ حق اليتيم وضرورة الإحسان إليه، فضلًا عن كنوز السنة النبوية في ذلك، فاليتيم ذكرًا كان أم أنثى، انكسر قلبه بفقد أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، وهو ضعيف لا يقوى على شؤون الحياة، ويحتاج إلى ولاية على ماله ونفسه إلى أنْ يشتد عوده ويبلغَ، ويكونَ رشيدًا في قوله وفعله.

الشريعة الإسلامية الغراء جعلت كفالتَهم سببًا لرفقة سيد الأولين والآخرين ﷺ، وجعلت لهم سهمًا يخصهم من مال الغنائم وكذا من مال الفيء من بيت مال المسلمين، وهذا كله من الإحسان إليهم.

وإحسان المجتمع الطيب الصالح إلى اليتيم فيه تعويض له عن فقد النَّاصِرِ الْقَوِيِّ الْغَيُورِ وَهُوَ الْأَبُ، وفيه نجاة له من استقطاب أهل الفسق والفجور.

اليتيم قد يكون صاحب مال ورثه من أبيه أو أمه أو غيرهما، أو وُهب له أو جاءه بطريق ما، ومِثله لم يُعْطه الشرع حرية تصرفه في ماله لأنه صغير غير راشد، ولا ندفع له ماله ليستقل في التصرف فيه دون الولي أو الوصي إلا بوجود أمرين اثنين، وهما البلوغ والرشد، كما قال ربنا: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ﴾ [النساء: ٦].

إن الاقتراب من مال اليتيم كبيرة من كبائر الذنوب، وهو من الموبقات السبع التي ذكرها ﷺ، وكلُّ من سوَّلت له نفسه أن يعتديَ على مال يتيم مستغلًّا ولايته عليه، ومستغلًّا صغر هذا اليتيم وجهله، فليعلم أن ما كسبه بسبب اعتدائه على مال اليتيم هو كَسْبٌ خبيث لا يَحِلُّ له، وأنه موقوف بين يدي خالقه، وأنه محاسب عما استرعاه الله، وأنه عَرَّض نفسه لسخط عظيم من الرب، وعرضها لعقوبة شديدة وعذاب أليم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٢]، وحوبًا: أي: إثمًا.

ولقائل أن يقول: وكيف يقترب الولي من مال اليتيم أو يعتدي عليه ؟ والجواب أنه يكون بمنعه حقَّه من الميراث مثلًا، أو بالتقصير في حفظ ماله والاعتناء به، أو قد يعجبُه شيءٌ من مال اليتيم فيأخذه أو يستبدله بالرديء من ماله، أو يستغله بوجه ما لمصالحه الشخصية.

تأملوا كيف منعت الآية الاقتراب من مال اليتيم حتى يبلغ أشده، أي: حتى يكون بالغًا، وبلوغه علامة على قدرته على إدارة ماله وحفظه، فإذا علمنا رشده وأهليته في ذلك أعطيناه ماله.

ثم إن الآية أذنت أن يقترب ولي مال اليتيم من مال اليتيم بالتي هي أحسن، أَيْ: لا تقربوه إلا مُصْلحين له، وفي التصرف الذي ينفعهم ولا يضرهم. أخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي فَقِيرٌ لَيْسَ لِي شَيْءٌ وَلِي يَتِيمٌ. قَالَ: فَقَالَ: "كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ، وَلَا مُبَادِرٍ، وَلَا مُتَأَثِّلٍ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِيَ مَالَكَ بِمَالِهِ". ولفظة متأثل أي: تأخذه لتجعله رأس مال لك، وتبدأ به مشروعًا خاصًّا بك في التجارة ونحوها.

ولِلْولي أن ينتفع من مال اليتيم في أحوال، وبيان ذلك أن الولي إذا كان غنيًّا مكتفيًا بماله، فلا يأخذ من مال اليتيم شيئًا وإن قلَّ، وَلْيحرص على إعفاف نفسه عن الأكل منه أو الميل إليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾ [النساء: ٦].

أما إذا كان الولي على مال اليتيم فقيرًا، أو كان مُحْتَبَسًا على رعاية هذا المال ولا وقت عنده ليعملَ ويكفيَ نفسه وعياله، فهنا أجاز الشرع لهذا الولي وأباح له أن يأكل من مال هذا اليتيم عند وجود الحاجة، بشرط أن يكون بالمعروف، أي: بما عرف بين الناس وبقدر حاجته ولا يتجاوز، ولا يلزمه عند جمهور أهل العلم إرجاع هذا المال لليتيم إن أَيْسر بعد ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

وفي هذا المعنى جاء قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠] أَيْ: وَإِنْ خَلَطْتُمْ طَعَامَكُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابَكُمْ بِشَرَابِهِمْ وفقًا لما عُرف بينَ النّاسِ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْكُم؛ لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، ومُخَالَطَتُهُم تقتضِي حُسْنَ عِشْرَتِهِم ورِعايَتَهُم ومعامَلَتَهم كالإخوةِ الذين هم من أقربِ النّاسِ للواحدِ منّا.

وقد بلغت هذه الآية التي نفسرها مبلغها في قلوب أصحاب النبي ﷺ، وكان لها أثرٌ في تعاملهم مع الأيتام الذين كانوا تحت ولايتهم، وذلك من شِدَّةِ حرصِهِم على ما يحبُّه ربُّهُم ويرضَاه، ومن شِدَّةِ تحرُّجِهِم من الوقوعِ في الإثمِ، حتى قام كل منهم بالفصل التام بين ماله وبين مال اليتيم، وجاء كل منهم نبيَّنا ﷺ يسأل عن ذلك، كما أخرجَ أبو داود واللّفظُ له، والنّسائيُّ والحاكمُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وَ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]؛ انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِهِ (أي: اليتيم) فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٢٠]، فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِ".

وفي أيامنا قامت مؤسسات كاملة على رعاية أموال اليتامى في عدد من الدول، والعاملون فيها إن كانت الدولة تكفيهم برواتب فلا ينبغي لهم أن تمتد أيديهم إلى أموال اليتامى، بخلاف ما لو كانوا محتَبَسين على ذلك ولا رزق لهم من الدولة فلهم أجرة مثلهم ولا يتجاوزون.

والتعامل مع مال اليتيم يحتاج إلى فقه ودراية، ولا بد أن يقوم عليه الصادق الأمين القادر على حسن إدارته واستثماره إن لزم الأمر.

ومن أجل ثقل أمانة حفظ مال اليتيم جاء حديثٌ أخرجه مُسْلِم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ".

وأخرج أحمد وابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ، وَالْمَرْأَةِ".

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ اعلموا أن الله تعالى يأمركم أن تؤدوا الأمانة في بيعكم وشرائكم وأخذكم وعطائكم، فلا تزيدوا أو تنقصوا مخادعين الطرف الآخر، ولا تبخسوا الناس حقوقهم وما لهم، ولكن أوفوا ما عليكم بالقسط، وهو العدل.

والتطفيف كما أشارت الآية يكون في الكيل وفي الوزن، ويشمل كذلك ما يُباع بالعدد أو بالذراع، وقد كان سببًا في هلاك أقوام وأمم، كما حصل مع قوم شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هود: ٨٤].

ليس سهلًا أن يفشو التطفيف في الميزان في مجتمع ما، فهذا مَدْعاة إلى كثرة الخصومة والشحناء والبغضاء، ولذلك جاءت الوصية بالحذر منه. قال الله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٧-٨].

بل كَثُر الوعيد في الكتاب وفي السنة لمن طفف في الميزان واعتدى على أموال الآخرين، حتى جُعل التطفيف في الميزان من أسباب القحط والجَدْب في الدنيا، ومن أسباب سخط الله ودخول النار في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣]، أي: إذا أخذ لنفسه أخذ أكثر من حقه، وإذا أعطى أعطى أقل من الواجب.

وأخرج ابن ماجه والبزار عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ" الحديث.

وقد توقف أهل الوعظ مع مسألة التطفيف في الميزان، وانتفعوا منها أيما انتفاع، وذكروا أن كل تصرف يجعلك تأخذ أكثر من حقك، أو تهرب من حقٍّ واجب عليك، هو تطفيف بالمعنى العام،

فالبائع الذي أوهم المشتري أن هذه البضاعة من صناعة بلد ما ليأخذ ثمنًا كثيرًا، وهي ليس كذلك، فهذا تدليس وتغرير بالمشتري، وهو شكل من أشكال التطفيف في الميزان، وكذلك كل من يلعب بالأطعمة والأشربة ليقدمها على غير حقيقتها، وكذلك كل سلعة من غير الطعام والشراب.

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه يلحق به إخفاء عيوب السلعة، فهذا كله غش وخداع، وأكل لأموال الناس بالباطل

بل تعدى الأمر بأهل الوعظ إلى أن يعدوا المطالبة بجميع الحقوق التي لك على الغير، مع التقصير في واجباتك تجاههم، هو من التطفيف الذي توعدت نصوص الشريعة أصحابه، كالزوج المفرط في حقوق زوجته ويطلب منها كامل حقوقه، وكالوالدين اللذَيْن أضاعا أبناءهما ويطلبان كامل البر، وكالموظف الذي يخرج من وقت وظيفته دون علم أحد لساعات، ويأخذ راتبه كاملًا لأعمال لم يقم بها، والعكس صحيح في جميع الصور، وقيسوا على ذلك.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هنا قاعدة شرعية ربانية عظيمة، تتضمن مَعْلمًا من معالم رقيِّ الشريعة وقدرتها على حكم الزمان والمكان، فالله تعالى أمر ونهى، وجعل أوامره ونواهيه مرتبطة بعللٍ وأسبابٍ وشروطٍ وحِكَم، ثم إن الشريعة كلفت العباد بما يطيقون وأسقطت من التكليف ما لا يطيقون، ثم إنها عَلِمت أن المكلف قد تعتريه أحوال يضعف فيها ويحتاج إلى التيسير، فجعلت بابًا للرخص محبَّبًا للخالق جل وعلا.

ومن مراعاة الشريعة لأحوال المكلفين أنها فتحت باب التوبة لمن عصى، ولم تغلقه إلا إذا بلغت الروح مبلغ خروجها، بل رفعت الإثم عن الصغير وعن البالغ إذا أخطأ أو نسي.

ومناسبة قول الله هنا لما قبله أن التطفيف في الميزان قد يكون عن سهو أو خطأ أو نسيان، فجاء قول الله هنا ليربط على القلب، ويعين من اجتهد واستفرغ وسعه في العدل والقسط، ويقول له: لا نكلفكم تمام القسط في الكيل والميزان بالحبة والذَّرَّة، ولكنا نكلفكم ببذل الوسع وغاية الجهد في تحقيق التساوي، فإن ندَّ شيء لا يمكنكم الاحتراز منه فلا يسألكم الله عنه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ليس سهلًا على المرء أن يكون من أهل العدل الذين يقفون مع الحق أينما كان، ويبذلون من أجله ما استطاعوا، أو أن يتجرد في شهادته في الحقوق والواجبات ويجعلَها خالصة لله تعالى، أو أن يخالف هواه في ذلك ولا يذهبَ يمينًا أو شمالًا.

هنا نداء من الله تعالى للذين يسارعون في الاستجابة لأمر الله تعالى، والذين أيقنوا أن بعد الموت بعثًا وحسابًا وقضاءً بين الخلق جميعًا، ثم جنةً أو نارًا.

نداء فيه صلاح المجتمعات، وضمان لأمْنِها وَقُوَّتها، وحمايتها من الفساد والمفسدين وتخريبهم للبلاد والعباد، نداء تدرك به أن هذا الدين حضاريٌّ لا يصلح غيره ليَحكم في الأرض.

هنا أمر من الله تعالىٰ بالحرص علىٰ العدل في الأقوال، وأن نقول الحق في شهادتنا وقضائنا ومشاورتنا، وفي الصلح بين الناس، وفي بيان صفات ما نبيع وما نؤجر، وفي مواعيدنا وفي مَدْحنا وذمِّنا، نقول العدل ولا نعتدي علىٰ الحقوق، ولا تأخذنا في ذلك لومة لائم ولا يصرفنا عنه صارف، حتىٰ وإن كان ضرر القول بالحق يرجع علينا أو علىٰ والدينا أو علىٰ قرابتنا.

وقول العدل وإن كان ذا قربىٰ، معناه أن الشرع يطلب منا أن ننتصر علىٰ أنفسنا وألا نستسلم لرغباتنا وأهوائنا، وأن نقول الصدق والعدل ولو عاد ضرر ما نقول علىٰ قرابتنا، وألا تأخذَنا الحَمِيَّة تجاه القرابة فنقفَ مع الباطل من أجلهم وننصرَه، أو نُبدلَ أو نُحرفَ في الكلام فنأكلَ حقوق الناس.

ما أصعبها يوم تكون الشهادة علىٰ واحد من الوالدَيْن أو تكونُ علىٰ القرابة، فإنه قد تربَّع حبهم في قلوب أبناء مجتمعاتنا، ويكاد الواحد منا أن ينصرهم علىٰ كل شيء وإن كان باطلًا، ولعلكم رأيتم أصنافًا من الناس يشهدون مع قرابتهم بالباطل، ويظنون أن الامتناع عن ذلك تقصير منهم وعار عليهم وعيب في حقهم.

النداء الرباني يقول لهم: دوروا مع الحق، واشهدوا بما يُرْضي خالقكم وضمائركم وإن لحقكم ضررٌ بذلك، وإن سخط قرابتكم عليكم؛ هذا خير لكم ولهم، وطاعة الله فوق كل شيء. قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ﴾ [النساء: ١٣٥].

ولا تظنوا أن الوقوف مع العدل والحق في مثل هذا الموطن فيه قطيعةٌ للرحم، بل هو قمة البر والصلة، فإننا نعين أهلينا ظالمين ومظلومين، فإن كانوا مظلومين وقفنا معهم لندفع الظلم عنهم، وإن كانوا ظالمين أغرقناهم بالنصح والتذكير حتىٰ يرجعوا عن غيِّهم وغفلتهم.

وهنا مسألة لا تفوتنا: أهلونا وقرابتنا قد تأخذهم العزة بالإثم في أوقات ما، وقد يضيق أفقهم ويُحاصَر تفكيرُهم فيَقلبون الحق باطلًا، ويعتدون علىٰ حقوق غيرهم ويُلبسون قُبح فعلهم ثوب الحق والصواب والحرص علىٰ المصلحة، يعني: يتظاهرون بأنهم مصلحون وحريصون علىٰ الحق، وليسوا كذلك.

وهنا يظهر تعاضد أهل الخير في المجتمع المسلم، ويعلو صوت أهل الإيمان والتقوىٰ، فينطلقون بالنصح والإرشاد والتذكير، ويشهدون بالحق إن لزم الأمر ليكونوا عونًا لأهليهم وقرابتهم علىٰ أنفسهم وشيطانهم، شيطانِهِم الذي سوَّل لهم ولبَّس عليهم وأغواهم.

ربما ينالك غضبهم أولَ الأمر، وربما تلقى شيئًا من الضرر والأذى، ولكنهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنك أصدق الناس معهم، وأنك أحرصُ عليهم من الغير، وأنك تسعى بشهادتك بالحق أن تفتديَهُم من سخط الله وعذابه، ثم ما يلبثون إلا أن يستيقظ فيهم الخير العظيم ويتوبوا من سقطتهم تلك، ويرفعوك بينهم تقديرًا وتوقيرًا.

﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ لا تنقُضوا العهود التي بينكم وبين الله سبحانه وتعالى، ولا تُخِلُّوا بها ولا تَغْدروا، وكذلك العهودَ التي بينكم وبين النَّاس.

الله تعالى شرع للناس دينًا فيه كل ما ينفعهم من عقائد وتشريعات وأخلاق، وبيَّن للناس كيف يعبدونه وبيَّن لهم ما أحلَّ وما حرَّم، وأخذ الميثاق على من آمنَ وصدَّقَ أن يُخلص العبودية لله وحْده ويطيعَه فيما أمر.

ولقد كان نبينا ﷺ يُبَايِعُ الْمُؤْمِنِينَ إذا جاؤوه ليكونوا جنودًا لهذا الدين، يبايعُهم على أَنْ لَا يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وعلى اجتناب ما يُسخط الله تعالى من القتل والزنا والسرقة وغير ذلك، وكان يبشِّرُهم بالأجر العظيم والمثوبة الكبيرة لمن وفَّى بعهده مع الله وأطاعَه فيما أمر.

أهل الإيمان لا يُقبل منهم إلا توفيةُ ذلك الميثاق، ولا يصلحُ أن يكون حالُهم كمنْ قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرَّعْد: ٢٥]. ولا يصلح أن يكون حالهم كحال من ذكره الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ هذه وصية من الله لكم فالزموها، وأقبلوا عليها فإنها تحمل موعظة لكم تنفعكم، وتحمل ذكرى تحيي قلوبكم، ولا تنفع الذكرى إلا المؤمنين.

هذه وصية من الله لكم لتكُفُّوا عما أنتم عليه من قول المنكر وفعله، ولتسارعوا إلى توبة نصوح.

وهذه وصية لكم يا أهل الشرك فإنكم تعلمون قيمتها فيكم وحاجتكم إليها، وتذكَّروا أنكم تمدحونها فيما بينكم، ولكن الهوى والشرك غلبا عليكم، فتذكروا وأقبلوا.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

عشنا في سورة الأنعام كحال غيرها من السور مع معالم الصراط المستقيم في التوحيد وفي العبادة وفي الأخلاق، آيات تنطق بالحق، وكل كلمة فيها تهدي زيادة وزيادة، وتنير الطريق للحائرين، وتعطي من تدبرها وعاش معها الثبات العجيب.

بعد هذا البيان القرآني لحقيقة الدين الذي يرتضيه الله تعالى لعباده، جاءت الآية لتبين أن كل من سلك طريقًا في عبوديته لله غير طريق الإسلام، فلن يُقبل منه، ولا يكون مسلمًا في أحكام الدنيا، ولا كذلك في الآخرة، بل هو من الخاسرين الذين خسروا كل شيء، المستوجبين للخلود في عذاب الله.

أخرج أحمد وابن ماجه، واللفظ لأحمد عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ: "هَذَا سَبِيلُ اللهِ "، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: "هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ "، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾.

سبيل الله واحد لا يتعدد، ولذلك جاء بالإفراد في الآية، والسبل التي تصرف الناس عن طريق الجادة وتضلهم عن طريق النجاة كثيرة، ولذلك جاءت على صيغة الجمع هنا في الآية، كما جاء جمع الظلمات وإفراد النور في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

ومثل هذه الآيات تجعل المسلم يُحسِن لنفسه بالثبات على عقيدة الحق والهدى، وتُعطيه الثقة بهذا الطريق الذي أكرمه الله به، وتعطيه اليقين بأن الإسلام هو دين الحق الذي لا يُعبد الله بغيره، وتجعلُه يستشعر عظم الأمانة التي يجدر به أن يؤديَها على الوجه المرضي، أعني: أمانة تبليغ الدين للناس ودعوتهم وإرشادهم إلى الصراط الذي لا اعوجاج فيه، وأمانة الحرص على حفظ هذا الدين بين أهله عن طريق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن دين الله الذي ارتضاه للعالمين نعرفه عن طريق وَحْيه لا عن طريق غيره، وقد أوحى الله إلى نبيه أن اليهود والنصارى وغيرهم من الأمم والمِلل ليسوا على طريق الإسلام الصحيح، ثم

إن الوحي الذي عندنا قامت أدلة عظيمة على صحته وصدقه، فالقرآن فيه من العجائب ما لا يخفى على مُنصف، والسنة النبوية جاءت بكنوز يعلمها من أجال بصره فيها، ثم إننا ما وجدنا تشريعًا ينظم حياة الناس في السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية وغيرها كشريعة محمد ﷺ، وما وجدنا دينًا وصل إلينا عن طريق أسانيد صحيحة ومعلومة إلا في ديننا، وما وجدنا دلائل على حقائق علميةٍ إعجازيةٍ موفورةٍ إلا في الكتاب والسنة.

والمتأمل في دين محمد ﷺ يعلم تمام العلم أنه دين محفوظ بحفظ الله، وأنه منزل من عند الله، وأنه يقرر عقيدة توافق العقل والفطرة، بخلاف عقيدة النصارى التي تقوم على التناقض وما يستحيل فهمه، فمن نظر عندهم في عقيدة الصلب والفداء، أو في عقيدة التثليث علم أن أيدي البشر قد لعبت وتدخلت، وكذلك من نظر في الإنجيل والتوراة وكيف وصلت إلينا، علم أنه لا أسانيد لهما، وعلم أن النسخ الأصلية مفقودة، وأنها مكتوبة بلغات أخرى، ولا تكاد تجد واحدًا في العالم كله يحفظهما أو رجلًا واحدًا حفظهما في التاريخ ليطمئن قلبك.

ولا يفوتنا في تفسير هذه الآية أن نقرأ فيها دعوة الأمة إلى اجتماعها على هذا الصراط المستقيم، ودعوتها إلى اجتناب الفرقة والاختلاف في الدين، لئلا يتلاعب بها أهل الكفر، ولئلا يتلاعب بها أهل البدع فيفرقوا صفها ويُلَبِّسوا الدين على أبنائها وبناتها، فالزموا يا أمة محمد ﷺ سبيل حفظ أمتكم وعزتها وقوتها، وكونوا على قلب رجل واحد، وتتبعوا آثار الصراط الذي علمنا إياه أصحاب محمد ﷺ والتابعون وأئمة الهدى الأعلام الثقات الربانيون.

ولا يفوتنا كذلك أن نشير إلى طبيعة الطريق الذي جعل الله فيه عقبات ليبلوَنا أيُّنا أحسن عملًا، فلا يظنن ظان أن طريق الجنة مفروش بالورود، وأن الأمر فيه سهل جدًّا، ولكنه جهاد للنفس والعدو، وثبات على المنهج حتى الممات.

أخرج أحمد والترمذي وغيرهما، واللفظ لأحمد عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: "ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ".

﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ وصايا من خالقنا في ثلاث آيات متتابعات تضمن لنا أن نظفر بحبه جل وعلا، وأن يكرمنا بجنته سبحانه، وأن يحل علينا رضوانه فلا يسخط بعدها أبدًا.

وغاية وصية الله لنا هي أن نكون مع المتقين كما في هذه الآية، وهم الذين اتقوا ربهم وخافوه، فاجتنبوا المحارم وأقبلوا على الطاعات، ولزموا باب العبادة حتى فارقت الروح البدن.

وغاية الوصايا التي جاءت في الآية هنا أن نعقل ونتذكر ونتقي؛ ما أعظمه من دين وربي.

﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ١٥٤﴾

يمدح الله تعالى التوراة ورسولها موسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويصفها بمجامع الأوصاف الطيبة المباركة الحسنة، وأنها جاءت تدل بني إسرائيل من قبلُ على الصراط المستقيم الذي أمر الله باتباعه في الآية السابقة.

والمتتبع لآيات القرآن يجد أن الله سبحانه وتعالى كثيرًا ما يَذكر التوراة مع القرآن، فإن أهل الشرك كانوا يخالطون اليهود في أوقات ما، ويتمنون لو كان لهم نبي كما لليهود. قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقوله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]، وغير ذلك من الآيات.

﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: آتينا موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ التوراة تمامًا كاملة جامعة لجميع ما يحتاجه قومه في عقيدتهم وشريعتهم، وفيها تفصيل كل ما يحتاجونه في طريق عبوديتهم لله تعالى وإقامة دينه في قومهم. قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقول الله: ﴿عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ أي: جزاء على إحسانه في العمل، وإحسانه في الصدق مع الله والتجرد له، وإحسانه في الدعوة إليه والذب عن دينه وحراسته. قال الله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وفي التوراة هداية لبني إسرائيل إلى الصراط المستقيم، وفيها ما يرشدهم إلى الخير ويعينهم عليهم، ويصرفهم عن الشر ويباعدهم عنه.

وفي التوراة رحمة لهم، أي: إنزالها من معالم رحمة الله بهم أنْ علمهم كيف يعبدونه ويعظمونه، وفي الإقبال عليها والالتزام بما فيها تحصيل لرحمة الله بهم ورضاه عنهم، ثم هي رحمة بأمتهم التي لا يستقيم حالها في الدنيا ولا تسعد إلا بالوحي.

أنعم الله على قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتوراة لعلهم يؤمنون بإقبالهم على الله ووقوفهم للحساب بين يديه، ويؤمنون بما أعده للطائعين من النعيم المقيم، وبما أعده للعاصين من العذاب الأليم.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

ومن نعم الله عليكم يا أمة محمد ﷺ نعمة القرآن العظيم، أنزله عليكم واصطفاكم له كما أنزل التوراة على بني إسرائيل واصطفاهم لها، فدونكم كتاب الله مبارك، وبركاته موفورة في نزوله من عند ربنا العظيم، وهو كلامه لكم وخطابه لأفهامكم وأسماعكم، ومن بركاته أنه أنزل على خير خلق الله محمدٍ ﷺ، وكذا نزوله في أعظم الأشهر عند الله، وأعظم البقاع عند الله، وائتمان أعظم الملائكة عليه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبركته تجدونها في كل حرف تقرؤونه ثوابًا وعلمًا وهداية، وتجدونه في كل أمر ونهي تطيعون الله فيه، وفي كل تحكيم له في البلاد والعباد، والبركات وربي لا تكاد تنقضي.

والمطلوب: اتبعوه وقوموا بحقه خير قيام لعلكم تكونون عند الله في مراتب الأتقياء، وما أعظمها من مراتب.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾

أنزل الله عليكم القرآن إقامة للحجة عليكم، ولئلا تعتذرون يا أهل الشرك غدًا بين يديه إذا سألكم عن أعمالكم، فتقولوا: لقد أنزلت يا رب على طائفتين من قبلنا كتبًا وأرشدتهم إلى أسباب هدايتهم ونجاتهم، ولم تنزل علينا كما أنزلت عليهم، والطائفتان هما اليهود والنصارى. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القَصَص:٤٧].

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ ولئلا تقولوا أيها المشركون: لقد أنزلت التوراة والإنجيل بلغة لا نفهمها ولا نعقلها، ولم نكن نملك أدوات دراسة ما عندهم، ونحن في شغل كثير وانقطاع عنهم، فكيف نتعرف عليك ونعبدك ؟

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

أي: ومن تمام إقامة الحجة عليكم أن أنزل عليكم القرآن وأرسل إليكم الرسول لئلا يقول قائلكم: لو أنَّا أُنزل علينا ما أنزل عليهم من التوراة والإنجيل لكنا أسرع منهم في الاستجابة والاتباع والهداية.

وقد أخبرنا الله في محكم التنزيل أن أهل الشرك قالوا ذلك، وتعهدوا بأن يؤمنوا إذا جاءهم نذير، فلما جاءهم الرسول كفروا. قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].

﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ﴾ فهذه هداية الله لقلوبكم جاءت في البينة الظاهرة الواضحة كوضوع الشمس، وهي القرآن الذي نزل بلغتكم وعرفتم أنه لا يكون إلا من عند العليم الخبير.

جاءكم القرآن يحوي الهداية العظيمة، والرحمات التي لا يسعها كلام ولا خطاب، والتي انتفع منها المؤمن والكافر، والبَرُّ والفاجر، والتي عمَّ بسببها الخير والأمان في أرجاء المعمورة، وشهد لها القاصي والداني، فضلًا عن كونه رحمة خاصة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، فلله الحمد أولًا وآخرًا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ﴾ لا أحد أظلم لنفسه ممن لم ينتفع بالقرآن ولم يؤمن برسول القرآن محمد ﷺ، بل صدف عنها، أي: أعرض بنفسه عن آيات الله ثم صرف الناس عنها وصدهم عن الإيمان بها، فلا هو آمن ولا ترك غيره يؤمن !

﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ أعد الله بأسه وعذابه الشديد لكل من نصب راية العداء لله ولدينه ولأوليائه، لكل من نصب راية العداء لكتبه ورسله، لكل من أنكر البعث والحساب ولم يؤمن، لكل من نذر نفسه ليكون حربًا على

المؤمنين ومشاريعهم ودعوتهم. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النَّحل:٨٨].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

هذه الآية فيها تهديدٌ ووعيدٌ لمن كفرَ باللهِ العظيم، ولم يؤمن به إلهًا واحدًا، ولم يجعل عبادته خالصة إليه، وأنكر البينات والمعجزات، وجحد شريعة الإسلام الصافية النقية المُنْجية.

الآية تُنَاديهم وتقول لهم: هل ستبقون على كفركم وشرككم ونفاقكم وعنادكم، حتى

تأتيكم الملائكة بالعذاب في الدنيا كما أتت من قبلكم، فتستأصلكم وتستبدلكم ؟! وكما أتتهم في غزوة بدر وغيرها بالخزي والهزيمة والخذلان، أو حتى تأتيكم لقبض أرواحكم، أو حتى تأتيكم يوم القيامة في مشهد الفصل بين الأولين والآخرين، في مشهد مجازاة كلٍّ بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر ؟!

﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ وهل ستموتون على عقيدتكم الباطلة حتى تلقوا ربكم ويأتيكم ليحاسبكم؟! سيأتيكم ربكم في ظلل من الغمام، أي: في سحابات عظيمة، وفي ذلك اليوم يكون الأمر قد قُضي، فلا ينفعكم إيمان ولا ندم، وليس ثمة رجوع إلى الدنيا، فاستقيموا وادخلوا في الإسلام وأقيموا الدين. قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفَجْر: ٢١-٢٤].

وأخرجَ الطّبرانيُّ وغيرُه عن عَبْدِ اللهِ بْن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ"، قَالَ: "وَيَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَيُّهَا النَّاسُ: أَلَمْ تَرْضَوْا مِنْ رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ وَأَمَرَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَنْ يُوَلِّيَ كُلَّ نَاسٍ مِنْكُمْ مَا كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ وَيَعْبُدُونَ فِي الدِّينِ، أَلَيْسَ ذَلِكَ عَدْلًا مِنْ رَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى"، قَالَ: "فَلْيَنْطَلِقْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا" الحديث.

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ وهل تنتظرون يا أهل الكفر أن تأتيكم بعض آيات الله في دنياكم، فلا تنفعكم توبة ولا يُقبل منكم إيمان ؟ ولا ينفعكم الندم ولا يمكنكم الاستدراك، وتكون حينئذ عاقبتكم وخيمة وصعبة.

والمقصود بآيات الله هنا هي تلك الأهوال الضخمة التي تسبق قيام الساعة، والتي جُعلت علامة على قرب قيامة الناس، والتي بينت نصوص الشريعة أنها إذا جاءت فقد أُغلق باب التوبة، ولذلك قال الله:

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ إذا ظهرت هذه العلامات لا ينفع كافرًا إيمانه، ولا ينجو من عذاب الله لأنه لم يؤمن من قبل، ولا ينفع مؤمنًا إقباله على الأعمال الصالحة التي لم يكن يعملها من قبل، وظاهر الآية أنه فرَّط في جميع أعمال الخير، فهذا يكون عمله مردودًا عليه وإن كان صالحًا، لأن حكم إيمان من آمن، وحكم من أقبل على الصالحات في تلك اللحظات كحكم من آمن أو عمل عند الغرغرة، أي: عند لحظة الموت ومعاينة الدار الآخرة.

والمطلوب: احذروا يا أهل الكفر من استمراركم على ما أنتم عليه، واحذروا أيها المؤمنون من ترك الأعمال الصالحة والتهاون فيها، فإن الآيات إذا أذن الله بحصولها فقد حيل بينكم وبين ما تشتهون حينها.

بيان ذلك أن علامات الساعة متعددة، منها ما قد مضى، ومنها ما ننتظره، ومنها ما جعله العلماء علامة صغرى، ومنها ما جعلوه علامة كبرى، وقد جاءت أحاديث النبي ﷺ تَذْكر أن ثمة علامات كبرى تحول بين المرء وبين قبول توبته، منها:

ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قَالَ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾".

وما أخرجه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ ﴿لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ».

وأخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قال رسول الله ﷺ: "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه".

ومعنى الأحاديث أن باب التوبة يُغلق إذا خرجت الشمس من مغربها، وعلى هذه العلامة حمل جمهور أهل التفسير الآية هنا.

والأحاديث دلت كذلك على إغلاق باب التوبة إذا خرجت الدابة، وقد وردت آثار بأن الدابة تخرج في اليوم الذي تطلع فيه الشمس من مغربها لتخبر من تلقاه بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار، ولتخبر الناس عن سكناهم يوم قيامتهم. قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ [مُحَمَّد:١٨].

ولعل سبب إغلاق باب التوبة بالعلامات المذكورة أن خروج الشمس من مغربها يعني أن العالم العلوي تغيرت أحواله، وأيقن الكافر حينها أنه لا يقدر على ذلك إلا إله واحد، فآمن إيمانًا ضروريًّا لا اختياريًّا، فرُدَّ إيمانه في وجهه وكذا توبته.

أما عن خروج الدجال فقد استشكل ذلك على أهل العلم، وقالوا: كيف يُغلق باب التوبة بعد خروج الدجال وقد دلت الأحاديث على أن عيسى ابن مريم ينزل بعده ويقتله ويدعو الناس إلى التوحيد؟

وأجاب بعضهم أن الحديث الذي ذَكَر الدجال، ذَكَر معه الدابة وخروج الشمس من مغربها، والمقصود أن باب التوبة يغلق إذا خرجت جميعها.

واعلموا أن الآية هنا ذكرت مانعًا من موانع قبول التوبة والإيمان، وقد جاءت أدلة أخرى بينت أن ثمة موانع أخرى لقبول توبة العبد، وهي أن يتوب إلى الله إذا بلغت روحُه مبلَغها لتخرج وحضره الموت، وبعد أن يئس من بقائه على هذه الدار وأصبح في حكم أهل الآخرة، فكانت توبته في هذا الموطن توبةَ المضطرين الذين تركوها واستخفوا بها حال السعة والاختيار، ولذلك لا يقبلها الله ولا يرضى عن صاحبها.

وكذلك من كفر بالله أو بملائكته أو بكتاب من كتبه أو برسول من رسله أو لم يؤمن باليوم الآخر أو بالقدر، ثم لما أدركه عذاب الله وبأسُه أقبل على التوحيد والإيمان، لكذلك لا ينتفع.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غَافِر٨٤-٨٥].

ومن أهل الكفر من يعرض توبته في أرض المحشر ظانًّا أن ذلك نافعه، وأن ندمه على ما فات سيُنْجيه، ولكن هيهات فإن الله تعالى قدَّرَ ألا تُقبل توبةٌ بعد موت العبد وقيامته لليوم الآخر، فإنه يوم الحساب لا يوم العمل. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ قل لهم يا رسول الله ﷺ متوعدًا ومهددًا لعلهم يتوبون ويكفون أيديهم عن المؤمنين: انتظروا وعيد الله لكم ما دمتم مقيمين على كفركم ومعاصيكم، فإنا نحن

المؤمنين منتظرون أن نرىٰ فيكم عجائب قدرة الله علىٰ ما قدَّمتم من قتلٍ وسفكٍ للدماء، وتحريضٍ علىٰ الكفر وإيذاء أولياء الله.

ينتظر أهل الكفر منا أن نترك دعوتنا، وأن يهزمونا ويتخلصوا من مدافعتنا لهم، ونحن ننتظر أن يحل بهم ما آمنا به وصدَّقنا من مجيء الملائكة بالعذاب، أو مجيء الرب جل وعلا لحكم القضاء والفصل، أو مجيء علامات يتغير معها نظام العالم وتُغلق أبواب التوبة. قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة: ٢٩-٣٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

الذين فرقوا دينهم وتفرقوا أصناف:

١- منهم المشركون، فإنهم لم يتفقوا علىٰ صورة واحدة في الدين، فقد عبدت القبائل أصنامًا مختلفة، وكان بعض العرب يعبد الملائكة، وبعضهم يعبد الشمس، وبعضهم يعبد القمر، وكانوا يجعلون لكل صنم عبادة تختلف عن عبادة غيره، وقد كانوا شيَعًا، أي: فرقًا وجماعات وقبائل تزعم كل منها أن آلهتها هي الأقوىٰ والأحق بالعبادة.

٢- ومنهم اليهود والنصارىٰ، وقد كانوا شِيَعًا، أي: فرقًا وجماعات مختلفة ومتناحرة ومتخاصمة، وقد قامت خصوماتهم علىٰ الضلالات والأهواء.

يخاطب الله تعالىٰ نبيه ﷺ ويقول له: أنت لست منهم في شيء، أي: أنت بريء منهم ومن أفعالهم، لا صلة بينك وبينهم، ولا تتحمل إثمهم في الضلال، وأنت لست مثلهم، والأصل أن تحذر أمتك من فعالهم.

واعلم أن حالهم في فُرقتهم وضلالاتهم ليس إليك، ومحاسبتهم ليست عليك، ولكن أمرهم لله وحده، وهو يمهلهم ويملي لهم، وسوف ينبئهم يوم القيامة بما فعلوه، ويفصل بينهم فيه، ويحاسبهم عليه.

وبيان ذلك في حق أهل الكتاب أن أهل التوراة والإنجيل اختلفوا في أصول دينهم، وبدلوا وغيروا، وكتموا آيات بعثة محمد ﷺ، وحملوا ما بقي منها علىٰ غير ما دلت عليه، بل أجمعوا علىٰ عداء هذه الأمة المصطفاة.

واختلافهم لم يقتصر على أصول دينهم فيما بينهم، ولا على مخالفة ما عند المسلمين، بل كفرت كل طائفة من أهل الكتاب بما عند الأخرى، كما قال ربنا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البَقَرَة: ١١٣].

ومن عجائب اختلافهم أنه حصل من بعد ما نزل عليهم الوحي بعلم التوراة والإنجيل، وأقيمت عليهم الحجة الظاهرة بإنزال الكتب وإرسال الرسل، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البَيِّنَة: ٤]، فعلموا الحق ثم خالفوه واختلفوا فيه وحرفوه، وأعطاهم الله تعالى الكتاب ليرفعوا به الخلاف فاختلفوا فيه.

ومع أنهم أهل دين واحد، إلا أنهم اعتدَوْا وتجاوزوا وتحاسدوا وتباغضوا وطلبوا الرئاسة والسيادة ظلمًا وعدوانًا، وكل فرقة منهم تريد السلطة الدينية والدنيوية دون غيرها، وهذا هو عين البغي المذكور في الآية، وقد حملهم بغيهم هذا على كثرة الخلاف بينهم، وعدم تقبل الحق من قائله أيًّا كان.

انظروا إلى النصارى كيف تشعبت طوائفهم في عدد من أصول دينهم، وكيف اختلفوا في حقيقة المسيح اختلافًا كبيرًا، واختلفوا فيما هو معتمد من أناجيلهم وفيما هو مردود، واختلفوا في غير ذلك مع أن العلم جاءهم من قبلُ على لسان عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وجاءهم على لسان عدد من تلامذته الذين أنكروا ألوهيته وصلبه، ولكنهم اختاروا طريق الفرقة والاختلاف، والحرص على الرياسة والقيادة، وتناولوا بعضهم بالقتل والتكفير، وقامت حروب عظمى بينهم.

وكأن الآية تنادينا وتوجهنا: احذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم، واحذروا أن تختلفوا في أصول شريعتكم، وفيما جاءكم من علم في الكتاب والسنة، ولا تنافسوا الدنيا فتهلكَكم وتُذْهبَ ريحَكم، بل اثبتوا على الحق، واقبلوه وارضَوْا به، واصبروا على ما تلقون حتى يأذن الله بالفرج. قال الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أنبيائهم".

ولقائل أن يقول: وهل أهل البدع في المسلمين من الذي فرقوا ديننا وجعلونا شِيَعًا وجماعات متفرقين يدخلون في هذه الآية؟

والجواب أنه نعم، ولذلك ذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية ليست في اليهود والنصارى فقط، ولكنها فينا نحن معاشر المسلمين أيضًا، فقد نزلت في التحذير من السكوت عنهم وتركهم يسرحون في هذه الأمة ويمرحون، فإنهم خطر عظيم عليها.

وجملة القول أن هذه الأمة أمة واحدة، وأن الأصل أن تجتمع على منهج واحد في الاعتقاد، وأن تفقه عن الله أوامره ونواهيه كما علمنا إياها رسول الله ﷺ، وكما جاءت عن الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكما أرشدنا إليها وبين معالمها علماء هذه الأمة من السلف والخلف، أعني العلماء الثقات الربانيين الذين عظم القرآن في قلوبهم، وعظمت السنة في قلوبهم، وعظم هدي السلف الصالح وعلماء الأمة كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد في قلوبهم، رحمهم الله جميعًا وجزاهم ربنا عنا كل خير.

وهنا يمتد الحديث لنتكلم عن أهل البدع والضلالة الذي وُجدوا في هذه الأمة، وأرادوا صرفها عن الجادّة والصراط المستقيم، واستعملوا آيات القرآن والأحاديث بمعزل عن أصول العلم والفهم، وبعيدًا عن القواعد المرعية عند الصحابة والسلف وكبار علماء الأمة، وتتبعوا الشبهات والمتشابهات فَضَلوا وأضلوا غيرهم، كما فعلت الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم.

ولا يفوتني أن أشير إلى أن الاختلاف في هذه الأمة لم يذهب إلى أصولها وأصول عقيدتها على الغالب، وأن الحالات التي وُجدت من هذا النوع كان أئمة الإسلام يردونها على صاحبها، ويطلبون من إمام المسلمين إقامة حد الله فيه وعليه، بخلاف خلاف الأمة في فرعيات هذه الشريعة فإنه موجود وموفور، وهو خلاف له وجهه العلمي على الغالب، وله مساحة من القبول ما دام أصحابه يجيدون إدارته والتعامل معه.

ولعلي أستطرد قليلًا هنا في الحديث عن ضرورة تآلف هذه الأمة واجتماع كلمتها لعظم هذه المسألة، وخطورتها في البناء العلمي والشرعي والفكري في حياة الأمة، فأقول:

إن الاجتماعَ على هذا القرآن وما فيه من هدى، والاجتماعَ على سنة المصطفى ﷺ كما أمر القرآن، ولزومَ جماعة المسلمين، وعدمَ التفرق والتشتت، سببٌ عظيم لقوة المسلمين وحفظ الله لهم، ونصرهم على عدو الله وعدوهم.

واعلموا أن التفرق المنهي هو التفرق الذي يكون في عقيدتنا، ويكون في أحكام شريعتنا التي جاءتنا بنصوص قطعية في ثبوتها ودلالتها، والتفرق المنهي عنه هو تحكيم الأهواء والأمزجة في دين الله تعالى.

أقول ذلك لأن الاختلاف طبيعة بشرية لا ينفك الناس عنه، وقد اختلف أئمة الإسلام في عدد من الأحكام التي جاءت في نصوص ظنية في ثبوتها أو دلالتها، ولم يكن دافعهم في ذلك الهوىٰ ولا التعصب، ولذلك كان مقبولًا، وينقصنا أن نتعلم إدارته وكيفية التعامل معه لا أن نلغيَه ونقضيَ عليه.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَىٰ لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ".

ومن الأبعاد المهمة في مسألة وحدتنا، الثبات علىٰ عقيدة الولاء والحب في الله، والبراء والبغض في الله، حتىٰ نتمثل النداءات الربانية والنبوية بلزوم الجماعة والبعد عن الفرقة. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وأخرج البخاري ومسلم عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ".

وأخرج مسلم عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ".

وقد كان ﷺ يحرص علىٰ دوام الاجتماع، وتمام الألفة بين أصحابه وبين المسلمين، كما حصل في قصة شاس بن قيس اليهودي الذي أغرىٰ بالعداوة بين الأوس والخزرج فأصلح ﷺ بينهم، وكما في تثاوُرِ عدد من الصحابة في حادثة الإفك وخصومتهم.

ولذلك لما وَجَد بعض الأنصار في قلوبهم شيئًا يوم قسمة غنائم حنين، ذَكَّرهم نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بنعمة الهداية ونعمة تأليف القلوب، كما أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي».

والمتأمل لمنظومة التشريع يجدها قائمة في كثير من أحكامها علىٰ التأليف بين المسلمين، وعلىٰ إزالة أسباب الشحناء والبغضاء، وعلىٰ ضرورة الإحسان لمن أساء، مع الصبر علىٰ سوء الخلق في مواطن كثيرة، ولكم أن تتأملوا منظومة بر الوالدين وأثرها في تحقيق التآلف، وكذلك منظومة صلة الأرحام، ومنظومة حقوق الجار والكبير والصغير، وحقوق المسلمين جميعًا.

أخرج البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ. قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

ولكم أن تتأملوا في منظومة توزيع الزكاة، والصدقات، والكفارات، والأخلاق الممتدة في جميع أنواع المعاملات من الصدق والوفاء بالوعد والتراحم، وفضل كلمة الخير والابتسامة.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

هنا ترغيب للمؤمنين المقصرين في العمل الصالح، والذين أشارت إليهم الآية السابقة، ترغيب لهم جاء بعد ترهيب وتخويف كعادة القرآن.

هنا كرم عظيم من رب عظيم، يقوم على مضاعفة الحسنة في الأجر والمثوبة، دون مضاعفة السيئة، وهذه الآية فيمن مات على التوحيد مؤمنًا بالله العظيم وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكان من أهل العمل الصالح ممن صلى وصام وتصدق وأمر بالخير ونهى عن الشر، فمثله يضاعف الله تعالى له عمله إلى عشرة أضعاف أو إلى أكثر كما جاءت بذلك أدلة أخرى، والمضاعفة تكون بحسب حال هذا العمل ونفعه، وبحسب حال صاحبه إخلاصًا ومحبة وتعظيمًا.

قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، وقال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤].

وأخرج البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً".

والآية مع الأحاديث الواردة تدل على أنه من همّ بالخير وعزم عليه وأراد فعله، فإنه يُؤجر على كلا الحالين، سواء فعله أم لم يفعله، فقد يَهُمُّ العبد وينوي ويعزمُ على صلاة أو صيام أو جهاد أو غير ذلك من الأعمال الصالحة، ثم لا يستطيع فعل ذلك لسبب ما، فهذا يبلغه الله ما نوى، ويُؤجر على ما همَّ به.

وتدل كذلك على أن إثم السيئة لا يتضاعف، بل يُكتب سيئةً واحدة فقط رحمة بالعباد، فإذا عزم على فعل سيئة فلم يفعلها، فهنا أحوال:

إما أن يتركها لله فهذا يؤجر عليها حسنة، كما دل على ذلك ما أخرجه مسلم، أن النبي ﷺ قال: "قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ (يعني: ربنا أعلم به)، فَقَالَ: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ". أي: تركها من أجلي، وهذا يدل على أن تركها لا بد أن يكون لله ليؤجر عليها.

وإما أن يتركها ذهولًا عنها وغفلة، فهذا لا يُثاب ولا يُعاقب، فإنه لم ينو خيرًا ولم يفعل شرًّا.

وإما أن يترك المعصية لأنه لم يتمكن من الوصول إليها، أو خوفًا من الفضيحة أو لينال مدح الناس، فهذا محاسب عليها وتُكتب عليه سيئة، ويتنزل منزلة فاعلها في الإثم لعموم الأدلة التي تدل على ذلك، كحديث البخاري ومسلم عن أبي بَكْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: "إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: "إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صاحبه".

ومثل هذه الآيات تدفع المؤمن إلى أن يستحي من الله تعالى، فتأملوا يرحمكم الله كيف يبشرنا ربنا بمضاعفة الحسنات التي لولاها لهلكنا، ولكنا من أشقى الناس، وكيف يبشرنا بعدم مضاعفة السيئات لا لنفعلها ولنتجرأ على الله باقترافها، ولكن لنعلم أن الله تعالى يحبنا ويصطفينا ويعيننا وهو أعلم بحالنا.

المؤمن لا يستخف بنظر الله إليه، ولا يغتر بعدم مضاعفة السيئات فيتفنن فيها ويصر عليها، ولكنه يجاهد نفسه باجتنابها وإغلاق أبوابها وطرائقها، فإذا وقع فيها بادر إلى التوبة النصوح، وندم، وعزم على هجرها لله.

لقد بشر نبينا ﷺ أصحابه بأنهم من أهل الجنة وهم في الدنيا، فما اغترَّ واحد منهم بنفسه، ولا اتَّكل على البشرى، ولكنهم سارعوا في الخيرات، وتسابقوا في الأعمال الصالحات، وبقي الواحد منهم يعيش الخوف من معصيته، ويعيش الوَجَل من الجليل العظيم الكريم، ويعيش فكرة أن يُختم له بما لا يُحب، فهلّا أقبلنا على الله كما أقبل علينا، وهلّا جعلنا أصحاب محمد قدوة لنا، ﷺ، ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. أخرج مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاءُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً».

صحيح أن الآية جاءت في معرض بيان ثواب عمل المسلم وعقابه، إلا أن المقام ربما يسعفنا في أن نشير إلى أنه من مات كافرًا بالله العظيم ولم يؤمن بما أمر الله به، فإن حسناته تُعَجَّل له في الدنيا، رزقًا وطعامًا وشرابًا وصحة وولدًا، أما في الآخرة فلا يدخل جنة الله تعالى حتى يلج الجمل في سم الخياط. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، وأخرج مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا".

وقد يخفف الله تعالى عنه من عذابه بقدر ما عمل من الصالحات، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ (يحميك) وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: "نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ (أي: عذاب قليل، والعرب تسمي الماء القليل ضحضاحًا)، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ".

بل إن عددًا من أهل العلم حمل هذه الآية على أنها خطاب للمشركين، فقال: من جاء بحسنة لا إله إلا الله فله أجر مضاعف عظيم، ومن أصر على الشرك فسوف يجازيه الله بعدله ولن يضاعف عليه السيئات.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

أخبرهم يا رسول الله ﷺ بأعظم نعم الله عليك، وهي نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا شك فيه ولا حيرة، ولا خطأ ولا فساد.

هذا الصراط جاء وصفه في الآية بأنه ﴿دِينًا قِيَمًا﴾، أي: دينًا ثابتًا معتدلًا مستقيمًا، يتضمن العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة، ويُقوِّم به أمر الناس في المعاش والمعاد.

وجاء وصفه كذلك في الآية بأنه ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: على دين أبي الأنبياء نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والذي لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولكن كان على ملة الحنيفية.

والملة هي الدين والمنهج والطريق الذي جاء به من عند الله، والذي دعا فيه إلى تجريد التوحيد للرب العظيم.

ومعنى حنيفًا، أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد، ولم يكن مِمَّن اتخذ مع الله ندًّا أو شريكًا، أو نسب لله العظيم ولدًا أو صاحبة، وإنما كان مستقيمًا، مُخْلِصًا، متبعًا لأمر الله.

أخبرهم يا رسول الله ﷺ بذلك لعلهم يتبعون طريق الحق والاستقامة والهدى.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٣٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحْل: ١٢٠-١٢٣].

وأخرج أحمد والنسائي وغيرهما عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: "أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ".

وانظروا أنتم في أنفسكم يا من تعيشون مع القرآن تلاوة وفهمًا وتدبُّرًا، هل وجدتم أعظم من نعمة الهداية ؟ وهل أدركتم عِظَم نعمة الله عليكم أن شرح صدركم للدين، وجعل العيش مع القرآن حلاوة الحياة وبهجتها وجمالها ؟ وأسعد قلوبكم بالصلاة والصيام والعمرة وبر الوالدين وقول الخير ؟

أقرأ في استحضار نعمة الهداية لنبينا ﷺ ولنا من بعده، ضعف الواحد منا، وحاجته إلى صدق الاستعانة بخالقه ليربط على قلوبنا ويثبتنا.

وأقرأ فيها كذلك: طاعة الله تعالى مفتاح كل نجاة وسعادة، وكل من خالف هواه وترك التعلق بأوهام المتع واللذائذ المحرمة، سقاه الله تعالى كأسًا من الحكمة والعلم والهدى فعرف الخير من الشر، وأصبح التزامه بدينه يسري في لحمه ودمه بتوفيق من الله تعالى.

وأقرأ فيها ثباتًا على الحق وقوة في الدين، وإغلاقًا لباب المجادلة والمحاجة مع أعداء الملة والمتربصين بأهلها.

وهنا همسة في أذن الصالحين والصالحات الذين ربما كان بعضهم بعيدًا عن طاعة الله، وعن طريق الاستقامة في مرحلةٍ من عمره، ثم أكرمه الله بالهداية وتاب عليه ويسَّرَ له طريق الطاعة وشرح صدره لما يحب ويرضى، حتى أصبح إيمانه كالجبال، أقول له: إذا رأيت من أغْرقتْه المعاصي، وحُبِّبت إليه الذنوب، وأسرف على نفسه فيها فاذْكُرْ أولَ ما تذكرُ فضل الله عليك، ثم اجعل الشفقة والرحمة مفتاحًا لتصل إلى قلبه، واحرص على أن تنقله إلى الحياة الطيبة التي أكرمك الله بها واصطفاك لها، فالمتتبع لأحوالهم يجد أن كثيرًا منهم يحتاجنا وينتظرنا، ويجد أن كلمة راقية ومعاملة لائقة منا قد تعينه على طريق الاستقامة والهدى.

أقول هذا في حق من غلب على ظنكم قربُه وحبُّه لدينه، ولكن غلبه هواه وانتصرت عليه شهواته وربما كان جاهلًا، ولا أقوله في حق من عاداكم وعادى دينكم وتربص بكم الدوائر، ولا أقوله فيمن كان رأسًا في الشر ومفتاحًا للفجور في الأرض، فهؤلاء ليس لهم إلا الغلظة والمدافعة والتحذير منهم ومن شرهم، نعوذ بالله من الفتن.

وهنا: نستحضر أن القلوب بيد الله سبحانه وتعالى، وأن الهداية لا تكون إلا بإذنه، وأن العبد الموفق هو الذي يَفرُّ إلى الله تعالى إذا عصف بهذا القلب أمرٌ، ولا يُعَلِّقُه ببشرٍ ولا حجرٍ، ويَحْمدُ الله تعالى أن فتح له أبواب الهداية وأعانه فيها، وأنْ كرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان.

الحمد لله الذي حفظ على صاحب القلب السليم دينه وعقيدته، وجعل الردة بعيدةً بُعْدَ المشرقين عن القلبِ الذي يحمله، القلبِ الذي ذاق حلاوة آيةٍ من القرآن العظيم، أو حلاوةَ سجدة بين يدي الله، أو تفيَّأَ ظلال حديث من مشكاة النبوة، أو نظر في التشريع الرباني الذي أبهرَ البشرية بإحكامه وارتقائه بأهله، أو صَدَقَ الله تعالى بسؤاله الثبات على دينه حتى الممات.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾

وقل لهم يا رسول الله ﷺ: أنا لا أصلي لأصنامكم، ولا أتقرب بنسكي لآلهتكم كما تفعلون، ونسكي هي الذبائح التي أذبحها في حجي وعمرتي وجميع شعائري، ولكني أفعلها لله وحده لا شريك له، لله الذي خلقني ورزقني وأكرمني، لله الذي بيده نفعي وضري، لله الذي اصطفاني من بين خلقه وأنعم عليَّ، لله رب الأولين والآخرين وأهل السماوات وأهل الأرض والعالمين جميعًا. قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكَوْثَر: ٢].

ثم اعلموا أن محياي كله لله رب العالمين وخالقِهم ومدبرِ أمرهم ومالكهم، ومحياي، أي: مدة حياتي التي سأحرص أن تكون قائمة على منهج الله خالصة له.

وكذلك مماتي، أي: ستكون ميتتي ميتة طيبة لله تعالى، إما الشهادة وإما الموت على صالح العمل وصلاح السريرة.

ومن تأمل جماع هذه الكلمات وأحوالها علم أنها تحمل تيئيسًا للمشركين من طاعتهم، ومن الحَيْدة عن دعوتنا إلى طريقهم، ومن الرضا بالشرك وطرائقه ومحبة أهله.

وهذه الآية فيها أصل عظيم من أصول العبودية للرب جل وعلا، وهو أصل الإخلاص، وهو أحد ركنين لا بد من توافرهما في أي عمل حتى يكون مقبولًا عند الله.

أذكر لكم عددًا من الفوائد العلمية والتربوية في الإخلاص، فتأملوا:

١- المخلصون يريدون وجه الله وكفى، وتراهم يجاهدون أنفسهم على الدوام ليصلوا إلى مرحلة ينسون فيها نظر الخلق، ويبقون فيها دوام النظر بينهم وبين الخالق.

٢- الإخلاص سر النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، وهو الذي لا يَتَأَتَّى الأَجْرُ إلا به، وعكسه الرياء وهو مُبطل للعمل، وعلامة من علامات أهل النفاق. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّسَاء: ١٤٢]، فالمنافق يُظْهر الصلاة، ولكنه لا يفعلها من أجل الله، بل من أجل الناس لنيل مدحهم، ومشاركة المسلمين في الغنائم والأموال، وحفظ نفسه من القتل إذا انتصر أهل الإسلام.

٣- الذي يعمل العمل من أجل الله يتقن العمل، ويخرجه على أحسن وجه وأتم حال، فتجد صلاته وصومه وصدقته وبره للوالدين وصلته للأرحام مختلفة، وكذا الحال مع القرآن والدعاء والذِّكر، يجد لذتها في مجملها وتفاصيلها.

٤- المخلص لله يمضي في عمله وإن ذَمَّه الناس ولاموه، وإن سكتوا عنه ولم يشكروه، ويقبل على الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجميع الأعمال الصالحة، سواء نال حظًّا من حظوظ الدنيا أم لم يَنَل.

٥- الذي يريد وجه الله وكفى من عمله لا يحرص على إظهاره أمام الغير إلا بقصد الحث على الخير، ولا يبطل عمله بالمنِّ والأذى، وليس للعُجْب محل في قلبه وإن تكلم الناس عنه ومدحوه.

٦- المخلصون يراقبون أنفسهم ويحاسبونها ويخالفونها، ويقبلون على طاعة الرب في السر كما يقبلون عليها في العلانية، وإذا وجد الواحد منهم اختلاطًا في نيته فزع إلى مولاه ودعاه بلسان صادق بأن يعينه على نفسه، وأن يسدده في القول والعمل والنية، ويمتثل للتوجيه النبوي الذي أخرجه البخاري في الأدب المفرد، عن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "يَا أَبَا بَكْرٍ لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ" فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر؟ قال النَّبِيُّ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟ قَالَ: قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لما لا أعلم".

٧- الطريق إلى الإخلاص إنما يكون بمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ عن طريق أسمائه وصفاته وآلائه ونعمائه، ويكون عن طريق النظر في الكتاب والسنة وتتبع الإعجاز العظيم فيها، ويكون عن طريق التأمل في هذه الحياة الدنيا وما تحمله في طياتها من عظات وعبر.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ".

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

لا أقول: إن الأصنام واسطة بيني وبين ربي، ولا أقول بتعدد الآلهة، ولا أنسب لله الولد والصاحبة، ولا أُحَكِّم في نفسي وأهلي وأمتي إلا شريعة الله ومنهاجه الذي ارتضاه للعالمين.

أخرج مسلم عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ «كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» الحديث.

وأخرج أبو داود وابن ماجه، بإسناد حسنه بعض أهل العلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: ضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ عِيدٍ بِكَبْشَيْنِ، فَقَالَ حِينَ وَجَّهَهُمَا: "إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات وَالْأَرْضَ حَنِيفًا مسلمًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ، عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ".

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: قل يا رسول الله ﷺ: أنا أول من أسلم من هذه الأمة، وأنا أوّل من أقرَّ وأذْعن وخضع من هذه الأمة لربه، وارفع رأسك بالإسلام، وامضِ في ثبات نحو الجنات، ولا تحزن ولا يدخل الخوفُ إلىٰ قلبك، فإن الله معك وهو حافظك وناصرك.

أنت أول من أسلم من هذه الأمة، وأول من سار علىٰ طريق الأنبياء والرسل والصالحين من قبله.

أخبر الله تعالىٰ عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونُس: ٧٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٠ -١٣٢].

وأنتم كذلك أيها المؤمنون القابضون علىٰ دينهم، الباذلون وقتهم وأموالهم وأولادهم من أجل دين الله: ارفعوا رؤوسكم بهذا الدين، ولا يصرفنكم عن طريق الأنبياء وقاحةُ أهل الباطل وعلوُّهم في مدة من الزمن، فإن الله وعدكم بالتمكين، ووعد الله لا يَتخلف.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

ومن تمام القول وإقامة الحجة عليهم وتذكيرهم أن تقول لهم: كيف أعبد مخلوقًا من دون من خلق؟ وكيف أجعل الرغبة والرهبة عند من لا يملك الضر والنفع؟ وكيف أعظم غير من أعلم تمام العلم أنه خلقني، وأنه يملك أمري، وأن مرجعي إليه؟ بل كيف أصرف طاعتي لغيره، وأتوكل على غيره، وأنيب لغيره، والخلق والأمر له وحده سبحانه لا إله إلا هو، ولا رب سواه ؟! قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، وقال سبحانه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُودٍ: ١٢٣]، وقال جل وعلا: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الْمُلْك: ٢٩].

أراد المشركون في معركتهم مع المؤمنين أن ينتزعوا اعترافًا من نبينا ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم بالأصنام، وبإلهيتها، وبأن لها أثرًا في النفع والضر، فطلبوا منه أن يعبدها يومًا من العام، وأن يسكت عن ذِكْرها وبيان خفة عقول من يتقرب إليها بشيء، ولكنه لا يبغي ربًّا سوى الله كما لا نبغي نحن.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾

في يوم القيامة، لا يغني أحد عن أحد، ولن تضرونا شيئًا بعبادتكم للأصنام، ولن تنفعكم آلهتكم التي تعلقتم بها وجعلتموها نِدًّا للخالق، وستكون كل نفس رهينة بما كسبت من أعمال الخير، ومن أعمال الفجور، وستكون رهينة بما تسببت به من أعمال الخير والشر في الناس، فإن كانت مفتاحًا للخير أفلحت ونجت، وإن كانت مفتاحًا للشر خابت وخسرت نفسها وأهليها.

إن الوالد الذي كان سببًا في صلاح أولاده سيكون كسبهم في صحيفته، وإن المعلم الذي علَّم وأرشد ستناله بركة كل عمل طيب لمن علمهم، وقيسوا على ذلك الواعظ والعالم وخطيب يوم الجمعة والإمام، وقيسوا على ذلك كل من حمل لواء الدعوة وإن لم يكن واعظًا. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ﴾ [الطور: ٢١]، وأخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

وأخرج مسلم من حديث جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن نبينا ﷺ قال: "مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ".

يا أهل الإيمان: احذروا الذنوب، ولا تعتذروا عن فعلها بأن فلانًا أضلكم، وبأن من حولكم لم يعينوكم على الطاعة ولم يرشدوكم إلى دوام فِعلها، واعلموا أنكم ستأتون الله تعالى فرادى، وسيُسْأل كل واحد عما قَدَّم، فإن كان ما قدمه إثمًا وحرامًا كان وِزْرُه وإثمُه عليه، ولن يحمل أحدٌ عن أحدٍ شيئًا ولو كان حبيبه وقريبه، وهذا من عدل الله في حُكمه وقضائه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فَاطِر: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ سنُعرض جميعًا على الله، وسيفصل بيننا في أرض المحشر التي لا راية فيها لأحد، وليس ثمة إلا حكم الله ولطفه وقضاؤه.

سينبئكم ربي بكل ما فعلتم يا أهل الكفر والشرك، وسيقضي بينكم وبين المسلمين فيما اختلفتم فيه، وستأخذون صحائفكم بشمائلكم، وستشهد عليكم جوارحكم، وستعلمون أن وعد الله ووعيده حق. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سَبَإ: ٢٥-٢٦].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

يا أيها الناس: إن من دلائل عظمة من تعبدون، وإليه تفزعون، أنه جعلكم تَعْمرون الأرض جيلًا بعد جيل، وقَرْنًا بعد قرن، وخلفًا بعد سلف. قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّمل: ٦٢].

ويا أيها الناس: إن من علامات بعثكم بعد الموت أن الله أمات أممًا وأحيا أممًا، وأمات أقوامًا وأحيا آخرين، فلن يَعْجز بعد وفاة الجميع أن يبعثهم، فتأملوا !

ويا أيها المؤمنون: إن الله جعلكم خلائف في الأرض من بعد أن ظهر الكفر وأهله فيها، فتمكسوا بحبل الله وحافظوا على الإرث الرباني، ولا تركنوا إلى الذين كفروا.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ اعلموا أنَّ التفاضُلَ بين الأماكنِ والأزمانِ والنَّاسِ مما قدَّرهُ اللهُ تعالى في خلقِه بحسبِ علمِه وحكمتِه، وقد جعل هذا التفاوت في

الرزق والخلق والمحاسن والمساوئ، وجعله كذلك في الأشكال والألوان والمنظر.

هذا التفاضُل قدَّره كذلك ربُّنا بين الرُّسُلِ، مع اشتراكِهم في خَصْلةِ أنَّهم خيرُ البشرِ؛ فإبراهيمُ عليه السَّلامُ فُضِّلَ بالخُلَّةِ، وموسى عليه السَّلامُ بالتَّكليمِ، وداودُ عليه السَّلامُ بالزَّبورِ الحافلِ بالتَّسابيحِ والمحامدِ والعِبر والمواعِظِ، وسليمانُ بالمُلْكِ من تسخيرِ الجِنِّ والرِّيحِ وغيرِ ذلك، ومحمدٌ ﷺ بمغفرتِه له ما تقدَّمَ من ذنبِه وما تأخَّر، وأنَّه سيدُ ولدِ آدمَ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

أما في الآخرة فقد جعلت الشريعة ميزان التفاضل ورفعة الدرجات قائمًا على التقوى والخشية، والإيمان والعمل الصالح، وذلك بخلاف الدنيا التي قامت أحكام شريعة الله فيها على التساوي في أحكام، والاختلاف في أحكام، نظرًا إلى طبيعة الخلق، وحرصًا على التكامل المنشود لعمارة الأرض وصلاح الإنسانية. قال جل وعلا: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

ولقائل أن يقول: ولماذا هذا التفاوت في الخلق ؟

والجواب جاء في قول الله ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾، أي: ليختبركم في السراء والضراء، ويمتحنكم في رضاكم عن الله وفي إيمانكم وصبركم، ولينظر كيف تتعاملون مع نعمه عليكم من جمال وصحة ومنصب وشهادة، وكيف تتعاملون مع نعمة الولد ونعمة العشيرة والقوة.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَة خَضِرَة وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفَكم فِيهَا لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ".

تريد منا الآية أن نسعى لأن تكون نعم الله علينا من المال والولد والصحة مصروفةً فيما يرضي الله تعالى، وألا يتقوى المرء منا بغير دينه وطاعته، وأن يستحضر على الدوام أن هذه النعم قد تنقلب على صاحبها إذا أصابه الغرور، أو أضاع أمانة الله فيها.

ومن فوائد هذا التنوع في الخلق التعرف على الله في قدرته وعظمته، والمسارعة إلى الاستسلام لأمره، فإنه الرب العظيم جل جلاله؛ يخلق الأبيض والأسود والأحمر، والغني والفقير، والقوي والضعيف، والكبير والصغير، والطبيب والمهندس والعالم والعابد والعامل، وغيرَ ذلك من أهل التخصص والصناعات.

ومن فوائد هذا التنوع أن يبلو الله بعضنا ببعض، أعني أهل الإيمان وأهل الكفر، وأهل الطاعة وأهل الفسوق، ولذلك: لا تخافوا بأس عدو الله وعدوكم، واعلموا أن حكمة الله قضت أن يَبْلوَ

الناس بعضهم ببعض ليعلم الصادقين من غيرهم، وقضت أن تكون العاقبة لأهل الحق إن ثبتوا وأخذوا بأسباب النصر، فاصدقوا الله وكونوا من جنده الصابرين. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٤].

ومن فوائده كذلك أن يخدم بعضنا بعضًا، وأن يسخر الغنيُّ الفقيرَ لمساعدته في أحوال، وكذا الحال بين العالم والجاهل، والطبيب والمريض، وصاحب المهنة والصناعة، وجميع العاملين في هذه الدنيا، فالله سخرنا ليكمل كل منا غيره ويتكامل عيشه به. قال جل وعلا: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزُّخْرُف: ٣٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ختام للسورة يخلع القلب، ويربط القارئ المتدبر بالسورة كلها، بل بالقرآن كله، فالسورة جاءت ترغب وترهب، وتَعِظ وتذكر، وجاءت بآيات الله الكونية التي تدل على الخالق المدبر العظيم اللطيف، وجاءت تقيم الحجة تلو الحجة على جميع الخلق، ثم في ختام السورة جاءت لتخبرهم بعد هذا الحِجاج أن رحمة الله قريبة جدًّا من المحسنين التائبين العابدين، وأن عذاب الله قريب جدًا من المستكبرين المعرضين العاصين.

وكأن الآية تقول للناس جميعًا: إن الله تعالى ينادي على أهل الكفر وأهل الإيمان، ويخوفهم ويرغبهم، ليتوب العاصي والكافر، وليثبت الطائع والمهتدي، وليكون الجميع على بينة من أمره. أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ».

جعلنا الله جميعًا ممن ائتمر بأمر الله، وممن اجتنب المحارم، ورزقنا الثبات حتى الممات، والحمد لله رب العالمين.

ولا يحضرني هنا إلا قولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فلله الحمدُ أولًا وآخرًا، وله الفضل والمِنَّةُ، وأسأله سبحانه أن يعينني وإياكم على حمل أمانة تبليغ الدين الذي تعلمناه، والذَّبِّ عن حياضه، وشكره على ما أنعم به وأكرم، والحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارِك على نبي الرحمة والهدى محمدٍ، وعلى إخوانه من الأنبياء والرسل، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن حمل رايتهم وسار على هداهم إلى يوم الدين.

التفسير الوعظي لسورة الأنعام

darfan.com